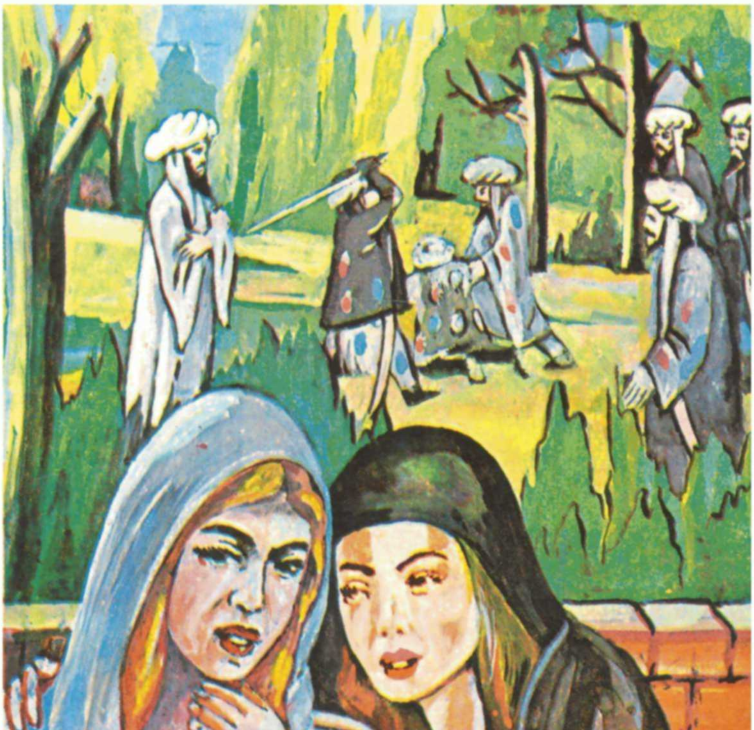
روايات تاريخ الإسلام



جرجي زيدان

اسير المتمهدي



منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

أسير المتمهدي

روايات تاريخ العرب والإسلام

أسير المتمهدي

رواية تؤرخ لأحداث الربع الأخير من القرن التاسع عشر
ومطالع القرن العشرين

تأليف

جرجي زيدان

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

مُقَـدّمَة النّاشر

الأمة هي التاريخ . . وتاريخ كل أمة هو تلك البصمات التي يطبعها الرجال الذين يصنعون تاريخ أمتهم . . بالجهد والتضحية على وجهها حتى يعود وضاحاً مشرقاً، ومفخرة لها بين سائر الأمم.

ولا تزال الأمم في مسار تقدمها ورقيها تقتبس من نور تاريخها، وتلتزم تراثها، وتهتدي بعطاء عظمائها ورجالاتها وهي تمضي صعداً في مدارج الرقي والتقدم لبناء مستقبل حضاري أفضل.

ولا تزال الأمم تربي أبناءها وتؤدبهم بتراث آبائهم واجدادهم. . وتلقنهم عاداتها وتقاليدها لتنمي فيهم روح الالتزام بقيمها وتراثها . . لأن ذلك بعض الوفاء لتاريخ صنعه الآباء بكدهم وجهادهم.

ولعل أمتنا العربية هي أغنى الأمم عطاء . . وأكثر رجالاً وعظماء . . . . !

وما زالت منذ أن أكرمها الله بخاتم رسله ورسالاته تقدم للإنسانية أسمى النماذج البشرية الفذة في كل مضمار وميدان . . . يعترف بذلك كل مطّلع على تاريخ الأمة العربية ويقرّ به كل منصف ونزيه. . .

ولقد قدمت هذه الأمة من النماذج البشرية الفريدة عظماء بهرت سيرتهم الشرق والغرب . . . حتى كانت أحد مواد دراساتها الجامعية في كل شأن وتخصّص إلى يومنا هذا. . . .

ولعل ذلك يثلج صدر كل عربي أصيل، ويبعث على الاعتزاز والفخر. . إلا أن الفخر وحده لم يعد أسلوباً في مواجهة تحديات العصر التي ترصد لصرف الأمة العربية عن تاريخها . . وتدعوها إلى التنكر لتراثها وقيمها الروحية والفكرية والحضارية الأصلية.

من أجل ذلك نقف إلى جانب الدعاة المخلصين إلى العودة الصادقة إلى تراثنا وقيمنا . . . للتزود منها في مسيرة البناء الحضاري مواكبة لسائر الأمم التي تأبى أن تزول قبل أن تترك بصماتها المشرّفة على هذه الأرض . . .

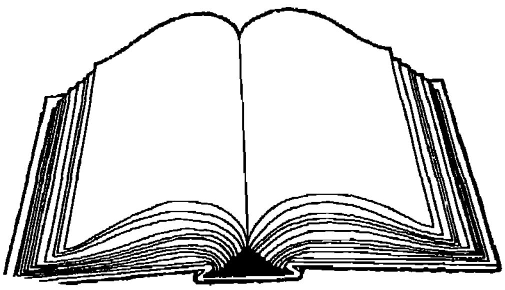
ومن ثم فإننا ندعو الأجيال الصاعدة إلى إعادة دراسة التاريخ العربي بنظرة أكثر عمقاً وشمولية ووضوحاً . . . ولسوف يرون حقاً أن التنكر لتراث الأمة وقيمها لم يأت عليها بغير

الخسران والتخلف على كافة المستويات الحضارية . .

وهذه سلسلة روايات تاريخ الإسلام لمؤلفها جورجي زيدان كتبها في أواخر القرن المنصرم، وحاول فيها أن يقدم التاريخ العربي في قالب روائي جديد، بعيداً عن تعقيدات الموسوعات التاريخية التي لا يتاح لكثير من الشباب أن يفيد منها لأسباب كثيرة يعرفها كل دارس ومعالج لمشاكل الكتاب العربي . . . على أن المؤلف استقى معلوماته من تلك الأمهات والمصادر التاريخية التي أثبتناها في نهاية كل رواية حرصاً على منهجية البحث وأمانته، لمن أراد المزيد من التفاصيل التي تجنبها المؤلف حرصاً على الأسلوب الروائي ومقتضياته.

ولا يفوت دار مكتبة الحياة وهي تصدر هذه السلسلة أن تطمئن القارىء الكريم إلى أنها قد راعت في هذه الطبعة الجديدة مراجعة النصوص إضافة إلى اختيار أحدث أساليب الطباعة لإخراجها في ثوب جديد يجمع بين الإتقان والدقة والجمال . . . راجين أن نكون أبداً عند حسن ظن القارىء الكريم . . والله الموفق إلى سواء السبيل.

دار مكتبة الحياة



شخصيات الرواية

* الخديو محمد توفيق	: خديو مصر
* أحمد عرابي باشا	: قائد الثورة العرابية
* محمد أحمد المهدي	: الخليفة المتمهدي
* هيكس باشا	: قائد الحملة المصرية
* غوردون باشا	: حكمدار السودان
* الامير عبد الحليم	: قائد جند المتمهدي
* ابراهيم	: موظف بالقنصلية الانجليزية
* سعدى	: زوجة ابراهيم
* الكابتن شفيق	: (أسير المتمهدي)
* فدوى	: بنت أحد الباشوات الموراليين
* عزيز	: من أبناء الذوات
* بخيت	: خادم فدوى
* أحمد	: خادم شفيق

مقدمة تاريخية

في سنة ١٨٧٨ ، كانت القاهرة حيث جرت وقائع هذه الرواية قد اتسع عمرانها ، وازداد سكانها وروادها ، وكان الخلفاء الفاطميون هم الذين أنشأوها في منتصف القرن الرابع للهجرة ، في المكان الذي أناخوا فيه جمالهم يوم جاءوا لافتتاح الفسطاط عاصمة مصر اذ ذاك ـ وفي ذلك المكان الآن حي الجمالية والجامع الأزهر وما جاورهما من الجوامع القديمة ـ وما زالت القاهرة تتسع عمارتها ولا سيما منذ حكمت الأسرة المحمدية العلوية، وعلى الأخص في عهد الخديو اسماعيل ، الذي أراد ان يجعلها قطعة من أوربا ، فأكثر فيها من فتح الشوارع الحديثة وانشاء الاحياء الجديدة المنظمة، فأنشئت تبعا لذلك ألوف المنازل والقصور والحدائق خارج المدينة الأصلية ، وزودت هذه الشوارع الجديدة المتسعة بالأشجار تحف بها من الجانبين، وأنيرت المدينة كلها بالغاز ، فأصبح ليلها كنهارها وازدادت بهجة ورونقا ، وكثرت بها الأماكن العامة ولا سيما حول حديقة الازبكية.

وقد أمر الخديو اسماعيل بأن ينشأ حول الحديقة سور حديدي أنيق تحدق به هالة من الأنوار الغازية ، كما أمر بأن تعزف الموسيقي العسكرية كل مساء بالقرب من البحيرة المستديرة بالحديقة.

وكنت اذا دخلت الحديقة في المساء، وأتيت المنصة المستد يرة المزينة بالأنوار الغازية حيث تعزف الموسيقى ، رأيت الناس محدقين بها أفواجا على اختلاف أجناسهم ونزعاتهم ومراتبهم ولغاتهم وألوانهم، من القوقازي الأبيض الناصع، الى الزنجي الأسود الحالك . وعلى اختلاف أزيائهم بين العمامة العربية والطربوش العثماني والقاووق الفارسي والقبعة الافرنجية والبنطلون والقفطان والسراويل، وبين الخمار المغربي والحبرة المصرية والازار وغير ذلك من الانواع والاشكال مما لا يتفق وجوده في غير مصر.

أما المدينة الأصلية ، فكانت على عكس ذلك ، ما زال معظم أسواقها على النمط القديم من الضيق وعدم الانتظام ، ولم تستجب حاراتها لوسائل التنظيف والتنظيم التي أرادها الخديو ، فبقيت ضيقة الطرق معوجة الدروب . وكأن الأقدمين أرادوا بتضيق الطرق

استجلاب البرودة بحجب اشعة الشمس عنها . فرأى الخديو اسماعيل ان يعوض عن ذلك في الشوارع الحديثة بغرس الاشجار التي تظلل الطرق وترطب الهواء بما يتصاعد عنها وعن الطرق المرشوشة من البخار.

شفيق وفدوى

كان في شارع العباسية بالقاهرة في سنة ١٨٧٨ منزل مبني على الطراز الحديث كسائر المنازل الحديثة هناك، ولكنه من أقلها فخامة واتساعا، وبه حديقة صغيرة بسيطة ، تشرف على الشارع الحديث المظلل بأشجار اللبخ المغروسة على جانبيه.

وكان هذا المنزل يشتمل على غرف عدة مفروشة بالأثاث البسيط غير الثمين ولكنه غاية في النظافة والترتيب . وبينها غرفة بها خزانتان تشتملان على كتب بلغات مختلفة ، وفي أحد أركانها منضدة عليها بعض الكتب وبجانبها رجل في العقد الخامس من عمره يرتدي الزي الافرنجي وليس على رأسه شيء ، وقد جلس على كرسي هناك وفي يده كتاب يطالع فيه وليس في الغرفة غيره والباب مغلق عليه.

كان الرجل قمحي اللون أسود الشعر واسع الجبهة حليق اللحية ، في شعره شيب، وفي وجهه تجعد وفي عينيه ذكاء وفي مظهره عبوس ، كأنه ناقم على الدهر الذي قضى عليه بالاكتفاء من الدنيا بولد ذكر أنفق كل حياته في تربيته وتثقيفه، فضلا عن أنه ما انفك منذ سنين كاسف البال مرتبك الأفكار منقبض النفس كأنه أصيب بنكبة من نكبات الزمان. ولم يكن أحد يعلم سبب ذلك الارتباك حتى ولا امرأته مع انها حاولت استطلاع ذلك مرارا اذ كان ينكر عليها تارة ويعدها أخرى . وقد مر عليها منذ تزوجها نحو العشرين سنة وهي حائرة في أمره، لا يهدأ لها بال لجهلها سبب ذلك الانقباض .

ومما زاد في حيرتها ودهشتها ان زوجها كان يحتفظ بصندوق صغير لم يفتحه منذ تزوجته . وقد طالما سألته ان يطلعها على ما فيه ، فكان يرفض ذلك ويقول لها : « سيأتي يوم تعرفين فيه سر جميع هذه الغرائب وتعذريني على كتمانها عنك». ولم يكن هذا الكلام الا ليزيد في تشوقها وتلهفها لمعرفة ما في ذلك الصندوق ، فمضت تلح عليه في ذلك الى ان وعدها بأن يطلعها على ما في الصندوق بشرط ان تكتفي بذلك وتبقيه مكتوما عن كل انسان سواهما، وألا تعود فتسأله شيئا من التفصيل، لأنه لن يفوه بكلمة واحدة بعد ذلك. فقبلت هذا الشرط، وحدد منتصف الليلة التالية موعداً لفتح الصندوق بعد ان ينام اهل البيت جميعاً.

وكان الرجل في تلك الساعة جالسا يفكر في مسألة الصندوق ، وقلبه يرتجف كلما تصور انه فتحه ، فأخذ يتلهى بمطالعة بعض الكتب والجرائد . فلما كان الغروب انتبه بغتة كمن هب من رقاد ، ونظر الى الساعة ثم دق جرسا امامه ، فحضر خادم اسمر عليه جلباب وعمامة،

فقال له الرجل «: ألم يحضر شفيق بعد ؟ ».

فقال الخادم : «لا يا سيدي ، لم أره هذا المساء». فاضطرب الرجل وسكت هنيهة ثم قال للخادم : «اذهب يا أحمد فادع سيدتك سعدى الى هنا». فحنى أحمد رأسه مجيبا ، وخرج.

وبعد قليل جاءت سعدى ، وهي أصغر سنا من زوجها ، ووجهها أكثر طلاقة ، ولباسها على الطراز التركي وفي يدها مجلة المقتطف كانت تتلهى بمطالعتها في غرفتها الى أن يحين موعد فتح الصندوق.

فاستقبلها قائلا : «ألم يأت شفيق بعد يا سعدى ؟». فقالت : « لم أره هذا المساء، وكنت أحسب انه جاء ودخل حجرتك يطالع الجرائد أو يقرأ شيئا آخر . ويلاه ! ترى أين ذهب الليلة فلم يحدث ان تأخر الى مثل هذا الوقت ؟».

وأخذت تدق يدا بيد، ثم سألت زوجها : «كم الساعة ؟». فلما علمت انها السابعة بعد الظهر قالت : « انه يحضر عادة بعد اغلاق المدرسة التجهيزية بساعة ، أي في الساعة الخامسة فماذا أخره ؟».

فلما عاين زوجها اضطرابها ندم على ما أظهره من القلق أمامها وقال: «لا بأس عليه من التأخير ، فالمدينة في أمان، والشوارع لا تخلو من المارة الى ما بعد نصف الليل، فلعل شفيقا ذهب مع زملائه التلامذة الى حديقة الازبكية ليسمعوا انغام الموسيقى العسكرية ، أو لعلهم دعوا الى منزل أحدهم، فلا داعي للقلق».

فقالت سعدى : «لا تعتمد على الظنون يا ابراهيم ، وما دام وحيدنا قد تأخر على غير عادته ، فيجب ان نبحث الأمر».

فأجابها بصوت منخفض قائلا : « لا خوف عليه باذن الله، وأؤكد لك انك سترينه أمامك هنا عما قليل ، وها انذا قد أحضرت له بعض الجرائد الافرنجية والمقالات العلمية ليطالعها».

فقالت سعدى : «وأنا أيضا سأطلعه على مقالة في هذه المجلة تدور حول مآثر العرب في الاندلس ، ولكني ما زلت قلقة لتأخره».

فقال : «لا تجزعي انه في حراسة الله».

فسكتت سعدى مراعاة لشعور زوجها واحتراما لرأيه ، وعادت الى حجرتها حيث استندت

الى نافذة مشرفة على الشارع، ولبثت تنتظر مجيء ولدها وهي على مثل الجمر، وقد نسيت اشتياقها الى استطلاع ما في الصندوق.

أما ابراهيم زوجها فلم يعد يستطيع صبرا ، فأخذ يقلب كتابا امامه ليشغل نفسه به ريثما يأتي ابنه. وقد اظلمت الدنيا في عينيه، لأن شفيقا لم يتأخر من قبل الى مثل تلك الساعة. ثم سمع الساعة تدق ثماني دقات فازدادت دقات قلبه ودعا الخادم وسأله: «أتعرف بيت عزيز افندي صديق شفيق ؟».

قال: «نعم يا سيدي . . انه ذلك البناء الكبير في شارع عابدين».

فقال: «اذن اذهب اليه الآن واسأل عن شفيق ، فان وجدته هناك فأت به معك لأننا في انتظاره لتناول العشاء».

فحنى رأسه سمعا وطاعة ومضى . ولم يكد يخرج حتى عادت سعدى الى غرفة زوجها تسأله عن شفيق فأخبرها بما فعل ، ثم عادت الى غرفتها . ولبث الاثنان ينتظران حتى عاد الخادم وحده، فبادر ابراهيم بالسؤال عن شفيق فقال: «قد ذهبت الى بيت عزيز افندي ، فقيل لي انه لم يجيء الى البيت بعد، الا أنهم غير قلقين لذلك فليست هي أول ليلة باتها خارج المنزل».

فقال ابراهيم: «هل تحققت ذلك ؟». قال: «نعم يا سيدي ، وأنا أعلم ان سيدي شفيقا لا يألف الجلوس في المقاهي، ولذلك لم أبحث عنه هناك».

فازداد ابراهيم قلقا واضطرابا لكنه كظم ما به خوفا على امرأته لأنها كانت شديدة التعلق بوحيدها، ولم يكن هو أقل تعلقا به منها ، الا ان الرجل أكثر صبرا على مثل ذلك من النساء.

وفيما هو واقف يخاطب الخادم جاءت امرأته مسرعة ، فلما لم تر شفيقا صاحت قائلة «أين شفيق يا أحمد ؟». فقال الخادم: «لم أجده في بيت عزيز افندي يا سيدتي، وقد سألت الخدم هناك فلم أجد لديهم علما بشيء عن تأخرهما».

فبادرها زوجها قائلا: «لا يلبث شفيق ان يأتي كما قلت لك، فلا يضطرب قلبك يا سعدى ، ولنصبر قليلا فان لم يجيء فسأذهب أنا للبحث عنه».

فضربت سعدى كفا بكف ووقفت صامتة وقد ملأت الدموع عينيها ، اذ لم تستطع التجلد، ونظرت الى زوجها فاذا هو غارق في بحار الهواجس على انه حين التفت فرآها تنتظر اليه ، تكلف الابتسام اخفاء لعواطفه وقال: «سامح الله شفيقا ، انه الآن يلهو ويمرح مع صحبه وزملائه ، ولا يبالي ما يسببه تأخره من عناء لوالديه. صدق من قال: قلبي على ولدي وقلب ولدي على الحجر . على اني سأعنفه متى جاء لكيلا يعود ثانية الى مثل هذا».

لم تستطع سعدى الجلوس لشدة قلقها على وحيدها ، فذهبت الى النافذة ووقفت تنظر الى الشارع المضيء بالغاز وعلى جانبيه الاشجار ، وما دقت الساعة التاسعة حتى هب زوجها ولبس طربوشه ثم قال لها : «ها انذا ذاهب للبحث عن شفيق ، ولن أغيب عنك أكثر من ساعة حتى أرجع به بأذن الله» . ثم أخذ عصاه بيده وغادر امرأته على مثل جمر الغضا . فبقيت مطلة من النافذة لا تحول نظرها عن الشارع حتى دقت الساعة العاشرة . ولما لم يرجع أحد زاد خفقان قلبها وأخذت ركبتاها ترتجفان وهي الى تلك الساعة لم تذق طعاما . ثم مضت تفكر في ولدها وزوجها ناسية أو متناسية أمر الصندوق ، حتى دقت الساعة الحادية عشرة فأظلمت الدنيا في عينيها، وجلست معتمدة رأسها بيديها على المنضدة وأخذت تندب سوء حظها .

وفيما هي في ذلك سمعت طارقا يطرق باب الحجرة طرقا خفيفا ، فمضت الى الباب بعد ان مسحت دموعها، وكان الخادم هو الطارق وقد جاء يقول لها : «اذا أذنت لي فاني أسير وآتيك بسيدي شفيق » . فأجفلت وقالت : « وهل تعلم مكانه ؟» .

قالت : «نعم ، لأني تذكرت حديثا جرى بينه وبين عزيز أفندي . . » . وسكت فقالت بلهفة : « وأين مكانه ؟» . فحرق أسنانه وقال : « أظن انه ذهب مع عزيز افندي للتفرج على الاحتفال بفتح الخليج ، واني سمعت عزيزا منذ بضعة ايام يحبب اليه الذهاب الى هناك لمشاهدة الانوار واستماع الانغام ، وكان سيدي يتمنع أول الامر مؤكدا ان المطالعة أحب لديه من مثل هذا الاحتفال ، ولكنك تعرفين سلامة نيته واخلاصه لاصدقائه فما لبث ان اقتنع بقول عزيز افندي» .

فقالت سعدى وقد لاحت على وجهها أمارات البشر : «وما الذي كان يخشاه من ذهابه الى ذلك الاحتفال ؟ لو انه أخبر بذلك أباه ما كان ليمنعه»

فقال أحمد : «أظن ان سيدي كان يمنعه لأن أمثال هذه الاحتفالات تحدث فيها أحيانا أمور مغايرة للآداب لا يرضاها سيدي الكبير» . فتنهدت وقالت : «كيفما كان الحال فإن المراد ان تأتي بشفيق » . فحنى رأسه موافقا ، ومضى .

وكان أحمد هذا من قبل جنديا في الجيش ، وقد تقلب مع الدهر وعرف دخائل الناس ، وكان لا يرتاح للصداقة التي بين سيده شفيق وزميله عزيز ولكنه لم يكن له ان يتدخل في ذلك .

فلما أذنت له سيدته في الخروج توجه الى فم الخليج ، ومكثت هي في البيت وقد اشتد قلقها فدعت احدى جاراتها للاستئناس بها وأتتها ببعض المنعشات ، وجلست تتلهى بالحديث معها .

■

كان شفيق في التاسعة عشرة من عمره ، طويل القامة معتدلها ، قمحي اللون، ذا عينين سوداوين تحت حاجبين متصلين ، صغير الفم واسع الجبهة أسود الشعر خفيف العارضين. وكان قد ربي في بيت أبيه تربية حسنة، فشب كريم العنصر طيب السريرة لا يعرف أساليب المكر والخداع وان كان ذكيا حاذقا ، فأدخله أبوه المدرسة التجهيزية الاميرية ليتم دروسه على نفقة الحكومة، لأنه لم يكن في سعة كبيرة من العيش ، على ان يعلمه مهنة الطب او المحاماة بعد ذلك.

وكانت ملابسه غاية في البساطة ، تتألف من السترة والبنطلون والطربوش . ورغم صغر سنه كان ذا مهابة، لا يجرؤ أصدقاؤه على ممازحته ولو كانوا أكبر منه سنا ، وكان اساتذة المدرسة وتلامذتها يحبونه ويجلونه لأدبه وذكائه واجتهاده في الدرس.

أما عزيز فكان على نقيض هذه الصفات ، لكنه على جانب عظيم من الثروة التي خلفها له أبوه . وكان قصير القامة كبير الانف شديد سمرة البشرة، محبا للتفرنج فلا يخرج الى الشوارع الا ونظارته على عينيه وخيطها مسترسل على صدره، دون ما يدعو الى ذلك . وكان يميل طربوشه فوق رأسه تيها وعجبا، وحول عنقه ياقة منشاة لا تمكنه من ادارة رأسه ذات اليمين أو ذات اليسار الا بصعوبة . واذا وقف يقف منتصبا وان شئت فقل متطاولا ، وفي يده اليمنى عصا غليظة معقوفة الرأس، وفي اليسرى سلسلة ساعته الذهبية الغليظة يلاعب بها الهواء ، وفي فمه السيكارة الافرنجية الضخمة . ومن شر أخلاقه الادعاء والحسد والرياء وحب الرفعة عن غير استحقاق.

وكان شفيق غير راض عن أخلاقه هذه ، ولكنه اضطر الى صحبته بحكم تجاورهما في المدرسة فقط . وكثيرا ما تظاهر عزيز أمامه بما يرضيه استبقاء لصداقته لانه كان يحتاج اليه في أشياء كثيرة أهمها مراجعة الدروس معه.

وكان من عادة الخديو اسماعيل ان يختار انجب تلامذة المدرسة لارسالهم الى اوربا لدراسة الطب والحقوق وغيرهما، وقد توقع جميع التلامذة تلك السنة وقوع الاختيار على شفيق . فكان عزيز كلما تصور ذلك كاد يتميزغيظا ، لا رغبة منه في العلم بل حبا للفخر ، وكأنما عز عليه ان يكون شفيق أجل مقاما منه في حين انه ليس في غناه ، فكان لا ينفك باحثا عن وسيلة يحط بها قدر شفيق في عيون الاساتذة والتلاميذ، وما زال كذلك حتى أوشك العام الدراسي ان ينتهي وأخذ التلامذة في مراجعة الدروس ، فلاح له ان يعمل على الهاء شفيق عن دروسه، وعلى ايقاعه فيما يشينه . ، ليحول دون اختياره للبعثة. فأخذ قبل الاحتفال بفتح الخليج ببضعة أيام يحسن له حضوره . ثم اصطحبه الى هناك عقب مغادرتهما المدرسة ، وحال دون استئذانه أباه في ذلك مقنعا اياه بأنه أرسل خادمه ليقوم بهذه المهمة. وكان غرضه ان يثير

على شفيق غضب أبيه . وكانت عربة عزيز تنتظرهما عند باب المدرسة وأمامها خادمه المجري بلباسه القصبي ، فركباها وسارا الى الجزيرة للتنزه فيها ساعة قبل الذهاب الى مكان الاحتفال.

وظلت العربة تسير بهما في الجزيرة حتى غربت الشمس وبدأت الجزيرة تخلو من المارة. وفيما كانت العربة سائرة بهما في شارع الجزيرة بين اشجار اللبخ القائمة على جانبيه ، لاحت من شفيق التفاتة الى تل صناعي هناك (جبلاية). فرأى عند مدخل التل عربة مغلقة من عربات الحريم وأمامها فرسان من الخيل الكبيرة الروسية الاصل ، وكان الظلام قد سدل نقابه لكن العربة لم يضيء قنديلها . وساد السكون أرجاء المنطقة فلم يكن يسمع هناك الا حفيف شجر السرو المحدق بالتل ، ولم يشاهد احدا في العربة ولا بالقرب منها ، فقال لعزيز: «ما هذه العربة ، وفيم وقوفها هنا يا ترى ؟» . فتبسم عزيز وهز رأسه ولم يبد جوابا ، وأعاد شفيق السؤال بلهفة فقال عزيز: «إن لهذه العربة حكاية سأقصها عليك بعد أن نبعد عن هذا المكان» . فاشتاق شفيق الى استطلاع الخبر، وعاد الى السؤال بعد قليل ، فقال عزيز: «انها عربة أحد كبار الأجانب وأصله من جزيرة المورة، وقد جاء أبوه الى مصر برفقة ابراهيم باشا عند عودة حملته من هناك، فطابت له الاقامة هنا حيث تزوج ورزق بابنه هذا وعاش في كنف الحكومة حتى رقي الى رتبة باشا واكتسب مالا طائلا ، وله ابنة واحدة بارعة الجمال تركب هذه العربة للنزهة في كثير الأحيان. فأحبها صديق لي من شبان العاصمة وخطبها لنفسه ولما طلبها من أبيها لم يجب طلبه بدعوى انها لم ترض اخلاقه ، فأضمر لها السوء وأخبرني صباح اليوم انه تواطأ مع سائق عربتها على ان يأتي بها متأخرا الى هذا المكان للانتقام منها. ولا أخفي عليك انها أخطأت في حق صديقي الشاب فهو جميل كريم، ولا يقل ايراده الشهري عن ثلاثين جنيها ينفقها كلها على أصدقائه ، ثم هو الى ذلك لطيف المعشر ، يضحك الثكلى بلطف حديثه ومجونه».

فاشتعل شفيق غيظا ، والتفت الى عزيز وقال : « انها لدناءة من صديقك ان يدبر للفتاة مثل هذه المكيدة !». ثم أمر السائق ان يحول اتجاه العربة الى (الجبلاية) فأراد عزيز منعه قائلا: «مالنا ولهم ؟». ولكن شفيقا لم يعبأ بمعارضته . وما اقتربا من الجبلاية حتى سمعا صوتا نسائيا لطيفا مرتجفا يتخلل حفيف الاشجار ، وكانت صاحبته تقول : « خف الله يا رجل ، أليس عندك شرف ؟».

فسارع شفيق الى النزول من العربة ، وانطلق الى مصدر الصوت داخل ذلك التل المظلم، ثم أشعل عودا من الكبريت فرأى في ضوئه شبحين في أحد الدهاليز هناك : أحدهما لفتاة

والآخر لرجل ملثم وما رأت الفتاة النور حتى قالت بأعلى صوتها : « انقذني من هذا الخائن بحرمة الشرف والشهامة ». فلم تمض لحظة حتى كان شفيق بينهما وأهوى بعصاه على الرجل، وسرعان ما فر هذا مسرعا فناداه شفيق بقلب لا يهاب الموت قائلا : « الى أين أيها النذل الذميم ؟». فلم يسمع له صوتا ولا رآه لشدة الظلام في تلك المغارة، ثم سمع وقع حوافر جواد فعلم انه تمكن من الفرار.

وقالت الفتاة لشفيق في تأثر عميق: «لاعدمت الشهامة رجالها، من أرسلك ايها الملاك السماوي. أين انت ؟». وكان شفيق قد رجع ليأتي بمصباح من العربة فلم يسمع مقالها، فلما عاد بالمصباح رأى فتاة ترتعد خوفا، وهي في زي نساء الأتراك، وعلى رأسها اللثام (اليشمك) تحته وجه كأنه البدر بهاء، وعينان سوداوان براقتان ملأتهما دموع الخجل والوجل، ووجنتان كللهما الاصفرار فأمسكت يده بيد كادت تذوب لطفا وقالت : «لقد أنقذتني من الموت والعار جزاك الله عني خيرا».

وخفق قلب شفيق، وغلب عليه الحياء حتى تلعثم لسانه فلم يستطع الكلام، لكنه تجلد وقال لها : « لا بأس عليك أيتها السيدة المصونة، ولا عاش من أراد بك سوءا. هلم الى عربتك لنسير بك آمنة الى منزلك». فسارت معه وهي ما زالت ممسكة يده وقد تشبثت بها. مرتجفة مطرقة لشدة خوفها وخجلها. فلما وصلا الى العربة لم يجدا سائقها، لانه كان قد خاف مغبة خيانته فركن الى الفرار فعاون شفيق الفتاة على الدخول الى العربة ثم نادى سائق عربة عزيز وأمره ان ينير مصابيح عربة الفتاة ويسوقها الى حيث تأمره، ثم أطل عليها من نافذة العربة وسألها عن حالها وهل تحتاج الى شيء، فأشارت بعينيها وملامح وجهها شاكرة، ومضت بها العربة. أما هو فعاد الى عربة عزيز فوجده لا يزال في مكانه بها وكأنه قطعة من خشب، لكنه لما رآه قادما نزل من العربة واحدى يديه على نظارته لئلا تسقط وفي يده الاخرى سيكارته المعهودة، وقال له : « هل بك من بأس يا عزيزي شفيق، لقد شغلت بالي، وكان في عزمي ان أنزل لمساعدتك لكني أعلم انك شهم باسل لا تحتاج الى مثلي فبقيت في انتظارك هنا، فأين ذلك الخائن ؟». فنظر شفيق اليه باحتقار ولم يبد جوابا، ولما سأله عزيز عن سائق عربته، قال : «ذهب بالعربة الثانية وسأتولى أنا قيادة هذه العربة ».

فتكلف عزيز الابتسام وقال : « هل لك معرفة بقيادة العربات ؟». فأجاب مبتسما : «نعم يا عزيزي، والمثل يقول : (البس لكل حالة لبوسها) ..». ثم قاد العربة في اثر عربة الفتاة، وما زالوا سائرين وقد استولى عليهم السكوت حتى جاوزوا جسر قصر النيل، فوقفت العربة الأولى بغتة، فاضطرب شفيق لذلك ونزل يبحث عما دعا الى وقوفها وكان الشارع

مضاء بالانوار الغازية التي مزقت بقوة نورها حجاب الظلام، فلما واقترب من العربة وأطل من نافذتها على الفتاة وجدها جالسة وقد هدأ روعها وأبرقت أسرتها وأشرق وجهها. فلما رأته أمسكت بيده ضاغطة عليها وقالت له والخجل يحول بينها وبين التأمل في وجهه : « شكرا يا سيدي ، اني مدينة لك بحياتي وشرفي هذه الليلة فلولا شهامتك لخسرتهما».

فخجل شفيق وتوردت وجنتاه وتندى جبينه بالعرق ولم يجب، فعادت الفتاة تقول: «هل لك ان تخبرني عن اسمك لأذكر لأبي ما أبديت نحوي من الشهامة والفضل ؟».

فأجاب شفيق بصوت رقيق كان له أكبر الأثر في قلب الفتاة : «اني يا سيدتي لم أفعل الا ما أوجبته علي الانسانية، فلست انتظر مكافأة، وأرجو الا تذكري هذا الامر أمام أحد صيانة لشرفك».

فقالت : «معاذ الله ان أقصد بكلامي مكافأتك، فهذا أمر لو أردته ما استطعت القيام به، ولكن ذكرالجميل فرض على الانسان، وأي فضل أعظم من الانقاذ من العار والموت ؟».

فقال وقد غلب عليه الخجل حتى كاد يمتنع عليه الكلام : «اني لم أفعل ما يستحق هذا الثناء، وحسبي ان كان لي شرف انقاذ ملاك طاهر مثل سيدتي».

قالت : «ان العبارات لا تفي بأداء حق الشكر على عواطفك الشريفة، ولا شك في اني ربحت بفضلك حياتي ، أو بالأحرى شرفي الذي هو أعز من حياتي !».

وفيما هما في الحديث سمعا عزيزا ينادي : «أين انت يا شفيق ؟ لقد أطلت الوقوف وقد حان موعد العشاء فهيا بنا».

فقالت الفتاة : «من هذا الذي يتكلم ؟».

فقال : « هو صديق لي رافقته للنزهة على ان نسير معا الى احتفال فتح الخليج هذه الليلة».

قالت : «لعلي أزعجتكما، على اني أرجو ان تجيبني عن سؤالين قبل ان تعود الى صديقك».

قال : «مري بما شئت وعلى السمع والطاعة».

قالت : «أريد أولا ان تخبرني باسمك ان لم يكن لاعلام أبي فلأحفظه في قلبي ذكرا لشهامتك ومروءتك اللتين يعز وجودهما في شبان هذه الأيام . كما اريد ان تخبرني باسم ذلك الخائن اذا كنت قد عرفته ».

قال : «أما اسمي فيكفيني فخرا ان تذكريه وهو (شفيق) . وأما ذلك الخائن فأرجو ان تسدلي على حكايته سترا، اذ لا يليق بشريف خلقك وسامي أدبك ان تنتقمي من لئيم مثله،

فاحسبيها هفوة من هفوات الشباب .على اني لا أتقاعد عند الاقتضاء عن استطلاع اسمه وافادتك، فأذني لي قبل ان أودعك ان أتطفل بسؤال أرجو ألا يثقل عليك».

قالت : «مر بما شئت فأنا رهينة أمرك».

قال : «هل لي ان أعرف اسم سيدتي ؟».

قالت : «اسمي فدوى».

قال : «عاشت الأسماء وفدتك روحي». ثم ضغط يدها مودعا فأجابته بالمثل ، وعاد الى عزيز في عربته وقلبه يخفق وركبتاه ترتجفان ولسان حاله يقول :

ودعـتـه وبـودى لـو يـودعـني صـفـو الحـيـاة واني لا أودعـه

وكان عزيز رفيقه قد مل طول الانتظار وكاد يتميز غيظا ، واضطرم فؤاده حسدا، لكنه أخفى عواطفه وتكلف الابتسام وكان يعرف فدوى منذ أشهر وقد مال اليها لكنه لم يجرؤ على طلب يدها خوفا من الفشل لعلمه انها لا تنظر الى الغنى ولا حسن الزي وتحتقر كل غر متكبر ولو ملك مال قارون. وكان لسفالة طباعه يعد كرم طباع تلك العذراء وأنفتها كبرا وتيها فسره اذلالها بيد أحد السفلة لعله يستطيع بعد ذلك نيلها ، فلما حبطت مساعيه ورأى ما صنعه شفيق لانقاذها أيقن انها أحبته ، فخاف ان يسرع في السعي الى نيلها فتكون البلية عليه أعظم، فلاح له ان يوطد امل شفيق وجعل الأمر في يده هو لعله يقوى على تفريقهما فينال مرغوبه.

وقال له والعربة تسير بهما : «انك يا شفيق قد صنعت مع هذه الفتاة صنيعاً ستبقى مدينة لك به مدى الدهر».

وكان شفيق غارقا في بحار تأمله فلم يفقه خطاب عزيز، وأدرك هذا فيم يفكر فازداد حسدا له، ثم التفت اليه متلطفا وقال وهو يظهر المحبة: « ان مثل هذه الفتاة الطاهرة لا تليق الا بك». فخفق قلب شفيق ولم يستطع بعد ذلك سكوتا، لكنه هدأ روعه قدر طاقته وخفض من انفعاله وقال : « أين أنا من هذه الأمنية ؟ ان بيني وبينها أبعادا ، فأبوها لا يتنازل الى مصاهرة مثلي ، هذا الى أني لست في حال تؤهلني للزواج قريبا».

فقال عزيز : «أما أبوها فعلي ارضاؤه، لأننا في عصر قل فيه الشبان وكثرت البنات ، وأني واثق بأنك لو طلبت الزواج بأية فتاة من بنات الاغنياء لقوبل طلبك بالترحيب، وحصلت معها على مال كثير ، فالعروس الآن تفعل ذلك غالبا ، وهي عادة افرنجية حديثة النشأة في بلادنا . . ».

فقاطعه شفيق قائلا : «أرجو أن تكتم كل ما عرفته عن الفتاة، صيانة لها وحفظا لشرفها

وشرفي».

وفيما هما في الحديث ، وقفت عربة الفتاة أمام باب حديقة تعطر تلك الانحاء بشذى رياحينها، وعلى جدار الحديقة الى جهة الشارع عرائش الورد والنسرين والاقحوان. وكان منظر الحديقة من الخارج غاية في الجمال ، وفي وسطها قصر بديع الهندسة مرتفع البنيان يدل على وجاهة أصحابه وثرائهم .

وبعد قليل عاد سائق عربة عزيز بعد دخول الفتاة الى قصرها ، فساق العربة بهما الى حديقة الازبكية حيث ترجلا وذهبا الى مطعم هناك تناولا فيه العشاء ، ثم دخلا الحديقة وأخذا يتمشيان حول بركتها.

ومرا في الحديقة بمقهى معد للرقص والغناء ، فوقف عزيز ثم أمسك بيد شفيق ودخل به المقهى حيث جلسا الى مائدة هناك. ثم طلب قدحين من الكنياك دون أن يفطن شفيق الى ذلك لما تملك فؤاده من شواغل الغرام . ثم أفاق على صوت عزيز وهو يناوله قدحا ، فانتبه بغتة كأنه هب من رقاد عميق والتفت الى ما حوله فاذا بالناس جماعات ووحدانا يشربون ويطربون ويقهقهون، ويترنح بعضهم طربا لصوت الغناء ، وآخر ينادي بأعلى صوته «آه . . كمان يا ست». وآخرون يشرب بعضهم نخب بعض.

فنظر شفيق الى صديقه مندهشا وقال له: «أين نحن يا عزيز ؟».

قال : «نحن في محل طرب وانبساط ، خذ هذه الكأس واشربها». فأجفل شفيق ونهض معتذرا بأنه لا يرتاح لمثل هذا الاجتماع ، فتبسم عزيز ونظر اليه في سخرية وقال : «لعلك لا تزال صبيا كأولاد المكاتب ، تخاف كأس المدام، خذ اشربها يا صاح فان فيها شفاء للناس».

فقال شفيق : « أعذرني لأني لم أعتد شربها، وأخشى ضررها».

فضحك عزيز حتى كاد يستلقي، ثم نادى احدى المغنيات هناك قائلا : « اسمعي يا ست فايقه، صاحبنا خائف من الكأس !». فاغتاظ شفيق ونهض عائدا من حيث أتى، فتبعه عزيز محاولا اقناعه بمجاراته ، فلما رأى منه الاصرار على عدم الرجوع ، تحول عن عزمه ورافقه حتى خرجا.

في دار الاوبرا

انطلق شفيق وعزيز من باب الحديقة القبلي حتى بلغا دار الاوبرا فوقف عزيز ونظر الى ساعته وقال : « ان الساعة لم تتجاوز التاسعة واحتفال فتح الخليج لا يكون على أتمه الا في الحادية عشرة ، فلنقض هاتين الساعتين في هذا الملهى فانه من أجمل الملاهي ، وستمثل فيه الليلة رواية باللغة الفرنسية». ولم يكن شفيق قد شاهد التمثيل حتى ذلك الوقت لافي هذا الملهى ولا في غيره فقال لصاحبه : « اني أحسن فهم اللغة الفرنسية ولكني لا أرتاح الا للتكلم بالعربية

فضحك عزيز وقال وهو يعدل وضع نظارته : « يا للعجب منك يا صاح! كيف تكون شابا ذكيا عاقلا تعيش في عصر التمدن ، ثم لا ترتاح للتكلم باللغة الفرنسية ؟ . ان جميع المواطنين المتمدنين لا يتكلمون الا بها الآن، وقد أهملوا اللغة العربية لتعقدها وصعوبة التلفظ بها فلا يتكلم بها الآن الا البسطاء الذين لم يتثقفوا».

فبغت شفيق ونظر اليه نظرة ملؤها الرزانة والكمال ، ثم ابتسم وقال : «اني لأعجب من أمرك يا صديقي ، فكأني بك تحسب الاستمساك بالاخلاق الشرقية حطة لمقامك، ولهذا تنكرت للغة بلادك وقومك وآثرت الرطانة عليها زاعما انها لغة عامة الناس وأسافل السوقة ، ان مخاطبتك رجلا عربيا بلغة أعجمية ليست الا بدعة تؤدي الى سوء المصير ، وليس فيمن تقلدهم من الفرنجة ـ مهما يتقنوا العربية ـ من يؤثرونها في التخاطب على لغتهم . . لا . لا . . انك بصنيعك هذا تحط من قدر عشيرتك الأقربين فهم لا يعرفون الا لغة بلادهم !».

فتكلف عزيز الضحك لاخفاء خجله وقال : « ان قولك لأشبه بما نسمعه من الرجعيين في بلادنا ممن لم يخالطوا الفرنجة ولم يدركوا حظا من التمدن، ولكن ما لنا ولهذا الآن ، هل تريد ان تدخل الملهى ام لا؟» . فقال شفيق : «لا بأس بمشاهدة التمثيل نفسه نزولا على رغبتك» .

قال : «إذا كنت لا ترتاح للتمثيل نفسه فستجد في مشاهدة معدات هذا الملهى ما يسرك ولا شك» .

ثم ابتاعا بطاقتين للدخول ودخلا الدار وشفيق يعجب من الازدحام هناك ومن فخامة الدار وحسن تأثيثها ، حتى السلالم كانت مكسوة بالمخمل الحريري ، والجدران زينت بالمرايا

المذهبة الجوانب الكبيرة الحجم . فلما دخل قاعة التمثيل شاهد في سقفها ثريا (نجفة) بها مئات من الشموع فضلا عن الأنوار الغازية ، وقد فرشت الشرفات (الألواج) كلها وفي مقدمتها الشرفة الخاصة بالخديو اسماعيل بأحسن الاثاث ، ووزينت جدرانها بالمرايا الجميلة المذهبة . فانبهر شفيق لتلك المشاهد ، على انها لم تكن لتشغله عن التفكير في أمر فدوى ، وكلما شاهد فتاة في لباس تركي اختلج قلبه واحمر وجهه، وكان يحاول جاهدا اخفاء ذلك فلا يستطيع

وكان عزيز يفكر هو الآخر في أمر فدوى ، ويراقب شفيقا وحركاته ليستطلع عواطفه ، ويدبر الوسائل للايقاع به، فلما رآه مفكرا بادره قائلا : « فيم تفكر يا عزيزي ؟ » . فقال شفيق محاولا اخفاء عواطفه : « اني أفكر في هذا الملهى البديع وما اقتضى بناؤه وفرشه من الزمن والمال» .

فأدرك ما يحاول اخفاؤه وقال : «ألا تعجب اذا أخبرتك بأن أفندينا اسماعيل بناه وفرشه في خمسة أشهر ؟» .

قال : « انه لامر غريب حقا ! . ولكن ما الذي حمله على هذه السرعة ؟» .

قال : « حمله على ذلك قدوم ملوك أوربا لحضور الاحتفال الذي أعده لفتح قناة السويس، فبنى هذا الملهى اتماما لدواعي الاحتفاء بهم وقد اقتضى هذا نفقات طائلة » .

ثم رفع الستار عن الفصل الاول من الرواية فسكتا لمشاهدة التمثيل ، وأخذ عزيز يسترق النظر الى شرفات السيدات بالمنظار لعله يلمح معصم احداهن أو يلمح وجهها من وراء الحجاب .

أما شفيق فكان يود انشغال رفيقه بأي شيء كان ليعود هو الى التفكير فيما وقع فيه من الحب، ولم يكن قد عرف الحب من قبل، ثم حانت منه التفاتة الى صديقه فوجده مصوبا منظاره الى احدى الشرفات وهو يضحك والخلاعة بادية في حركاته فخشي ان يهزأ الحاضرون بهما لذلك ، وكاد يتميز غيظا ، وعلت وجهه حمرة الخجل، فالتفت اليه وهمس قائلا : « علام تضحك يا عزيزي ؟» .

قال وأمارات النزق والخفة تبدو على وجهه : « لقد شاهدت من وراء الحجاب معصما كأنه صيغ من بلور ، وكأني به لو لم يمسك بالأساور لسال من الاكمام سيل الجداول ، وأعتقد ان صاحبته أشارت الي به» .

قال ذلك وهو يكاد يطير فرحا .

فنظر اليه شفيق شزرا وقال : « ما الذي أوجب وضع الحجاب على نوافذ تلك الشرفات ؟» .

قال : «انه لمنع الناس من النظر الى الجالسات فيها، مراعاة لحرمة الدين والتقاليد» .

فقال شفيق : « اذن لا يليق بنا ان نسترق النظر اليهن من وراء الحجاب».

فتكلف عزيز ضحكة ليستر بها خجله وسكت، وبعد يسير عاد الى منظاره فصوبه الى الشرفة نفسها ثم قال لشفيق : « سأتركك قليلا لأذهب في مهمة طارئة وأعود بعد دقائق».

فعجب شفيق لتلك الوقاحة ، ولكنه لم يسعه الا السكوت ، ولبث ينتظر عودته متلهيا بمتابعة التمثيل، فلما طال به الانتظار ، أوجس خيفة على رفيقه ، ولم يستطع البقاء فخرج يبحث عنه خارج القاعة فلم يقف له على أثر، وعاد الى القاعة مغيظا مضطربا فانتظر قلقا حتى دقت الساعة الحادية عشرة ، فنفذ صبره ولم ير بدا من الخروج معتقدا ان عزيزا لا بد ان يكون قد خرج من الملهى لأمر ما.

■

هم شفيق بمغادرة القاعة بعد ان أسدل الستار على الفصل الأول . وفي عزمه ان يبحث عن عزيز مرة أخرى في حجرات التدخين والمشروبات والممرات، وفيما هو كذلك اذا بعبد طويل القامة دقيق العضل ممتلىء الجسم لا نبات في عارضيه عليه لباس افرنجي أسود وعلى رأسه طربوش أحمر، يقف أمامه ملقيا التحية في أدب ، ثم قال له : « هل يسمح سيدي ان يتكرم علي بذكر اسمه الكريم ؟».

فعجب من هذا السؤال ، لكنه لم يسعه الا ان يجيب عنه، فقال وهو يهم بالانصراف: « اسمي شفيق».

فقال العبد : « ان بعض أصدقائك يودون مقابلتك الساعة يا سيدي، وهم ينتظرون بجانب باب حديقة الأزبكية القبلي».

فعجب شفيق وقال له : « من هؤلاء الاصدقاء ؟». قال : « عفوا يا سيدي . لقد عنيت صديقا واحداً». ثم اقترب منه متأدبا وهمس في أذنه قائلا : « السيدة فدوى ».

فخفق قلب شفيق خفوقاً سريعا، واصطكت ركبتاه وأخذته القشعريرة، لكنه تجلد جهد طاقته ونظر الى العبد نظرة ملؤها الوداعة والشكر وقال :«اني ليسعدني حقا ان أبادر باجابة هذا الطلب ، غير أني أبحث عن زميل لي كان معي هنا وانصرف منذ حين . ومتى وجدته أو وقفت على سبب غيابه فسأكون طوع أمر السيدة المصونة». قال هذا ومضى حتى خرج من الملهى فاذا بعربة عزيز لا تزال حيث تركاها، فعلم انه لم يخرج ووقف يفكر في أمر فدوى ودعوتها اياه في ذلك الوقت، فيشتد خفقان قلبه ،ثم يعود فيذكر أمر رفيقه فتحدثه نفسه بأن عليه ان يجيب داعي المروءة فيبحث عنه قبل ان يجيب داعي القلب ويذهب لمقابلة فدوى.

وما زال مترددا، والعبد ينتظره خارج الدار، حتى انتصفت الساعة الثانية عشرة وهو في

حيرته بين ان يابي طلب سالبة لبه ، وبين البقاء لانتظار صديقه . وأخيرا تغلب دافع الحب فرأى ان يسير الى فدوى ثم يعود بعد ذلك للبحث عن عزيز ونادى العبد وصحبه الى الحديقة

فلما اقتربا من بابها القبلي رأى هناك مركبة واقفة ، فأدرك انها مركبة فدوى ، وامتقع لونه فتعثر في سيره حتى كاد لا يقوى على المسير، وما أقبل على المركبة حتى شاهد فدوى مطلة من النافذة وهي في أبدع ما يكون من الجمال ، وقد زايلها الوجل والاضطراب ، فوقف خاشعا يتأمل وجهها الطافح بهاء وحياة، وعينيها الدعجاوين الممتلئتين ذكاء ودعة، يحرسهما حاجبان مزججان يكتنفهما لثام أبيض شفاف، ويتراءى من ورائه مبسم كله معان، ويتجلى في وجهها وقار يزينه الحياء .

فلما وقعت العين على العين ترامت السهام من الجانبين ، وبادرته فدوى بالتحية مبتسمة، ثم مدت يدها اليه تصافحه وقد غلب عليها الحياء وأحست بقشعريرة انتظمت كل أطرافها ، وتصبب جبينها عرقا ، ولم تقو على تسكين اضطرابها، فما أدرك شفيق منها هذا وقد تصافحت الأيدي حتى ارتعدت فرائصه ولم يستطع الوقوف فأسند يده الى نافذة العربة ، وحاول تسكين روعه فلم يستطع . ثم رفع بصره اليها وهم بمخاطبتها فامتنع عليه الكلام ولم يقو على ادامة النظر فأطرق حياء ووجدا، وأخيرا تجلد وقال : «أطلب اليك المعذرة يا سيدتي لتأخري بضع دقائق عن الموعد الذي ضربته ، وما تأخرت الا لأني كنت أبحث عن رفيق لي ولم أظفر به حتى الآن» .

قالت : «لعله صديقك الذي كان معك في العربة ؟». قال : «نعم ». فتكلفت الابتسام، وأرادت التكلم فمنعها الحياء . والتبس الامر على شفيق فسألها : « أهناك أمر تعرفينه عن صديقي عزيز ، فتشاغلت بتثنية طرف اليشمك بين أناملها وبقيت مطرقة . فقلق شفيق، وأدرك ان هناك شيئا لا تريد التصريح له به، وهم بسؤالها ولكنه استحيى فأجل هذا الى ما بعد الحديث الذي استقدمته لأجله ، وأصاخ بسمعه ينتظر ما تقول .

فقالت : «ربما تعجب من اني دعوتك الليلة لأخاطبك على انفراد وانت شاب لم يسبق لي معرفة بك من قبل فضلا عما تعلمه من عادتنا في التحجب عن كل رجل الا أقرب ذوي قربانا. وربما تنسب ذلك مني الى الخفة والطيش».

فابتدرها شفيق قائلا : «معاذ الله فأنت أرفع من أن تهبطي الى مثل هذا وقد خصك الله بكمال الذات والصفات».

فنظرت اليه بعين الحب نظرة خرقت احشاءه ، ولم تقو على مكاشفته بما في فؤادها فقالت بصوت منخفض : «لا يعرف ما في القلوب الا الله ، وما جرأني على ان أدعوك الى هذا

الموقف الا الشهامة التي أبديتها لانقاذي من العار، اذ جعلتني أحس فضلك وكرم أخلاقك وأشعر بأني مقصرة عن شكرك، ولا أقول مكافأتك لأنها أمنية لا يمكنني الوصول اليها ولو ضحيت نفسي بين يديك. فالآن أرغب اليك في ان تتقدم الي بما تشاء لعلي أقوم بشيء من الواجب».

قال: «كفاك يا سيدتي اطراء، فلا تدعيني أحس قصوري عن بلوغ ما تصفينني به، وقد ذكرت لك اني لم أقصد بانقاذك استجلاب المكافأة، اذ لم يحملني عليه الا الواجب الانساني، فلست أطمع في غير رضاك ان كنت استحقه».

فقالت وقد رمقته مستعطفة: «أهذا غاية ما تتمناه يا شفيق؟».

فأجابها وهو مطرق: «ان ذلك غاية ما أستحق يا سيدتي».

قالت: «انما أسألك عما تتمنى».

فتنهد وقال: «ما كل ما يتمنى المرء يدركه». وكلل جبينه العرق خجلا فأدركت هي ما وراء ذلك وغلب عليها الحياء فأطرقت خجلا أيضا.

وكأنما شجعه هذا فواصل حديثه قائلا: «أراك قد تراجعت ولم اذكر لك ما أتمناه، فكيف لو ذكرته؟».

فدنت من النافذة بلطف وقد خفضت من اضطرابها ومدت يدها اليه فتصافحا وأوضحا بالاشارة ما يقصر دونه الخطاب.

ثم عاودت الحديث قائلة: «لعلك تعجب لمعرفتي مقرك، والواقع اني جئت الليلة مع أبي لمشاهدة التمثيل فرأيتك حيث كنت بجانب صديقك، ولاحظت انك لا تحول نظرك مثله الى شرفات السيدات. ونظرا الى ما أشعر به من فضلك علي، أحببت مخاطبتك لأكرر لك الشكر، فاستأذنت أبي في الخروج من دار الأوبرا، وبعثت اليك بخادمي الأمين بخيت الذي أثق به كثيرا لما عرف به من الأمانة والبسالة وكرم النفس وصدق الطوية. وقد أطلعته على ما أبديته لأجلي من المروءة والشهامة فأصبح يحبك محبته لي ويعجب ببسالتك وكرم أخلاقك. وحيث ان أبي في انتظاري الآن فيحسن بي أن أعود اليه».

فقال: «وأنا أيضا سأعود للبحث عن عزيز». ونظر اليها ليرى ما يبدو على وجهها فاذا هي مطرقة تريد التكلم ويمنعها الحياء.

فقال: «اني اقرأ في وجهك كلاما ترومين اظهاره ويمنعك الحياء، ويخيل الي أنه يتعلق بصديقي عزيز، فعلام تحجبينه عني؟».

قالت: «ليس في الأمر ما يوجب التستر، ولا يمكني التصريح بأكثر من ان عزيزا ليس من أمثالك».

فقال : «هل عرفته قبل الآن ؟». قالت : «لم أشاهده الا معك ساعة الغروب في حال الاضطراب ، ثم في الملهى حين غادره وتركك مؤملا عودته لحسن طويتك واخلاصك، ولكن الاخلاص اذا كان مع . . ». . وأمسكها الحياء فلم تتم جملتها وقالت : «اذا شئت تحقق الخبر فاسأل بخيتا، والآن استأذنك في الذهاب لأن أبي ما زال في انتظاري ، على أني أطمع في موعد قريب أراك فيه».

فبهت شفيق وقد تذكر ما مر عليه هذه الليلة من الأهوال، وخاف ان تلحظ ما خامره من الارتباك فقال : «اني رهين اشارتك، ونظرا الى ان الوقت لا يسمح بأن تتأخري أكثر من ذلك ، سأتحدث في هذا مع بخيت، فعودي انت في حفظ الله ورعايته الى أبيك».

■

بقي شفيق واقفا مكانه وقد فقد حواسه بذهاب فدوى ، ثم انتبه الى نفسه فمشى عائدا الى الأوبرا حيث وجد بخيتا ينتظره خارجها ، فانتحى به ناحية، وشرع يستطلع منه ما أشارت اليه فدوى مما لم تقدر ان تفوه به، فقال بخيت : «اني لا استحيي ان أقول لك يا سيدي أن عزيزا لا يستحق ان يكون صديقا لك !».

فسأله : «لماذا ؟». فقال بخيت : «لأنه غادر خؤون مذموم. وقد تركك تنتظره على مثل الجمر وسار الى من هي على شاكلته من . . ».

فقاطعه شفيق قائلا : «هل علمت أين ذهب ؟».

فقال : «الواقع يا سيدي اني كنت مع سيدتي في شرفتها نراقب حركاتكما، فلاحت مني التفاتة الى بعض الشرفات فاذا بواحدة قد أومأت اليه من وراء الحجاب، ولما خرج هو من عندك خرجت هي من خلوتها ، ولا أعلم الى أين ذهبا ، وانما أؤكد لك انهما لم يخرجا من الدار ، فاذا بقيت هنا الى انقضاء التمثيل فلا بد من ان تراه خارجا».

فقال شفيق وقد اشتد به الغضب : «يا للغرابة ! . كيف يمكن ان يكون ذلك ؟».

قال : « ان سمو أدبك يا سيدي يجعلك لا تظن به سوءا ، فتعال بنا ندخل الملعب وأنا أبحث عنه فاذا ظفرت بمكانه أتيت بك اليه وأريتك اياه رأى العين».

ثم دخلا ، ومضى شفيق الى مقعده، وذهب بخيت ليبحث عن عزيز، وبعد قليل عاد مهرولا وعلى وجهه أمارات الدهشة . فسأله شفيق عن الخبر فقال : « لقيت صاحبك وسيدي الباشا في خلوة يتساران، وسأرجع اليك بما يدور بينهما». فذهل شفيق ولبث مبهوتا يفكر في أمر صديقه. وعاد بخيت لاستطلاع الخبر.

أما ما كان من أمر عزيز فانه غادر شفيقا في خلوته وخرج لمحادثة عجوز دهياء ، كأنها حية رقطاء بجفن أحمر وخد أصفر ووجه أغبش . وكانت هذه العجوز في الشرفة التي أشار اليها بخيت ، وهي دلالة تبيع الأقمشة والمصوغات للسيدات في بيوت الاعيان وأرباب المناصب ، وتتكلم التركية والفرنسية جيدا. فلما رأت عزيزا رحبت به طمعا في غناه وقالت له : «ما وراءك ؟».

قال : «المهم ما وراءك أنت، انك والله يا خالتي دليلة لدليل الهدى والانشراح» .

فقالت : « اني رهينة امرك يا بني فمر بما شئت» .

فمد يده الى جيبه وأخرج نقودا في صرة ووضعها في يدها قائلا : «مرادي ان أكلفك قضاء أمر أرجو ألا يكون صعبا لديك».

قالت وقد وضعت الدراهم في جيبها : « ثق يا حبيبي أنك في معزة ولدي ، وما يهمك يهمني. وقد عتبت عليك لدفعك لي دراهم ولم أقبلها الا مرضاة لك».

فقال عزيز : «ليس لنا بركة الا بك يا خالتي ، وأما ما أطلب اليك قضاءه فهو . . هل تعرفين فدوى ؟».

فقهقهت دليلة وقالت : «كيف لا اعرفها ؟ . لقد عرفت أباها الباشا المورالي ، وعرفت أمها منذ اتى بها من الشام بعد ان تزوج بها هناك. وابنتها فدوى بمنزلة ابنتي وقد عرفتها منذ نعومة :اظفارها» . فقال عزيز : «اذن قضي الأمر ، وما دامت فدوى بمثابة ابنتك ، فأظنك لا تكرهين ان أكون عندك بمثابة صهرك ؟».

فسكت هنيهة ثم قالت: «أمر سهل ولا يكون الا ما تريد، فأنت شاب غني وهي لا تطمع فيمن هو أكثر منك مالا وأعظم نوالا . لكني علمت منذ بضعة أسابيع أنها معقود اعليها لأحد شبان العاصمة» فقاطعها عزيز قائلا : «لم يعقد له عليها وانما خطبها من أبيها فلم ترض هي به، وقد ترتب على ذلك ميله الى الانتقام منها، وأصارحك بأني أحبها » .

قالت : «عليك بمرضاة أبيها، وعلي مرضاة أمها . أما هي فلا أظنها تخالف والديها» .

قال : «وما الذي يرضي أباها ؟» .

قالت: «انه بخيل يحب المال ويستسهل الصعب في سبيل نيله. كما انه يحب الاطراء والمدح» .

قال : «ماهو عمله ؟» . قالت : «انه صاحب أملاك كثيرة يعيش من دخلها ويقضي معظم أيام السنة في ضيعة له في مديرية الشرقية» . فقال عزيز : « عليك اذن استطلاع رأي والدتها ، وها انذا ماض لمقابلة أبيها لعلى استفيد منه شيئا ».ثم ودعها وخرج.

مضى عزيز الى الشرفة التي جلس فيها الباشا فدخل عليه مسلما بإحناء رأسه كتحية الافرنج.

فلما رآه الباشا ، رحب به لما يظهر على ملابسه من مظاهر الرفعة والمجد ، ثم أجلسه بجانبه وسأله عن بلاده ، فقال عزيز ، وهو يمضغ الكلام في فمه ويقطعه شأن اغراب اللغة الذين لا يحسنون التكلم بالعربية جيدا : «اني من أهل هذه المدينة يا سعادة الباشا».

قال : «ولكني أرى في لغتك لهجة افرنجية ».

قال : «ذلك لأني أسافر الى باريس كل سنة لقضاء فصل الصيف فيها».

فسأله الباشا : «ما اسم أسرتكم الكريمة ؟».

قال : «اني يا سعادة الباشا من أسرة جندب، واسم عبدكم عزيز ». فنظر اليه الباشا مندهشا وقال : «من اسرة جندب ؟ . اذن انت قريب السيد جندب المغربي المتوفي منذ سنتين ؟». قال : «هو أبي يا سيدي ».

فانفرجت أسارير الباشا وقال : «رحمه الله ، كان رجلا عاقلا حكيما وقد جمع ثروة كبيرة بجده واقتصاده. هل ترك المرحوم أولادا غيرك ؟».

قال : «لا يا سعادة الباشا ، انني ابنه الوحيد ».

قال : «وماذا تمارس من الاعمال ؟». قال : «اني ما زلت طالبا في المدرسة ، وفي النية متى تخرجت ان أنشىء جريدة سياسة».

فاستبشر الباشا وقال : «حسنا تفعل لأن أفندينا يحب المشروعات العلمية والأدبية ويشجعها كثيرا ، وطالما كافأ رجال العلم والأدب فمنحهم الأموال الطائلة والرتب والنياشين. أما الجرائد فان دوائر الحكومة بفضل توجيهه تشترك في نسخ عدة من كل منها».

فقال عزيز : «صدقت يا سعادة الباشا ، ولكني أظن ان ذلك كان دأب سمو الخديو قبل تأليف اللجنة الدولية الخاصة بمراقبة مالية البلاد، أما الآن فالمراقبان يقعان بمراجعة الحسابات، وقد غلا يد الخديو فيما يختص بالنفقات غير الضرورية وأخشى أن يحول ذلك دون نجاح مشروعي».

فقال الباشا : « نعم ان المراقبين اوقفا النفقات غير الضرورية، غير ان تشجيع الجرائد لا يدخل في اعمال المراقبة، هذا الى ان المراقبة قلما قيدت اعمال الخديو ، بل ان الوزارة التي أدخلت الدول فيها وزيرين أجنبين أحدهما فرنسي والآخر انجليزي قلما أثرت في بسط كفه».

قال عزيز : « وما رأي سعادتك في الحكومة الشورية؟ الا ترى أنها قيدت أعمال الخديو وبعد ان كان الحاكم المطلق يمنح دون معارض ، صار لمجلس النظار حق التدخل في كل الاجراءات».

فقال الباشا : « لا يعيقنك ولا يثن عزمك شيء ، وما دمت قد عزمت فتوكل على الله ، وما أنت في احتياج الى الكسب».

قال عزيز : «حسنا . . ولكن لدي مسألة أخرى مهمة أريد عرضها على سعادتكم» .

قال : « وما هي ؟ » . قال : « تعلم ان أبي ترك لي مالا طائلا ، وليس في ذوي قرباي من يصلح لتولي ادارة هذه الاموال وأكون على ثقة منه ، ونظرا لما هو مشهور عن حسن أمانتكم أتيت أستشيرتكم فيما أفعل» .

فاشتم الباشا من كلامه رائحة الربح الكثير ، ولا سيما اذا قدر له ان يكون هو الوصي عليه ، فقرب كرسيه منه وقال له : « يعز علي أيها الحبيب الا أساعدك في هذا الأمر ، لأن الأمناء قليلون ولا سيما في هذه الأيام . على اني سأبحث عمن يصلح لذلك ، فإن لم نوفق الى كفء أمين ، فاني أتعهد بأن أقوم لك بهذه الخدمة لأن أباك رحمه الله كان من أصدقائي » . فقاطعه عزيز متلهفا وقال : «انها لمنة كبرى من سعادتكم . ولكني أخشى ان يكون في ذلك ما يثقل عليكم . على اني اذا اسعدني الحظ بوصايتكم الرشيدة فإني اعاهد سعادتكم على رفع هذا العبء عنكم عقب زواجي مباشرة بإذن الله» .

فكاد الباشا ان يطير فرحا لعلمه بوفرة الثروة التي آلت الى عزيز عن أبيه ، وانه ان تولى الوصاية عليه فسيكون حر التصرف فيها ولا سيما اذا تمكن من تحبيب ابنته اليه وتزويجه بها . ولما تصور ذلك اختلج قلبه سرورا ، وتضاعف احترامه لعزيز فقدم له سيكارة وتبسط في الحديث معه . بينما أخذ هذا يدخن ويتنقل بنظره من جهة الى أخرى ، ثم يرفع النظارات ويمسحها بطرف منديله ، وفكره مشغول بالبحث عن وسيلة يعرقل بها مساعي شفيق ويحول دون استمرار الحب المتبادل بينه وبين فدوى .

وفيما هما كذلك ، جاء بخيت وقال : «يا سعادة الباشا ان سيدتي عادت الى شرفتها » .

فقال الباشا : «حسنا » فحنى بخيت رأسه اجلالا وخرج .

أما عزيز فعلم ان خروج فدوى لم يكن الا لمقابلة شفيق خارج الملعب ، فازداد حسدا له وأجهد فكره حتى اهتدى الى حيلة رأى انها كفيلة بإبلاغه مرامه فقال للباشا : « أليس الأغا الذي خاطب سعادتكم الآن تابعا لفدوى هانم ؟ » . فبغت الباشا وقال : « نعم ، وهي ابنتي وكانت قد خرجت بعد الفصل الأول للترويح عن نفسها ، ثم رجعت» .

فتظاهر عزيز بالدهشة وقال : « هل السيدة فدوى ابنة سعادتكم ؟ » .

قال : « نعم هي ابنتي ، هل رأيتها قبل الآن» .

فقال عزيز : « عرفتها مصادفة » . وسكت فاشتغل قلب الباشا ، وطلب الى عزيز أن يبين له كيف كان ذلك ، فتظاهر هذا بالامتناع عن الاجابة وقال : « ليس في الأمر ما يوجب

الاهتمام». فلما ألح عليه الباشا قال : « الحق انه يجب علي حبا لمصلحة سعادتكم وصيانة لشرف كريمتكم أن أوجه التفاتكم الى أمر مهم، وهو ضرورة العناية بأمر ابنتكم العزيزة ، لأنها جوهرة ثمينة لا يكفي ان يعهد في أمرها الى الأغوات والخدم، لأن الأمين بينهم قليل».

فقال الباشا : «صدقت يا عزيزي ، لكني قد عهدت في أمرها الى أفضل من عرفت بين هؤلاء ، وبخيت الذي رأيته الآن خادم أمين صادق يحب الفتاة حبا جما، ويبذل حياته في المحافظة عليها ، وقد ظهرت أمانته في أحوال مختلفة ».

فقال عزيز « على كل حال ، ليس ما أبديته سوى نصيحة عامة ، وحسبنا هذا الآن، وعسى ان نلتقي مرة للمفاوضة فيها دار بيننا».

فقال الباشا : «حبذا لو أتيت الي في منزلي غدا» . ثم نهض عزيز مودعا وانصرف واثقاً بأنه ترك في قلب الباشا ابلغ الاثر، بما اظهره من الرقة واللطف والثقة، وغيرته على ابنته.

■

أي شيء يكون أقبح مرأى   من صديق يكون ذا وجهين ؟
من ورائي يكون مثل عدوي   وهو اذ يلتقي يقبل عيني !

خرج عزيز وترك الباشا يفكر فيما سمعه عن ابنته وقد وجه انتباهه من ذلك الحين الى مراقبتها وان كان واثقا بتعقلها وعفافها، فلم يمنعها شيئا مما اعتادته من حرية الخروج للتنزه ومقابلة صويحباتها. على أن الجانب الأعظم من اهتمامه كان منصرفا الى ما أمله من الكسب اذا تولى الوصاية على أموال عزيز.

وكان بخيت قد سمع كل ما دار بين الباشا وعزيز من الحديث ، فسارع قبل خروج عزيز الى مقابلة شفيق، وقص عليه حكاية صديقه موجزة ثم قال : «لا بد من تأجيل اجتماعك بسيدتي ريثما تذهب الشبهة عنها».

فبهت شفيق ولكنه لم يقطع بأن مقابلة عزيز للباشا كانت للوشاية به، وذلك لانه كان حسن النية ، مصدقا لما وعد به عزيز خلال عودتهما من الجزيرة من معاونته على الزواج بفدوى .

ومضى عزيز الى الشرفة التي كان فيها مع شفيق ، فلما لم يجده فيها أخذ يبحث عنه حتى لمحه يتحدث مع بخيت ، فأدرك ان هذا ابلغه كل ما حدث، لكنه تغاضى عنهما حتى افترقا ثم سار شفيق وبادره قائلا وهو يظهر الخجل: «اعذرني يا عزيزي اذ أطلت الغياب ، وستعلم نبأه بعد قليل . والآن قد انتصف الليل وانقضى التمثيل فهيا بنا نتم سرورنا بمشاهدة احتفال فتح الخليج».

فقال شفيق : «كفانا ما لقيناه الليلة ، ولا شك ان أبي في قلق عظيم لتأخري وقد انهكني

السهر لأني لم أتعوده».

فقال عزيز ساخرا : «لا يجمل بأحد ان ينام الليلة وهي ليلة فتح الخليج أما والداك فما أظنهما يتقاعدان عن الذهاب لمشاهدة الاحتفال ، فأهل القاهرة صغارا وكبارا يحرصون على مشاهدته».

وما زال يحاول اقناعه حتى بلغا مكان العربة فأمسك بيده وأجلسه فيها ثم جلس بجانبه ، ومضت العربة بهما الى فم الخليج وكلاهما تائه في عالم هواجسه الخاص.

وكانت هذه أول مرة شعر فيها شفيق بالارتياب في صداقة عزيز ، فأراد مكاشفته بما سمعه عنه لئلا يكون تحاملا عليه، وقال له والعربة منطلقة بهما: «ان الصداقة التي بيننا تقضي علي بمكاشفتك بأمر سمعته عنك، وأرجو الا يكون صحيحا».

فقال عزيز : «ماذا بلغك ؟». قال : «بلغني انك تركتني وذهبت لمسامرة احدى النساء، وقد أفضى بك الأمر الى الحديث مع بعض الناس بما لا يوافق مصلحتي !».

فنزع عزيز سيكارته من فيه متظاهرا بأنه يتميز غيظا وقال : «اني مسرور لمكاشفتك اياي بما في ضميرك أيها العزيز ، وسأطلعك على حقيقة الامر ليتحقق لديك صدق طويتي لك، فاني لم أفعل الا ما فيه مصلحتك قياما بوعدي لك بعد ان توسمت ميلك الى فدوى على أثر انقاذك اياها . وقد سعيت لتسهيل أمر اقترانك بها، وسلكت لذلك سبيل الحكمة والتعقل فقابلت عجوزا محنكة لها المام تام بدخائل بيت الباشا ، فأشارت علي بمقابلته والتلطف معه في الحديث ثم التطرق الى الغرض المنشود وعلى هذا قابلته ونبهته الى وجوب العناية بابنته وعدم السماح بخروجها وحدها. وكنت أرجو ان يسألني عن الخطر الذي يترتب على ذلك ، فأنتهز الفرصة ، وأذكر له ما كان من أمر انقاذك اياها من خطر العار والموت، ثم أستطرد الى ذكر صفاتك وألمح الى جدارتك بالاقتران بها، ولكني لم أستطع الوصول الليلة الى هذا الحد ، وسأعود الى ذلك في فرصة أخرى ».

وكان عزيز يتكلم مظهرا السذاجة والاخلاص التام ، فلم يسع شفيق الا ان يصدقه وقال : «اني غير طامع في نيل الفتاة، لبعد ما بيني وبينها».

فالتفت عزيز اليه مظهرا الدهشة وقال : « انك جدير بها وبأعظم منها، لا أقول ذلك تحقيرا لها في عينيك لأنها فتاة غنية وقد زينها الله بكمال الذات والصفات، ولكنك أيضا شاب نادر المثال بعملك وأدبك وفضلك ، ولو أنك طلبت يد أية فتاة من بنات الكبراء لنلتها ونلت معها مالا وافرا، فهذا العصر - كما تعلم - عصر الشبان ، وهم الذين يحصلون على المهر الآن لا الشابات ».

فقال شفيق ساخرا : « ان (الدوطة) ليست من عاداتنا نحن الشرقيين، وان فتاة في

جمال فدوى وكمالها وادبها لا تحتاج الى دفع مهر، بل ليس أسهل عليها من أن تجد بين أمثالها من أولاد الاثرياء من يدفع لها أكبر مهر».

فتبسم عزيز وهو يتقد غيرة وحسدا ، وعمد الى تحقير فدوى في عيني شفيق ، فقال له « لا أنكر عليك شيئا من ذلك ولكن لدي ملاحظة أرجو ان تسمح بابدائها، وهي أن فتاة مثلها لم يكن ويحسن بها ان تبقى في الجزيرة وحدها في الليل الدامس، مما عرضها للخطر الذي عرفته !».

فاستعرت نار الغيرة في قلب شفيق، وأحس كأن الاهانة لحقته هو، ولم ير بدا من دفعها عن مالكة لبه فقال وقد بدت علائم الخجل على وجهه : «انها لم تذهب الى الجزيرة لتبقى هناك الى الليل، وأنت نفسك اخبرتني بأن سائق مركبتها تواطأ مع الجاني الأثيم على تعويقها هناك، فليس فيما حدث ما يحط من قدر أدبها وتعقلها».

فلما رأى عزيز ما يتخلل كلام شفيق من الغيرة الشديدة على فدوى، تلوى مثل الحية، واشتعل فؤاده حسدا ، لكنه كظم غيظه وخاف اذا اختلق عليها اكذوبة أخرى ان يقع في شر أعماله فينكشف امره وتحبط مساعيه، فصمت وأخذ يتشاغل بتقليب عصاه في يده ثم قال : «لم أقل لك يا عزيزي انها بقيت في الجزيرة حتى ذلك الحين باختيارها ، وانما قلت ان ذلك التأخير ربما أضر بسمعتها».

قال ذلك اخفاء لما كاد يظهر من حسده وغيرته، ولكن قلبه ما برح يزداد بغضا وحسدا لشفيق حتى حدثته نفسه بأن يفتك به، ولكنه لم يجرؤ على ذلك لعلمه ان شفيقا أشد منه بطشا فعمد الى الحيلة شأن الضعيف الساقط الهمة المرذول.

■

وصلت العربة بشفيق وعزيز الى ساحة فم الخليج، وقد انفض الاحتفال ولم يبق في الساحة الا نفر قليل . فسر شفيق لذلك لأنه كان قلقا لتأخره عن العودة الى والديه، فقال لعزيز : «هيا بنا، فقد انقضى معظم الليل وأنا موجس خيفة من قلق والدي علي».

قال عزيز : « اني اضن بفراقك يا عزيزي، لأني لا أسر الا بمشاهدتك. وقد كانت هذه الليلة لدي من أسعد الليالي. أما وأنت مصر على العودة الآن فإني أشيعك الى المنزل».

قال ذلك وأمر السائق فمضى بالعربة الى شارع العباسية . وجلسا صامتين في العربة حتى وقفت أمام باب منزل شفيق، فسمعا صوتا من احدى النوافذ ينادي: «شفيق . . شفيق . . ». فعرف شفيق انه صوت والدته، فأجابها بقوله: «لبيك يا أماه».

فقالت : «ما هذا التأخر يا ولدي ، ألا تدري ان والديك على مثل الجمر لطول غيابك . ما عهدتك تصنع مثل هذا». وهرولت لملاقاته فأسرع اليها عزيز وهم بتقبيل يديها احتراما

فمنعته من ذلك وردت تحيته ، لأنها لم تكن مسرورة من مرافقته لابنها.

ثم التفتت الى شفيق وقالت له : «أيليق بك يا ولدي أن تطيل علينا الغياب دون ان تعلمنا ؟».

فأجابها متعجبا : «ألم يبلغكما خبر ذهابي مع صديقي عزيز الى احتفال فتح الخليج ؟ ».

قالت : «لا ». فأطرق عزيز متظاهرا بالكدر ثم قال : « عفوا يا سيدي ، لا بد ان خادمي قد نسى او توانى في ابلاغكم الخبر، وسأعاقبه على ذلك بطرده ». ثم ودعهما وخرج.

وسألت سعدى شفيقا : « ألم تقابل أباك يا بني ؟. لقد خرج للبحث عنك».

فقال : «لم أقابله يا أماه، واني لآسف لما حملتكما من المشقة هذه الليلة، على اني لم أتأخر الا لوثوقي بإبلاغكما خبر ذهابي الى فم الخليج». فسكتت حتى دخلا المنزل ثم سألته: «هل تناولت العشاء ؟». قال : « نعم». فقالت : «أما نحن فلم نذق طعاما ولم نعرف رقادا حتى الآن !». ثم أخذته الى حجرة المائدة ودعته الى الجلوس لمؤاكلتها ريثما يعود ابوه، وجلسا يتناولان الطعام ويتحدثان . فلما أبطأت عودة ابراهيم أعرب شفيق عن قلقه لذلك ، فقالت له امه : «لعل تأخره لشاغل مهم». ثم سألته عن سبب تأخره هو على غير عادته ، فقال : «ألم أقل لك اننا كنا نشاهد الاحتفال بفتح الخليج ؟». فقالت : «لم أعهد فيك الاخبار بغير الواقع ، فقل لي ما سبب تأخيرك لأني أعلم انك لم تكن هناك».

فتعجب شفيق لمعرفتها ذلك وقال : «معذرة يا أماه ، وسأقص عليك الخبر على أن تبقيه سرا ولا تطلعي عليه أحدا حتى ولا أبي». ثم قص عليها الحكاية من أولها الى آخرها، وهي مقبلة على سماعها مستغربة ما صادفه من الحوادث . ولما أتى الى حديث الفتاة احمر وجهه حياء وكاد يمتنع عليه الكلام ، فازدادت امه دهشة وخافت عليه ذلك الغرام وهو مازال يافعا غض الشباب فقالت: «وكيف أحببتها لأول نظرة وأنت لا تعرف عنها شيئاً؟».

قال : « اعترف لك بأني أجهل السبب ، ولكني شعرت نحوها بما لم أشعر به نحو أحد في هذا العالم، ولا أخفي عليك أيضا اني شاهدت من محبتها لي ما لا يقل عن ذلك ولكن آه يا أماه». قال هذا وكاد يشرق بالطعام، فبادرته قائلة : « لا بأس عليك يا ولداه مم تشكو؟».

فترقرقت عيناه بالدموع وقال : « اعذريني يا أماه. اني لا أملك حواسي».

فقالت : «لا بأس عليك يا بني، خفض من اضطرابك ولا تخف علي ما بك».

قال : «اني يا أماه أحبها حبا مفرطا ». ولم يتمالك عن البكاء فخافت عليه امه شدة الانفعال فترامت عليه وضمته الى صدرها وقبلته قائلة : «لا تخجل ، يا ولداه، ان المحبة اذا قرنت بالشرف والشهامة لم يكن فيها ما يخجل ، فسكن روعك واشرح لي كيف تحاببتما».

قال : «اني أحبها يا أماه حبا لا أعرف كيف نشأ، ولكني أحس ان له تأثيرا في كل جوارحي كأنه جرى في مفاصلي». فقالت: «كأني بك تميل الى الاقتران بها؟».

فأطرق حياء، ثم رفع وجهه والدموع ملء عينيه وقال : «نعم يا أماه اني أميل الى ذلك ، ولكن ماذا ينفع هذا الميل وبيني وبينها بون عظيم ، وأنا لا أعلم حقيقة مستقبلي ؟» . فرق قلبها له وغلب عليها الحنو فقالت: « اني أعرف الفتاة يا ولدي ، وقد سمعت عن تهذيبها ولطفها وذكائها من احدى جارتنا ، ولا ألومك على حبك لها . لكن لا يخفى عليك ان الفتاة من عائلة عريقة في الحسب والنسب وذات ثروة عظيمة ، فاجتهد لكي تكون رجلا عظيما فتستحقها ، ولا يأخذ منك اليأس مأخذه، فما دمت ذكيا مهذبا صادق اللهجة صحيح المبادىء مقداما فلن يمنعك مانع من الارتقاء واجتياز كل ما يعترضك من المصاعب . ومما يساعدك في نيل مطلوبك ان حبكما متبادل ، فلا خوف اذن من ميلها الى سواك».

فسرى عنه وقال: « ان كلامك أيتها الوالدة الحنون قد نبه في أشرف المبادىء ورقى أفكاري الى درجة لا أرضى معها التزلف والمذلة ، ولكن آه يا أماه ! . اين أنا الآن مما تقولين ؟ . ومن لي بالصبر حتى أتبين مستقبلي ؟».

فقالت : «ان الحب يصنع المعجزات يا ولدي ، فكن حازما واعلم انك لن تنال مرادك الا اذا اجتهدت ونبغت في دراستك ثم صرت ذا منصب يفي باحتياجاتك، لأن أباها
الا إذا اجتهدت ونبغت في دراستك ثم صرت ذا منصب يفي باحتياجاتك، لأن أباها لا يزوجها طبعا الا لمن يماثلها ثروة ، أولمن هومن رجال الأعمال، وما أظنك ترضى ان تعيش من مال أبيها» .

فقال : « كلا يا أماه ، وما أحسبها تبادلني الحب اذا لم أكن كفؤا لها . . على انها لو رضيت ذلك فأنا لا أرضاه !» .

قالت : « بورك فيك يا بني ، وماذا تعتزم بعد تخرجك في المدرسة ، هل تفضل العمل في المحاماة أم الطب ؟» .

فتنهد شفيق وقال : « ان المحاماة تقتضي ان أدرس لها سنتين في أوربا ، أما الطب فدراسته تستغرق ست سنوات أو خمس سنوات على الاقل » .

فقالت : « كيف يمكننا الصبر على بعدك سنتين وقد رأيت قلقنا عليك الليلة، أما الطب فربما استطعت الانتهاء من دراسته في أربع سنوات» .

فقال : «كل شيء بيد الله يا أماه ثم نظر الى الساعة فاذا هي الثالثة بعد نصف الليل، فأبدي قلقه لتأخر أبيه . ثم دخل الخادم وقال : « بالباب جاويش معه كتاب لك يا سيدتي» .

فقالت : «هاته» . فلما جاءها به دفعته الى شفيق قائلة : «انه من المعية السنية» . وارتعدت فرائصها واغرورقت عيناها بالدموع. فقال شفيق : « ما الداعي لهذا ونحن لم نطلع على

مضمونه. أتأذنين لي في فضه ؟ ». فأومأت برأسها موافقة.

وفضه شفيق فاذا هو من أبيه يقول فيه : «لا تقلقي لغيابي الليلة ، لأني دعيت وأنا خارج من البيت الى المعية السنية، وسأبقى بها الى غد، فاكتبي لي مع حامل هذا (هل جاء شفيق ام لا)»

فلما قرأ الكتاب زال اضطرابها وقلقها. ثم ردا على الكتاب وسلما الرد للجاويش فانصرف به عائدا من حيث جاء. وبعد ان لبثا صامتين قليلا اقترب شفيق من والدته وسألها: « ما معنى هذه الدعوة في مثل هذا الوقت ؟ . وما علاقة أبي بالمعية وهو ليس من مستخدمي الحكومة المصرية ولا من أصحاب الاملاك ؟».

فقالت : «لا يخفي عليك يا ولدي ان أباك من مستخدمي قنصلية انجلترا، وان لهذه الدولة مطامع في مصر تسعى لتحقيقها بالاشتراك مع فرنسا ، مما أصبح معه مركز الخديو في خطر، وبما ان أباك من محبي الحكومة المصرية فلعل المعية استقدمته لمباحثته في بعض تلك الشؤون كما فعلت مثل ذلك من قبل. وعلى هذا لا خوف عليه باذن الله، وانما خشيت أول الأمر ان تكون الدعوة من الخديو رأسا، ولا تخفى عليك عواقب مثل هذه الدعوة».

ثم نهضا وغادرا حجرة المائدة للنوم، ولم يبق من الليل الا القليل.

■

قضى شفيق بقية ليلته يفكر في فدوى وفيما دار عنها من الحديث بينه وبين والدته. أما هذه فكانت قد اطمأن قلبها على ولدها وزوجها فعادت الى التفكير في أمر الصندوق، وساءها أن تأخر فتحه بسبب ما حدث تلك الليلة وصممت على السعي الى فتحه عقب عودة زوجها.

وفي الصباح التالي عاد ابراهيم الى المنزل سليما معافى، وما رأى شفيقا حتى سأله عن سبب تأخره بالأمس، فاكتفى هذا بأن أخبره بأنه كان يشاهد الاحتفال بفتح الخليج ولم يخبره بأمر فدوى، فعنفه أبوه على ذهابه دون علمه، فاعتذر شفيق ملقيا التبعة على خادم عزيز، وأيدته أمه في ذلك. ثم مضى شفيق الى المدرسة كعادته. فما كاد يغادر المنزل حتى طلبت سعدى الى زوجها ان يفتح الصندوق حسب وعده.

فقال : « أنصح لك يا سعدى ان تعدلي عن هذا الأمر».

فقالت : « انك كلما زدت تمنعا، لم تزدني الا رغبة في فتحه».

فقال : «لست أجهل ذلك، ولكني ما زلت انصح لك بالكف عن هذا الطلب». ولما أصرت على فتح الصندوق أخرج من جيبه مفتاحا صغيرا، ثم التفت يمنة ويسرة للتحقق من خلو المكان من الرقباء، وتناول الصندوق وأولج فيه المفتاح ويده ترتعش، وسعدى تحدق فيه ببصرها، فلما رفع الغطاء عنه انتشرت منه رائحة كريهة، لكن سعدى لم تبال، وأطلت لترى

ما فيه فلم تجد سوى خصلة من الشعر قد اغبر لونها لطول عهدها في الصندوق ، ومدت يدها لتلمسها فمنعها قائلا : « حسبك النظر ولا تمدي يدك » . فكفت يدها وتفرست في شعر تلك الخصلة فاذا هو كث يتخلله أثر دماء ، فأخذتها الرجفة وامتقع لونها ، ومالت الى استطلاع سر تلك الخصلة لكنها لم تجرؤ على مخاطبة زوجها في هذا الشأن لما اشترطه عليها من قبل ، فسكتت وبقيت عيناها معلقتين بالخصلة الرهيبة العجيبة حتى أغلق زوجها الصندوق وأعاده الى مكانه .

ولاحظ عليها شدة التأثر فقال : « أرأيت كيف ازددت قلقا ؟ » .

فقالت وقد زاد اضطرابها : «نعم ، وسأبقى في قلق عظيم ان لم تطلعني على الحكاية ، ولا شك في أني الجانية على نفسي ، لكنك أرحم بي من أن تتركني نهبا لهذا القلق المقعد المقيم» .

فنظر اليها وعلى وجهه أمارات الحزن والكآبة كأنه تذكر مصائب قديمة كانت قد نسيت على طول المدى ، ثم قال لها : « لقد أخلصت لك النصيحة فلم تقبلي ، فأنا بريء من تبعة ما تقاسينه من القلق ، على كل حال لا بد من مجيء وقت اطلعك فيه على ذلك السر مفصلا ، فأقصري ناشدتك الله اذ لا فائدة من الحاحك وليس الأمر في يدي » . قال ذلك ونهض فبدل ثيابه وخرج الى عمله ، وترك سعدى مشغولة الخاطر منقبضة النفس وقد تحولت طلاقة وجهها الى عبوس ولم يكن ابراهيم أقل منها انقباضا ، وقد زاد في قلقه تذكره أحزانا كادت تزول من ذاكرته . . .

بعد الامتحان

مضت أسابيع وعزيز يتردد على الباشا مواصلا الحديث معه في أمر ادارة ثروته، ثم حان موعد الامتحان في المدرسة التجهيزية، وتم ذلك باحتفال شائق في سراي درب الجماميز حضره الخديو يحف به الوزراء والأعيان كالعادة ، وتقدم التلامذة للامتحان الشفوي في حضرته فكان يراقب مقدرة كل منهم ، الى ان جاء دور شفيق فأجاد في أجوبته مما استرعى انتباه الخديو ، فأعجب بذكائه وفطنته وبما يزينها من الرزانة والكمال ، فدعاه اليه على مشهد من الحاضرين وسأله: « ما اسمك ؟».

فقال : « عبد سموكم شفيق ابراهيم».

وأسر كبير الياوران الى الخديو قائلا : « ان أباه من مستخدمي قنصلية انجلترا ». فابتسم الخديو مظهرا انه يعرفه ثم التفت الى شفيق قائلا : « أحسنت يا بني أحسنت ». ثم صرفه فعاد الى مكانه فرحا لما ظفر به من اعجاب ولي النعم ، وتصفيق الحاضرين تهنئة له .

وعلى أثر انتهاء الاحتفال دعا ناظر المدرسة اليه أبا شفيق وكان بين الحاضرين فأبلغه ان الخديو أمر بإرسال شفيق الى أوربا لاتمام دراسته فيها على نفقة الحكومة فتلقى ابراهيم هذه البشرى بالدعاء للجناب العالي ، وعلى وجهه علامات السرور لما حازه ابنه من التفات ولي الأمر ، ثم اتى شفيق الى أبيه وقبل يده، وخرجا والناس ينظرون الى شفيق معجبين برصانته وذكائه، ولاسيما انه رغم فوزه لم تأخذه هزة الطرب، أو تبد على وجهه علامات الخفة.

أما عزيز فكاد حسده وحقده يقضيان عليه، ولكنه كظم غيظه وهنأ شفيقا بما ناله من الانعام.

وكان فرح سعدى عظيما بنجاح ابنها، وان ساءها انه سيفارقها الى أوربا ، فأخذ هو يخفف عنها ويهون عليها، وقال لها : « لا يخفى عليك يا أماه انني حين أعود بعد ثلاث سنين أو أربع في دراسة المحاماة، سيسهل علي الوصول الى أحد المناصب المهمة كالقضاء مثلا ، وهناك كثيرون يتمنون هذا ولم ينالوه».

فقالت : « ومتى يكون السفر ؟». قال : « ما أظن انه يكون قبل بضعة أسابيع ». فسكتت مسلمة الأمر لله.

وكان الباشا ابو فدوى ممن حضروا الامتحان، فأعجب بنبوغ شفيق وذكائه ولطفه ، فلما عاد الى بيته وجلس الى المائدة مع عائلته ، أخذ يروي ما شاهده في الامتحان ، وأطنب في الثناء على شفيق ، فلما سمعت فدوى اسم مالك لبها اختلج قلبها فتشاغلت بتقطيع فاكهة كانت أمامها ، ولم ترفع نظرها الى أبيها اخفاء لما كاد يظهر على وجهها من علائم الوجد، وانصتت لتسمع بقية الحديث.

وفي صباح اليوم التالي تلقفت عدد جريدة الأهرام وأخذت تتصفحه حتى استقر نظرها على رسالة العاصمة ، فقرأت فيها : « قد انعمت الحضرة الفخيمة الخديوية على جناب الشاب الأديب شفيق افندي ابراهيم ، بالتوجه الى الديار الاوربية لدرس فن المحاماة في أعلى مدارسها ، على نفقة الحكومة السنية. وذلك لما شاهده سموه من ذكاء هذا الشاب ونشاطه». فاختلج قلبها فرحا لعلمها ان شفيقا متى صار قاضيا كان جديرا برضاء ابيها وقبول خطبته لها. لكنها أشفقت ان يكون في غيابه ما يضعف حبه لها، فذهبت الى حجرتها ودعت بخيتا لتطلعه على ما خامر قلبها من الوساوس ، ولم تكن تقدر ان تكاشف بأسرارها أحدا من الناس الا هذا العبد الامين، فقالت له: « هل سمعت بما تم في أمر شفيق ؟». قال : « نعم قرأت ما جاء عنه في جريدة الاهرام».

فقالت : « ان نجاحه قد سرني وزاده قدرا في عيني ، غير ان سفره الى اوربا قد يمتد الى اربع سنوات، ولا يدري احد ما يأتي به الزمن خلالها . وقد قيل : (الدهر قلّب) وأوربا بلاد تشغل الأم عن رضيعها كما تعلم». ثم تنهدت ونظرت الى بخيت كأنها تستطلع رأيه.

فبادرها قائلا : « اني قد آنست يا سيدتي من شفيق شهامة ومروءة فوق ما سمعت ، فاذا هو عاهدك لا ينكث بعهده فقلب المحب الصادق لا يميل الى غير حبيبه، وقد فهمت انه يحبك مثل حبك له أو أكثر فاذا رأيت فاني اتفق معه على موعد تجتمعان فيه لعلك تثنيه عن السفر».

فأطرقت برهة ثم رفعت بصرها اليه وقالت: « حسنا تفعل يا بخيت ، ولكن يحسن ان تترقب فرصة يكلفك بها أبي قضاء أمر خارج المنزل ثم تتوجه

الى شفيق ، فان أبي يراقبنا كما تعلم منذ اجتماعه بذلك الشاب المتفرنج».

فقال : « لعل الاحتفال بالمولد أفضل فرصة لاجتماعكما ، ولكني أخشى ان يذهب سيدي الباشا اليه أيضا . وعلى هذا أرى ان تذهبي في مركبتك الى قصر النزهة في شارع شبرا، وليكن ذلك في اليوم العاشر من هذا الشهر ، وهناك تجتمعان في الحديقة ويخلو لكما الجو».

فقالت : « نعم الرأي ما رأيت».

■

خرج شفيق من بيته في اليوم العاشر من الشهر، قاصدا الى العباسية للترويح عن نفسه. وكان يسير مطرقا كمن يفكر في أمر ذي بال لا يحول بصره الى شيء من البنايات المزخرفة والحدائق الغناء التي على جانبي الشارع، ولانشغاله بتصوراته الغرامية وبينما هو على هذه الحال اذ اعترضه بخيت وألقى عليه التحية، فرفع بصره اليه وما عرفه حتى خفق قلبه شوقا وهياما الى مالكة قلبه، ثم سأله : «ما وراءك ؟».

فقال : « جئتك بأمر من سيدتي، وقد أسعدتني الصدف بلقياك هنا».

قال : « هات ما عندك». قال : « ان سيدتي قرأت في جريدة الأهرام نبأ الانعام عليك من الحضرة الخديوية، فسرت لفوزك وان ساءها قرب سفرك الى أوربا».

فقال : « ان للضرورة أحكاما ، وما حيلتي والمثل يقول : (تجري الرياح بما لا تشتهي السفن . ؟) . . ».

قال : « انها تود مقابلتك قبل سفرك».

فظهرت علائم الدهشة والاستبشار على وجه شفيق وقال : « متى ؟ وأين ؟. ألم تحدد الزمان والمكان ؟».

قال : « في أصيل اليوم بقصر النزهة في شبرا».

فقال شفيق : « سأكون هناك في هذا الموعد ، فأبلغها هذا مع تحيتي واحترامي». فودعه بخيت وعاد ليخبر سيدته بما كان.

وفي الموعد المحدد ركب شفيق عربة مضت به الى شارع شبرا ، وهو يومئذ من أجمل متنزهات القاهرة ، يشرف على أرض قليلة السكن تتخللها

مروج خضراء وحدائق غناء، وعلى جانبيه أشجار باسقة كثيفة ملتفة الأغصان . وكان الخديو يخرج الى هذا الشارع في موكبه كل يوم جمعة وحواليه جماعات من الأمراء والعظماء في مركباتهم. فيزدحم الناس هناك لمشاهدة الموكب. أما في الايام الأخرى كهذا اليوم فلم يكن رواد الشارع كثيرين . فلما وصلت العربة الى قصر النزهة لم يحاول الدخول اليه لعلمه بامتناع ذلك الا على بعض الناس، ونظر الى الساعة فاذا موعد الاجتماع ما زال باقيا عليه نصف ساعة، فأمر السائق بأن يمضي بالعربة للنزهة في تلك المنطقة ريثما يحين الموعد .

ولما اقتربت العربة من منتصف الشارع ، شاهد عربة فدوى مقبلة من بعيد فخفق قلبه وأخذته رجفة الحب وعلا وجهه احمرار الخجل ثم أعقبه اصفرار الوجل. وفيما هو كذلك رأى فارسا ملثما قد اعترض سائق عربتها وأمره ان يعرج بها الى مضيق هناك، فأدرك انه يريد شرا بحبيبته، فارتعدت فرائصه من الغيظ واشتعل قلبه غيرة عليها، فأمر سائق عربته بالاسراع حتى وصل الى ذلك الموضع وصاح بذلك الفارس الملثم قائلا : « مكانك ايها الوغد ، كيف تجرؤ على اعتراض طريق السيدات ؟». وهم بالنزول من العربة ، لكنه رأى ذلك الفارس الملثم حول عنان جواده وولى هاربا، فبقي في العربة وأومأ الى فدوى بالتحية، فردت تحيته بمثلها ، ثم انطلقت العربتان حتى وقفتا امام القصر، ونزل بخيت ليدبر وسيلة للدخول ، ولبث شفيق وفدوى في انتظار عودته وهما يتبادلان النظرات وفيها ما يغني عن كل بيان، وان كان خوفهما من عيون الرقباء قد حملهما على أن يكون ذلك بحساب .

وفيما هما في ذلك سمعا قرقعة عربة عزيز، فأوجس خيفة من مجيئه، كما تشاءمت فدوى منه وأنزلت ستارة النافذة في عربتها وهي ترتجف من الغيظ.

وأوقف عزيز عربته بعد قليل بجانب عربة شفيق ، ثم نزل وحياه تحية المشتاق، فلم يسع هذا الا رد التحية ، وان ثقلت عليه مقابلته. ثم اقترب منه عزيز وقال : « لقد سررت جدا لائتلاف قلبيكما، ولا أحب ان أثقل عليكما فاسمح لي بالذهاب».

فشكره شفيق وسأله عما جاء به الى هناك، فقال : « خرجت للنزهة فأسعدني الحظ بلقياكما مصادفة». ثم ودعه وعاد الى عربته فانصرف بها.

■

لم يكن مجيء عزيز مصادفة ، ولكنه كان منذ ليلة الأوبرا يراقب حركات فدوى بمساعدة العجوز دليلة ، فلما عرف انها خرجت للنزهة في ذلك اليوم تواطأ مع ذلك الفارس الملثم على ان يعترض طريقها لإرهابها، ثم يأتي هو لنصرتها وانقاذها، معتقدا انها بذلك تحبه محبتها لشفيق وقد فعل ذلك وهو لا يعلم شيئا عن الموعد المضروب بين الحبيبين. وكان حين اعترض شريكه المجرم عربة فدوى مختبئا، فلما رأى شفيقا مقبلا لم يجرؤ على الظهور الا بعد انصراف المركبتين معا الى قصر النزهة ، حيث لحق بهما.

وعاد بخيت متهللا الى فدوى وشفيق ، وأخبرهما بأن ليس في القصر أحد من الحرس والخدم اذ خرجوا مع الجند الى نظارة المالية لطلب المتأخر من رواتبهم.

فقالت فدوى : « ومتى كان هذا ؟». وتهيأت للنزول فأخذ بخيت بيدها وأنزلها، ثم توجهوا جميعا الى الحديقة ، وقال شفيق : « ان الجنود المصريين اتحدوا وبعثوا من ينوب عنهم الى سراي المالية يطلبون رواتبهم فأمسكوا برئيس النظار ، ثم انتهى الأمر بتفرقهم حالما شاهدوا الخديو اسماعيل مطلا من احدى نوافذ السراي، وخاطبهم بكلمات قليلة ».

فقالت فدوى : « اني لم أسمع بحدوث مثل هذا من قبل».

فقال : « ان هذا لم يحدث الا بعد ان صارت الحكومة المصرية شوروية».

وكانا يتحدثان وهما يسيران الهوينى نحو الحديقة ، وبخيت يتقدمها ، فلما دخلاها وجداها حديقة غناء ملتفة الأشجار زاهية الأزهار يانعة الثمار ، يتخللها ممرات مفروشة بالرمال والحصباء، والماء موزع في جنباتها، وفيها مرتفع صناعي يزيدها روعة وبهجة. فسارا اليه ولم يدهشهما شيء من تلك المناظر الآخذة بمجامع النفوس لاشتغال فؤاديهما بما هو اسمى من ذلك.

ونظر شفيق الى فدوى فاذا هي قد زادها خجل الحب بهاء وجمالا، فأبرقت عيناها والتمع وجهها ولازمتها رجفة الحب فأطرقت ولم تقو على رفع نظرها اليه.

ولم يكن هو أقل منها اضطرابا . وبقيا على ذلك حينا والحياء يمنع فدوى من النظر الى وجهه او مخاطبته، فأخذت تشغل نفسها بتلك المناظر لعلها تسكن شيئا من هياج عواطفها واضطرابها لأنها لم تعتد مجالسة الشبان ولا مخاطبتهم ولاسيما

على انفراد ، اذ قد عاشت عيشة التحجب المتبعة عند عائلات الأتراك فإن أباها وان لم يكن منهم كان يتخلق بأخلاقهم ويحافظ على عادتهم، فشبت فدوى على ذلك.

وما زالا على هذا الاضطراب حتى وصلا الى المرتفع وقد كساه الزهر وظلله الشجر فجلسا على مقعدين متقابلين يفصلهما ممر الحديقة الضيق ، ولبثا زمنا لا يجرؤان على افتتاح الحديث ويكتفيان بالنظرات ، ثم تجلدت فدوى وقالت : «لقد سرنا ما قرأناه في الصحف عن سبقك أقرانك ونيلك انعام الخديو».

فأطرق شفيق خجلا ولم يجب بكلمة . فقالت : « ولكن بعض الناس ساءهم هذا الامر لما يترتب عليه من التغرب في انحاء اعمالك الأوربية بضع سنين». قالت هذا وخنقتها العبرات ولكنها تجلدت وأحبت اتمام الحديث فلم تستطع .

وكان شفيق مطرقا ينكت الأرض بغصن جاف في يده اخفاء لعواطفه، فلما سمع منها ذلك أدرك مرادها فقال : « الحق يا عزيزتي اني لم اسر بهذا الإنعام تمام السرور لأنه سيبعدني عن كل الناس فأنت عندي كل الناس ، ولكن عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، ولعلي اصيب في سفري هذا ما يجعلني أقرب الى استحقاقك مما أنا الآن».

فقالت : «انك في الحقيقة فوق ما أستحق وأكثر مما أتمنى ، فنحن لا نقدر الناس بأموالهم وانما بصفاء جوهرهم وصحة أدبهم وشهامتهم ، وأنت قد زينك الله بصفات شريفة لو تفرقت في جماعة لكفتهم، فإنك غني بالمواهب التي يختص الله بها من يشاء من عباده».

فالتفت اليها شفيق وقد تلعثم لسانه وقال : « ان الله اختصك بكمال الذات والصفات فلا يحيط بوصفك محيط ، لصفاء عنصرك وسمو ادبك».

فظهر اضطرابها جليا مع محاولتها اخفاءه وأخذت تحاول تخفيفه متظاهرة بالنظر الى جمال الحديقة ، ثم أطرقت قليلا ورفعت بصرها الى شفيق وقالت : «اني عاجزة عن شكر عواطفك الشريفة التي لا أستحقها» . ثم سألته الى أي بلاد أوربا يعتزم السفر ، فقال : « الى باريس في فرنسا ، أو لندن في انجلترا غالبا».

فقالت : « هل رضيت السيدة والدتك بذلك ؟».

قال : « نعم ولكن رضاءها ليس الا اذعانا لحكم الضرورة ». فتنهدت

وهي مطرقة تنثر وردة بأناملها اللطيفة ، ثم قالت : « اني لأعجب كيف يمكنها البقاء لحظة بعيدة عنك ولكن . . . ». وسكتت كأنها تريد كتمان شيء ، فبادرها شفيق مستفهما عما سكتت عنه فقالت : « ولكن قد يمكنها الصبر على بعدها لأنها والدتك وأنت ولدها».

فقال مندهشا : « ماذا تعنين بذلك يا فدوى ؟».

قالت : « لا أعني شيئا وانما . . ». وسكتت.

فقال : « قولي يا عزيزتي ولا تكتمي عني شيئا».

فهمت بأن تجيبه فخنقتها العبرات وكأنها المقصودة بقول الشاعر :

ترنو اليه بعين الظبي مجهشة   وتمسح الطل فوق الخد بالعنم

فازداد خفق فؤاده ونظر اليها مشجعا وأخذ يطيب خاطرها ويخفف عنها حتى سكنت عواطفها قليلا فمسحت دموعها ورمته بسهم من لحظها كاد يقضي عليه، فقرب مقعده منها وخاطبها بألطف عبارة قائلا : « ألا تريدين ان تخبريني بما عنيته بقولك ؟».

قالت : «ان والدتك تستطيع الاصطبار على بعدك لأنها لا تخاف ان تتخذ لك والدة سواها !».

وكانت تخاطبه وهي تكاد تذوب خجلا حتى لم تقدر ان ترفع نظرها اليه، فأدرك ما ترمي اليه وقال : « لعلي أولى منك بخشية المستقبل اذ قد يتهيأ لك من هو أفضل كثيرا مني».

فقالت وقد ظهرت على وجهها أمارات البشر : « قلت لك اننا لا نقدر الناس الا بما فيهم من الصفات الادبية . والآن ما دمت مسافرا الى اوربا الا تترك لنا تذكارا منك ؟».

قال : « ألا يكفي اني سأترك قلبي ؟».

قالت : « ذلك أكثر مما أستحق، وانما أريد منك تذكارا حسيا يبقى لدي شاهدا على ما دار بيننا».

فقال وقد بلغ منه الهيام مبلغا عظيما : « ماذا أعطيك وقد وهبتك قلبي وكل عواطفي ؟». ثم أمسك بيدها وقال : « أعاهدك يا فدوى بالشرف والمحبة الطاهرة التي بيننا على ان أحافظ على حبك حتى الموت ، ولا أرضى

بدلا منك قط ». فأجابته ولسانها يتلعثم قائلة : « وما تذكارك عندي ؟».
فقال : « ليس لدي الآن ما يليق بمقامك الا هذا ..». ثم قدم لها زرا من أزرار قميصه الذهبية منقوشا عليه الحرف الاول من اسمه فتأملته معجبة به، ثم مدت يدها الى دبوس ذهبي مرصع كان في صدرها ونزعته وقدمته له قائلة : «خذ هذا الدبوس لتذكرني كلما نظرت اليه».

فأخذه شفيق وتأمله فاذا هو على هيئة المرساة ، متقن الصنع لطيف الهيئة

فتبسم ونظر اليها شاكرا وقال : « ان هذه المرساة رمز للأمل ، واؤكد لك ان أملك في محله».

دار بينهما كل ذلك الحديث وكل منهما يحاذر أن يمس ثوب الآخر اجلالا للطهارة والعفة ، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فنهضا يتمشيان في الحديقة والشمس ترمقهما مودعة من خلال الاشجار والأزهار .

وفيما هما في ذلك جاء بخيت مسرعا وقال لشفيق : « ودع سيدتي واخرج من الباب الآخر للحديقة ، وقد قلت لسائق عربتك ان يذهب وينتظرك هناك لأن سيدي آت ، فلعل احدا وشى بكما اليه». فودع شفيق فدوى على عجل وخرج مسرعا من الباب الآخر صيانة لشرفها ، وعرج من هناك حتى جاء الشارع على مسافة من الحديقة فاذا بالعربة تنتظره فركب وعاد الى منزله .

اما فدوى فتكدرت لهذه المفاجأة ، ولكنها تجلدت واستمرت سائرة في الحديقة كمن يتمتع بمناظر الطبيعة الجميلة وبخيت بجانبها ثم سارا يريدان الخروج فاذا بأبيها يقابلهما داخلا . فسارعت اليه وقبلت يديه .

وكان عزيز بعد ان تركهما قد أخذ يبحث عن وسيلة للايقاع بشفيق، فلاح له ان يذهب الى أبيها ويغريه بالمجيء الى قصر النزهة ، فذهب اليه وحادثه في موضوعات مختلفة ثم قال له : « هل لك أن نسير معا للنزهة في شارع شبرا ؟».

فقال الباشا : « لا بأس ، ولا سيما ان ابنتي ذهبت الى هناك فعسى ان نلتقي بها ونعود معا».

وفي طريقهما الى هناك أخذ عزيز يحدثه عن فدوى ووجوب مراعاتها كلما خرجت، وقصده ان يثبت كلامه لدى الباشا حين يرى شفيقا وفدوى معا في الحديقة.

ولما اقتربت بهما العربة من هناك خاف عزيز ان تظهر مكيدته لشفيق ، فتظاهر امام الباشا بأنه نسي شيئا في المنزل واستأذنه في العودة لاحضاره ثم اللحاق به في قصر النزهة ، فأذن له

وواصل هو سيره حتى دخل الحديقة ، ولكنه لم يجد فيها مع فدوى غير بخيت . ولما سألته عن سبب مجيئه قص عليها الخبر ولكنه لم يذكر اسم عزيز، فأدركت انه هو بعينه وقد فعل ذلك ليوقع بها وبشفيق، لكنها تجاهلت . ولبثوا ساعة هناك حتى يئس الباشا من عودة عزيز، فركبوا عربة فدوى وعادوا الى منزلهم.

أما شفيق فلما وصل الى البيت كاشف والدته بما كان من أمره مع فدوى ، وأوصاها بكتمانه وبأن تجتمع بها أثناء غيابه ما استطاعت وتذكرها بوعدها له لئلا يضعف البعد عهدها فوعدته بذلك.

■

بعد بضعة اسابيع صدر الأمر بسفر شفيق الى فرنسا لدرس المحاماة فيها تنفيذا لرغبة الخديو، فتقدم أبوه الى الجناب العالي راجيا ان يسمح بارساله الى انجلترا لأنه يعرف الانجليزية جيدا فاذن له في ذلك.

ولما علم عزيز بقرب سفر شفيق اشتد به الحسد وحدثته نفسه بأن يفتك به او يسعى الى اهلاكه بمكيدة أثناء سفره الى لندن ، ثم استقر رأيه على ان يكون ذلك في الاسكندرية ، حيث يكون شفيق بعيدا عن أهله وأحبائه، فلما كانت ليلة سفره ذهب اليه وأمضى عنده معظم الليل مظهرا له عظيم اسفه على فراقه، ثم أخبره بأنه سيشيعه في الغد الى الاسكندرية ، فشكره شفيق وعد ذلك منه منة كبرى.

وفي صباح اليوم التالي توجه عزيز الى المحطة حيث بقي مع شفيق في القطار بعد ان ودعه أبوه وبعض أقاربه وعادوا ، وقضيا معظم الطريق في الأحاديث عن مصر وفدوى ، وعزيز يحاول اظهار رغبته في اقتران شفيق بها، ويعده بالسعي لاتمام ذلك ما استطاع.

ولما وصل بهما القطار الى الاسكندرية ساعة الغروب ، ركبا عربة الى فندق على شاطىء البحر، ولم يكن شفيق قد زار الاسكندرية من قبل فلما استراحا وغيرا ثيابهما قال له عزيز : «هلم بنا الى المدينة لنقضي بعض الليل في مشاهدة اسواقها وبهجتها وزخرفها ترويحا للنفس من وعثاء السفر». فأجابه الى ذلك وذهبا حتى أتيا ساحة المنشية، فذهش شفيق لما شاهد من عظمة المدينة وسعة شوارعها واشراقها بالأنوار الغازية التي جعلت ليلها نهارا ، كما أعجب بحوانيتها المضاءة بالأنوار ومبانيها الشاهقة المزخرفة.

والمنشية مستطيلة الشكل، فيها كثير من شجر اللبخ، وفي منتصفها تمثال هائل لمحمد علي الكبير يقوم على قاعدة مرتفعة من الرخام الأبيض ، ويمثله على هيئة فارس شيخ وقور

متسع الصدر كبير اللحية على رأسه عمامة كبيرة، وقد ارتدى الجبة والقفطان وامتطى جوادا فارها، وتلقد سيفا محنيا وقد وضع يده اليمنى على فخذه الأيمن وكأنه ينظر الى جهة المدينة ليتأمل بهاءها ورونقها. فأعجب شفيق بهذا التمثال، وأخذ يطيل التأمل في صنعه، ويتحدث مع عزيز عن مآثر صاحبه، وعزيز يتظاهر بالاصغاء في حين انه يفكر في تدبير مكيدة يهلكه بها. فلما رآه مأخوذاً بمناظر الاسكندرية أخذ يمتدحها له ويطنب في ذكر محاسنها، ثم خطر له ان يذهب به الى حان ويسقيه خمراً حتى يغيب صوابه فيفتك به، ولكنه تذكر ان شفيقا لا يتعاطى شيئاً من أنواع المسكر، وأنه يستنكف من مجالسة كل من يتعاطاها.

وفيما هما يتمشيان على رصيف المنشية مرا بمقهى ازدحم بالجالسين فيه، وهم يشربون شراب عرق السوس، وكان صاحب المقهى شيخا ذا عمامة بيضاء، شد وسطه فوق جلبابة بحزام حتى لا يتعثر بأذياله لكثرة حركته، واسمه محمود. وكان عزيز يعرفه من قبل فقال لشفيق: «هلم بنا نشرب شيئا من منقوع عرق السوس فإنه رطب منعش». فمضى معه شفيق حتى دخلا المقهى، ولم يحصلا على ما طلباه من المشروب الا بعد طول الانتظار لكثرة الازدحام.

ولاحظ شفيق أثناء جلوسهما هناك ان رجلا في ثياب غريبة الزي كان يقتفي أثرهما عن بعد، فلما دخلا المقهى لحق بهما وجلس على مقربة منهما وطلب من الشيخ محمود كوبا من ذلك المشروب فجيء به اليه. وكان الجالسون هناك قد تحلقوا جماعات وأخذوا يتسامرون، وفيهم الافرنج والأتراك والوطنيون وغيرهم من مختلف الأجناس والملل، بعضهم يتحدثون عن البورصة والأسعار والأرباح، وآخرون يتحدثون في السياسة أو عن الملاهي. وجميعهم فرحون لا تسمع منهم الا ضحكا وقهقهة.

ولم يشأ شفيق ان يكاشف عزيزا بما خالجه من الريبة في أمر ذلك الرجل لئلا يظن به الجبن. فلما غادرا المقهى وأخذا طريقهما الى الفندق الذي اختاره للنزول به الى ان تأتي الباخرة برنديرزي بعد ثلاثة أيام، لاحظ شفيق ان ذلك الرجل يتبعهما الى الفندق فقلق وأوجس خيفة، لكنه تجلد وحمل ذلك على محمل الاتفاق لسلامة نيته. فلما انفردا في غرفتهما طلبا العشاء وأمضيا بعض الوقت في الحديث، ثم أوى كل منهما الى فراشه.

وكانت هذه الليلة أول ليلة يقضيها شفيق بعيدا عن والديه، فتواردت عليه الأفكار وتاه في عالم تصوراته، فجفاه الكرى حتى لم يطق الاضطجاع فنهض وجلس على كرسي بجانب السرير، ثم خرج الى غرفة الاستقبال لعله يجد شيئا من الجرائد، فوجد صحيفة الأهرام فأتى بها وأقبل على قراءتها حتى انتهى الى تلغراف قرأ فيه ان الباخرة برنديزي تصل الى الاسكندرية

صباح اليوم التالي قبل موعدها المحدد ، وستبرح الميناء عند الظهيرة ! فاهتز لتلك المصادفة تخلصا من الانتظار على غير جدوى، ونهض لوقته وشرع في ترتيب ثيابه وأوراقه بحقائبه، وكان بينها دبوس فدوى فخفق فؤاده لمرآه وترقرقت عيناه بالدموع ، فقبل الدبوس وحفظه في مأمن ، ثم نظر الى الساعة فاذا هي الثانية بعد نصف الليل فاضطجع على فراشه وبقي كذلك حتى الصباح .

وجاء عزيز وهو لا يدري شيئا من أمر أرقه، وكان هو قد أمضى ليله في اعداد المكيدة لاهلاكه ، فلما وجده مرتديا ثياب السفر سأله عن السبب، فأطلعه شفيق على الجريدة، فسقط في يد عزيز ، وخشي حبوط مسعاه فأخذ يحبب اليه الاقامة بالاسكندرية أياما، ثم السفر بعد ذلك في باخرة أخرى فقال شفيق : «لو أنني خيرت لاخترت الاقامة بهذه المدينة الجميلة ولكنني الآن على أهبة سفر طويل ومشقة عظيمة وخير البر عاجله».

فلعن عزيز في سره الساعة التي وصلت فيها الباخرة برنديزي لأنها أحبطت كل مساعيه، وكظم غيظه ثم أخذ يساعد شفيقا في التأهب ، حتى حان موعد رحيل الباخرة فركبا قاربا للوصول اليها، وركب معهما رجل عرف شفيق انه هو الرجل الذي تعقبهما بالأمس ، فسكت على مضض وفي عزمه ان يعنى بالوقوف على حقيقة امره اذا كان مسافرا معه على تلك الباخرة.

ولم يمض الا قليل ، ثم اقلعت الباخرة بشفيق ، وعاد الرجل مع عزيز في القارب نفسه فبقي شفيق يحدق في الشاطىء بعينيه حتى حال الافق بينهما .

وبقي بضعة أيام وهو لا يكاد يختلط بأحد، الى ان وصلت الباخرة الى مرسيليا، فنزل اليها مع النازلين ، ومن هناك ركب القطار الى باريس، ثم الى ميناء الهافر على خليج المانش حيث ركب سفينة بخارية شقت به الخليج حتى وصلت الى دوفر ، فركب منها القطار الى لندن.

الثورة العرابية

رجع عزيز الى القاهرة بخفي حنين نادبا سوء حظه وفشل مكيدته لعرقلة مساعي شفيق أو الحط من قدره في عيني فدوى ، وكان قد ازداد تعلقا بحبها، وأصبح في شر حال ، وكأنه المعني بقول من قال:

تـريـدين قتـلي لا تـريـدين غيـره ولست أرى قصـدا سـواك اريـد

وقال لنفسه أخيرا : « لا داعي لليأس ، وما زال في الوقت متسع لعمل ما يقربني من فدوى ، ويبغض شفيقا اليها» .

وفي مساء الاربعاء ٢٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٧٩ كان الناس في القاهرة يتحدثون باضطراب السياسة المصرية ، لحقد دولتي انجلترا وفرنسا على الخديو ، وتوقع الكثيرون تنازله عن العرش . فتمنى عزيز ان يتم ذلك، ظنا منه أن هذا يترتب عليه الغاء الأمر الصادر بارسال شفيق الى لندن. ومضى يستطلع الأخبار ، ثم توجه الى منزل فدوى ليقف على رأي أبيها في تلك الاشاعات، فلما استقر به الجلوس معه قال: « هل سمع سعادة الباشا بالاشاعات التي ترددت عن توقع تنازل الخديو، بمساعي انجلترا وفرنسا ؟» . فقال الباشا : «ان ابراهيم باشا المرسل من قبل أفندينا الى الاستانة في هذا الشأن، قد أرسل برقيات أكد فيها رضا الباب العالي عن الخديو، ولكن ممثلي الدولتين ما زالا ينصحان له بأن يتنازل عن العرش لابنه توفيق» .

فقال عزيز : « وما سبب حقد الدولتين عليه الى هذا الحد ؟» .

قال : « لا يخفى عليك يا ولدي ان الخديو اسماعيل انفق الأموال الطائلة لتحسين حال البلاد وجعلها أشبه بالبلاد الأوروبية . وقد اضطره ذلك الى الاستدانة من هاتين الدولتين وغيرهما، فبلغ مقدار الدين على الخزانة المصرية نحوا من تسعين مليون جنيه . ولما رأت الدول ذلك خافت الا يفي دخل الحكومة المصرية بهذا الدين، أو أن يكون في حساباتها ما يريب، فبعثت كل من انجلترا وفرنسا رقيبا من قبلها لذلك، ولكن التدخل لم يقف عند هذا الحد، بل جاوزه الى جميع أعمال الحكومة بدعوى ان لاجراءات الحكومة أثرا في ميزانية البلاد وفي اداء دينها تبعا لذلك . وهكذا صارت حكومة الخديو شوروية، اي يسيرها مجلس النظار

، بعد ان كان الخديو مطلق التصرف، ثم أدخلوا في هذا المجلس ناظرين اجنبيين : أحدهما انجليزي ، والآخر فرنسي . وحدث ان قرر مجلس النظار رفت بعض الجنود اقتصادا للنفقات ، فثار المرفوتون وجاء ضباطهم الى نظارة المالية وأمسكوا برئيس النظار وناظر المالية، وتهددوهما، ولولا ظهور الخديو اذ ذاك في شرفة المجلس لما أبقوا عليهما، فان كلمة واحدة منه أوقفتهم عند حدهم . وأخيرا رأى الخديو ان وجود الناظرين الاجنبيين يضيق عليه الخناق فعزلهما وولى ناظرين وطنيين، فغضبت الدولتان وحقدتا عليه، وسعتا ضده في الأستانة وما زالتا تسعيان حتى الآن، والناس بين يائس وآمل».

وغادر عزيز قصر الباشا بعد انتهاء السهرة ونفسه تحدثه بأن تغيير الخديو لا بد منه، وبأن بعثة شفيق ستلغى تبعا لذلك، فيقل شأنه في نظر فدوى وأبيها، ويخلو له هو الطريق.

وفي الصباح التالي استيقظ عزيز على أصوات المدافع مؤذنة بتنازل الخديو اسماعيل وتولية ابنه محمد توفيق مكانه، فلبث ينتظر ما يكون.

■

كان بين ضباط الجيش المصري حينذاك ضابط يقال له أحمد عرابي، وطني النزعة، ينتمي الى احد القرى في مديرية الشرقية، وقد التحق بخدمة الجيش على عهد المغفور له سعيد باشا، ومازال يترقى حتى بلغ في عهد الخديو توفيق رتبة الأمير الاي.

وكان في الجيش المصري بعض الضباط الشراكسة ، يستأثرون غالبا بالرتب العليا اما المصريون فقلما يتجاوزون رتبة الأمير الاي، كما كانوا حتى عهد الخديو اسماعيل قلما يباح لهم التظاهر بما يخامر قلوبهم من الأسف لاستئثار الأجانب دونهم بتلك الرتب. فلما تولى الخديو توفيق ، رأى الضباط المصريون أنه أكثر حبا لمصلحتهم، وقد انعم عليهم بالرتب العالية، فشرعوا في اظهار مكنونات قلوبهم نحو الأجانب ، وطالبوا باعطائهم حقوقهم كاملة ، ولم يكن الخديو توفيق يكره ذلك ، ولكن بعض كبار الضباط المصريين لم يطيقوا صبرا، وسرعان ما تحول الأمر الى ثورة عمت البلاد.

وكان رؤساء الثورة ثلاثة ضباط هم : أحمد عرابي ، وعلي فهمي، وعبد العال ، فتعاهدوا على السعي للاستئثار بادارة أمور بلادهم بأنفسهم، واستئصال الاجانب من خدمة الحكومة ولا سيما الجيش . وألفوا لذلك جمعيات سرية، مؤيدين في ذلك من جميع الضباط المصريين. ونظرا الى رغبة الخديو توفيق في تعزيز جانب المصريين كان يجيب مطالب هؤلاء الضباط فيما يرى فيه مصلحتهم، فبدأ بعزل ناظر الجهادية وكان شركسيا، ثم تطرقوا الى

التدخل فيما وراء ذلك، يؤيدهم ناظر الجهادية الجديد الذي خلف الشركسي، وكان وطنيا متحالفا مع عرابي وجماعته سرا، فأخذوا يعقدون الاجتماعات السرية في منزل عرابي عاملين على تحقيق ذلك.

وكانت جريدة اللطائف لسان الحزب الوطني في ذلك الحين فنشرت كلمة قالت فيها: «سيحتفل في ٢١ جمادي الاولى سنة ١٢٩٨ (٢٠ ابريل سنة ١٨٨١) في سراي قصر النيل احتفالا كبيرا، لما أنعم به الجناب العالي من زيادة رواتب الضباط والعساكر وتعديل القوانين العسكرية». فلما قرأ عزيز هذا الخبر اعتزم ان يحضر ذلك الاحتفال، ليرى ما يتم فيه.

ولما تم عقد الاجتماع بحضور النظار ورؤساء الجيش نهض ناظر الجهادية وخطب ممتدحا انعام الخديو، ثم قام بعده رجل قصير القامة خفيف شعر اللحية سريع الحركة فألقى خطبة مماثلة. وسأل عزيز من يكون هذا الخطيب فقيل له: انه رئيس مجلس النظار. وأخيرا وقف للخطابة رجل في لباس الضباط، ربع القامة ضخم العضلات اسمر اللون، فاستقبله الحاضرون بالتصفيق وعلت الضوضاء ثم انقطعت حين شرع في الكلام، فبدأ بشكر الخديو والنظار، ثم أفاض في حث المصريين على محبة الوطن والعمل على رفع شأنه. والحاضرون يعقبون على كل فقرة من خطبته مصفقين فرحين.

فعجب عزيز من بلاغة الخطيب وشدة الاحتفاء به، وسأل ضابطا أمامه عمن يكون، فضحك الضابط ساخرا وقال: «كيف لا تعلم من هو هذا البطل. ؟ انه أحمد عرابي بك رجل الوطن».

وكان عزيز قد سمع عنه ولم يره الا في تلك الساعة فلم يسعه الا السكوت حتى انتهى الاجتماع وارفض الجمهور، فخرج وكله اعجاب، بالنفوذ العسكري وارتفاع مقام رجال الجيش، وود لو يلتحق به ليكتسب الرفعة والمجد، ولا سيما بعد القانون الجديد الذي منح الوطنيين في الجيش امتيازات عدة. هذا الى استطاعته بفضل غناه ان يترقى في مدة قصيرة فيصير ضابطا كبيرا، وينال حظوة في عيني فدوى وأبيها.

٣

أخذ عزيز يسعى في سبيل تحقيق أمنيته، بقراءة القوانين العسكرية وحضور الاستعراضات، ومتابعة أخبار الجيش، الى ان كانت حادثة عابدين يوم اجتمع الجند في ساحة القصر بمدافعهم وأسلحتهم ومعهم ضباطهم فكان في مقدمة من توجهوا الى مشاهدة الحادث من الوطنيين والاجانب، فراعه منظر هذا الاجتماع العسكري الرهيب، وأخذ ينقل

بصره بينه وبين الجموع التي احتشدت خلف الجند في الساحة وفي نوافذ البيوت المجاورة وفوق أسطحها.

ثم جاءت مركبة الخديو يتقدمها الياوران فوقفت أمام شرفة (السلاملك) بالقصر، والتفت الخديو الى عرابي الذي كان في مقدمة الضباط على جواده فأشار اليه أن يقترب ، فتقدم على جواده وسيفه ما زال مشهرا في يده ، والضباط حوله للمحافظة عليه. فأمره الخديو باغماد سيفه وبأن يترجل ويتقدم وحده ففعل ثم خاطبه الخديو بقوله : «ألم أك سيدك ومولاك ؟». فقال : «نعم».

قال : « ألست أنا الذي رقيتك الى رتبة أمير الاى ؟». فقال : «نعم ولكن بعد ترقية نحو أربعمائة».

قال : «وما سبب حضورك بالجيش الى هنا ؟». فقال : «لنيل مطالب عادلة ».

قال : «وما هذه المطالب ؟». . . فقال : «اسقاط الوزارة، وتأليف مجلس النواب، وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على قانون العسكرية الجديد، وعزل شيخ الاسلام».

فقال الخديو : «كل هذه الطلبات ليست من اختصاص العسكرية : ». ثم مضى الى داخل القصر ، وجاء قنصل الانجليز فقال لعرابي : «ان اسقاط الوزارة من اختصاص الخديو ، وطلب تأليف مجلس النواب من اختصاص الأمة، ولا وجه لزيادة عدد الجيش لأن البلاد في طمأنينة، فضلا عن ان مالية البلاد لا تساعد على ذلك أما عزل شيخ الاسلام فلا يكون الا لأسباب».

فقال عرابي : «اعلم يا حضرة القنصل ان مطالبي هي مطالب أهل البلاد، وقد أنابوني في تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم أخوتهم وأولادهم، وهم القوة التي ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالمنفعة . وأعلم أننا لا نتنازل عن هذه المطالب ، ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ ».

فقال القنصل : «اذن انت تريد تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، الأمر الذي يخشى منه ضياع بلادكم ؟».

فقال عرابي : « ذلك لا يكون ، ومن ذا الذي ينازعنا في اصلاح داخليتنا ؟ اننا نقاومه أشد المقاومة الى ان نفنى عن آخرنا !».

قال : « وأين لك القوة التي ستقاوم بها ؟».

قال : «في وسعي ان أحشد في زمن يسير مليونا من العساكر طوع ارادتي».

قال : « وماذا تفعل اذا لم تنل ما طلبت ؟».

قال : «أقول كلمة اخرى».
قال : «ما هي هذه الكلمة ؟». قال : «لا أقولها الا عند القنوط».
ثم انقطعت المخابرات بين الفريقين نحوا من ثلاث ساعات، تداول القناصل والخديو والنظار أثناءها داخل القصر ، وعزيز يفكر فيها سمعه من حديث عرابي وما شهد من جرأته ، فاذا بالأمر قد استقر على اجابة مطالب عرابي وتنفيذها تدريجيا ، لأن بعضها يحتاج الى مخابرة الباب العالي . ولكن عرابي أصر على اقالة الوزارة قبل انصرافه فأقيلت، ودعي شريف باشا لتأليف وزارة جديدة فقبل بعد ان نفذ ما اشترطه من تعهد رؤ ساء الحزب العسكري بالامتثال لأوامره ، وتقديم عمد البلاد ضمانة على ذلك .
وزادت رغبة عزيز في الالتحاق بالجيش بعد هذا الذي رآه من نفوذ كلمة رجاله . ولكنه رغب في استطلاع رأي فدوى قبل ذلك فذهب الى دليلة العجوز وأطلعها على مراده فقالت : « سأستطلع رأيها وأنبئك بما يكون».
وفي اليوم التالي ذهبت العجوز الى قصر الباشا كعادتها وأخذت تعرض على النسوة فيه ما حملته من السلع ، وبينهن فدوى بلباس البيت الذي زادتها بساطته جمالا وروعة، فمدت العجوز يدها وأخرجت مشطا مصنوعا من سن السمك وقدمته لها قائلة : « هل لك أن تتنازلي يا سيدتي بقبول هذه الهدية الحقيرة لكي تتشرف بمس هذا الشعر الجميل ؟ . وما جرأني على تقديمها الا ما يقال من أن الهدية على مقدار مهديها» . فأعجبت فدوى بأدب الدلالة العجوز ولطفها، وقبلته مرضاة لها. ثم أخذت مع بقية نساء القصر في مشاهدة السلع المعروضة ، وبعد شراء ما انتقينه منها جلسن يتبادلن مختلف الأحاديث حتى استطرقن الى حادثة عابدين فقالت دليلة الدلالة : « ان رجال الجهادية هم زهرة البلاد ويدها اليمنى ، وبهم تفتخر الأمة ، وعليهم حماية الحصون ودفع أعداء الوطن».
فقالت فدوى : « نعم ان رجال الجندية لكذلك ولا سيما اذا كانوا رجالا في الحرب كما هم في السلم . والجندية على العموم من أشرف الأعمال وأحقها بالاجلال».
فقالت دليلة «اذن هل تفضلين يا سيدتي الضابط في الجيش ، أم التاجر ؟ أم العالم ؟». وتبسمت فأدركت فدوى انها تريد محادثتها في شؤ ون الخطبة والزواج ، وعلت وجهها حمرة الحياء فأطرقت ولم تجب.
واكتفت العجوز بما سمعته من ثنائها على رجال الجندية ، فعجلت في الانصراف وعادت الى منزلها حيث كان عزيز في انتظارها هناك، فقالت له : «أبشر يا ولدي لقد قضي الأمر».
قال : « وكيف كان ذلك ؟». قالت : « انها تحب رجال الجندية فافعل ما بدا لك».
فتنهد وقال : « هذا ما كنت أرجوه يا خالتي ». ثم ودعها وخرج معتزما الذهاب الى منزل

فدوى لاستطلاع رأي أبيها أيضا ، مؤملا ان يجده مثلها محبا للجندية.

فلما دخل عليه رآه منقبض النفس بادي القلق ، فابتدره قائلا : « هل حضرتم سعادتكم يوم عابدين وشاهدتم ماكان من فوز رجال الجيش؟ . فقدحبب هذا إلي ان التحق بالجيش، فما قولكم؟ » .

قال : « ان الخدمة العسكرية من أشرف الخدمات ، ولكنها محفوفة بالأخطار ».

فقال : « لا خطر فيها الا أيام الحرب».

قال : « نعم ولكنك غني عن الخدمة بما عندك من الثروة وافرض ان خطر الحرب وجد وأنت في الجيش فماذا تفعل ؟».

فتظاهر عزيز بالبسالة وقال: «في هذه الحالة اقوم مغتبطا بما يفرضه واجبي، ووطنيتي . ولا بد دون الشهد من ابر النحل» . فانطلت خدعته على الباشا وقال له : «اذا كان لا بد لك من ذلك ، فإني أعطيك كتاب توصية لعرابي بك فهو صديقي ، ليتوسط لك لدى ناظر الجهادية فيقلدك منصب ضابط».

ثم كتب له خطابا الى عرابي أوصاه فيه بأن يشمله برعايته ومعاونته . فأخذ عزيز الخطاب وودع الباشا وخرج قاصدا الى منزل عرابي. فلما بلغه وجده غاصا بالناس بين منتظر أمرا، ومتظلم من أمر، وهم يدخلون اليه الواحد بعد الآخر فيقابل كلا بحسب مقامه ويجتهد في ارضاء الجميع .

ولما جاء دور عزيز دخل على عرابي وقد زرر ثوبه تأدبا، فقابله بالبشاشة واللطف وبعد تلاوة الكتاب قال له : « لعلك عزيز أفندي جندب ابن المرحوم السيد جندب المشهور ؟» .

قال : «نعم » . فأجلسه بجانبه وقال له : « ما حملك على الانتظام في صفوف الجندية وأنت في غنى عنها ؟» .

قال : « رغبتي في خدمة الوطن».

فأعجب به عرابي وقال : « بورك فيك من محب وفي لمصر ، مع ان أباك مغربي الاصل على ما أعلم».

قال عزيز : « ان جدي رحمه الله جاء من بلاد المغرب للخدمة في جيش محمد علي باشا، فأقام بمصر واتخذها وطنا له ».

فقال عرابي : « حسنا، ولكن من كان في مثل مركزك المالي، لا بد من أن يتعهد بتقديم المساعدة المالية للجهادية عند الاقتضاء خدمة لمصلحة البلاد».

فبغت عزيز وندم على مسعاه في ذلك السبيل ، ولكن لم يسعه الا الموافقة مرغما فقال :

«انا وما أملك تحت امر سعادتكم».

فشكره عرابي وأطنب في الثناء على شهامته ثم قال : « ان مثلك يستحق التشرف بخدمة العسكرية». وأمر فكتب له خطابا الى ناظر الجهادية يوصيه به خيرا، فأخذ عزيز الخطاب ومضى به الى الناظر فوعده بانجاز طلبه ، وبعد حين عين في رتبة ملازم وألبس الحلة العسكرية ذات الشريطة الصفراء القصبية على الكمين، وبدأ التدرب على الحركات العسكرية .

مذبحة الاسكندرية

كانت فدوى بعد سفر شفيق مشغولة البال دائما ، لا تفتأ تفكر فيه ، ولا ترتاح الا الى الحديث عنه أو استطلاع أحواله ، فكانت تجتمع أحيانا بوالدته دون ان تكشف لها عما في قلبها نحوه من الحب. ولكن حالها لم يكن ليخفى على والدة شفيق فكانت تتلقاها بالحفاوة والترحيب، وتحدثها عن نجاحه وما ذكرت الجرائد الوطنية عنه.

ففي أحد الايام خرجت فدوى بعربتها الى شارع العباسية للترويح عن النفس بالمرور ببيت الحبيب. وفيما العربة سائرة بها وبخيت أمامها، لحظت من النافذة فارسا يحاذي جواده مركبتها، فأشارت الى بخيت أن يأمر السائق بسرعة المسير، غير ان ذلك الفارس الطفيلي ما زال سائرا بمحاذاة المركبة بعد ذلك، فاغتاظت فدوى وتحدثت في ذلك مع بخيت فأمر السائق بوقف العربة، حتى يمضي ذلك الفارس الثقيل. ولكن هذا ما كاد يسبق العربة ويلاحظ وقوفها حتى كر راجعا الى ان حاذى المركبة او كاد، وتبينت فدوى انه من رجال الجهادية، بما عليه من لباس الضباط، وكان قد أمال طربوشه على جبينه حتى يظهر شعره المصقول، وحاول النظر الى فدوى فأنزلت ستارة النافذة داخل العربة.

فلما رأى بخيت تماديه وشراسته، تفرس فيه فاذا هو عزيز، فصاح به قائلا : « ماذا تريد يا أفندي ؟».

فقال عزيز : « أريد ان احيي حضرة السيدة».

قال : « ان العادة لم تجر بمثل هذا، والأليق بك ان تمضي لشأنك وتحفظ شرف الحلة التي أنت لابسها !».

فقال عزيز : « تأدب يا هذا واعلم انك تخاطب ضابطا محترما». قال هذا بصوت عال لتسمعه فدوى ظنا منه أنها اذا علمت مكانته ترفع الستارة وتنظر اليه.

فقال له بخيت : « قد دلنا لباسك على مقامك، ولكن رجال الحرب لا يصقلون شعورهم ، ولا يتطيبون تطيب المخدرات، ثم هم لا يعترضون المارة هكذا ولولا احترام كسوة العسكرية التي عليك لأذقتك ما لم تذقه عمرك !».

فانتفض عزيز من الغضب والخجل وقال : « ليس من مقامي مخاطبة العبيد، وانما أنا أخاطب سيدتك».

فقال بخيت : « احفظ مقامك وامض لشأنك فهذا خير لك».

قال : « قل لسيدتك ان شفيقا لا يزال غرا من تلامذة المدارس، فليس هو أولى بالمحادثة من ضابط في الجيش».

فاشتد غضب بخيت وصاح به محتدا قائلا : « اخسأ يا وغد ، ولئن لم تذهب لأذيقنك الوبال» . قال ذلك وأمر السائق بالعودة بالعربة الى البيت، فعاد بها. وبقي عزيز واقفا بجواده وقد ذهل لحبوط مسعاه، فلما عاد الى صوابه، أخذ يعزي نفسه بأن فدوى لم تخاطبه حذرا من بخيت لئلا يطلع أباها على ذلك.

والواقع انها عنفت بخيتا لاطالة الكلام معه الى ذلك الحد، فقال لها : «يا سيدتي انه ثقيل يؤمل ما يقصر عن نيله ولا يراه حتى في الحلم، وقد خيل اليه ان لباس الجندية يرفع قدره في عيون الناس، ولم يفطن الى ان المرء بأصغريه لا ببرديه، ولكن مهلا يا سيدتي فسأريه ما لم يره عمره ، ولولا حرمة وجودك لأذقته الهوان».

فقالت : « ألا تعلم ان لرجال الجيش هذه الايام شأنا عظيما، ولهم الأمر والنهي ، وأخشى اذا علم أبي بالأمر ان يلومنا، فالاعراض التام عن ذلك الوقح كان أفضل وأسلم» .

فقال : « لا ريب ان نيل رجال الجيش ما طلبوه يوم حادثة عابدين يعد فوزا تاما، ولكن عرابي أخذ بعد سفره بآلايه الى رأس الوادي يبث مبادئه بين مشايخ عربان الشرقية وغيرهم، ويحثهم على الاتحاد والتحالف . وهذا ما اوجب حذر حكومتي انجلترا وفرنسا. وقد علمت انهما بعثتا الى الخديو تبديان استعدادهما للمساعدة في كل ما يؤول الى تأييد سلطة سموه» .

فقالت فدوى : « وما الذي أوجب تدخل هاتين الدولتين في مصالح البلاد ؟» .

قال : « لأن لهما على هذه الديار دينا، فمحافظتهما عليها محافظة على حقوقهما » .

ولما وصلت بهما العربة الى المنزل أوصت فدوى بخيتا بأن يكتم الأمر عن أبيها، فقال : «سمعا وطاعة » .

■

عاد عزيز بصفقة المغبون، وقد ازدادت هواجسه وأضناه حبه لفدوى وحسده لشفيق، فرأى ان يسعى للانتقام من بخيت حتى لا يكون عثرة في سبيل تقربه من فدوى . وفيما هو يفكر في ذلك صدرت له الأوامر بالشخوص مع ضباط آخرين الى الاسكندرية ، فصعب عليه

الأمر وأحس بثقل الخدمة العسكرية التي لا مرد لأوامرها ، فسار الى الاسكندرية تاركا قلبه في العاصمة.

ووقع الخلاف على أثر ذلك بين مجلس النواب والوزارة ، ثم اشتد الخلاف حتى أدى الى استقالة الوزارة وتأليف وزارة جديدة برياسة محمود سامي البارودي، وتقلد احمد عرابي نظارة الجهادية فيها مع منحه رتبة لواء فصار باشا منذ ذلك الحين. وبهذا ارتفعت منزلة الحزب العسكري واستفحل أمره.

ثم أجريت حركة تنقلات في الآلايات، فجاء الآلاي الذي فيه عزيز الى القاهرة ، وسعى عرابي في ترقية بعض الضباط فكان من بينهم عزيز ورقي الى رتبة يوزباشي ، ولا تسل عن اعجابه بهذه الترقية ولا سيما بعد ان استفحل امر العسكريين وأصبحت أزمة الاحكام في أيديهم ، مما أدى الى خوف الدول الأوروبية على مصالحها بمصر فاتحدت دولتا انجلترا وفرنسا وقدمتا للحكومة الخديوية مذكرة طلبتا فيها اقالة الوزارة وابعاد عرابي ورفقائه زعماء الثورة مع حفظ نياشينهم ورتبهم وألقابهم.

ولم تجد الوزارة بد من الاستقالة، وكانت دوارع الدولتين راسية حينئذ في ميناء الاسكندرية، فاستقالت في يوم ٢٦ مايو (ايار) سنة ١٨٨٢ . ولكن العرابيين لم يقبلوا هذا وما لبثوا قليلا حتى أعادوا الوزارة بالقوة، وأخذ عرابي باشا يتابع ارسال المنشورات الى قناصل الدول الاجنبية، ضامنا حفظ السلام.

وفي ١١ يونيو (حزيران) من تلك السنة قامت في الاسكندرية فتنة قتل فيها كثير من الوطنيين والافرنج ، فصدرت الاوامر من الحكومات الاجنبية الى رعاياها بالمهاجرة من مصر حالا ، في مراكب أعدت لذلك على نفقة تلك الحكومات . وكان سرور عزيز بهذه المهاجرة عظيمًا، لأن والدي شفيق كانا من رعايا انجلترا، فلا بد من سفرهما، وبذلك تضطر فدوى الى الاذعان لرغبته.

وذهلت فدوى حين علمت بأمر تلك المنشورات ، وخلت الى بخيت وقالت له : « ان والدي شفيق مسافران من هذه الديار، فما تكون حالي اذا اضطر البعاد شفيقا الى اهمال العلائق والمودة بيننا ؟» . ثم تنهدت من كبد حرى وتأوهت، وأخذت في البكاء.

فلما شاهد بخيت هذا المنظر لم يتمالك عن البكاء، لكنه تجلد وقال لها : « خففي من اضطرابك يا سيدتي فليس الأمر على ما تتوهمين، وان شفيقا قد خصه الله بأرق العواطف ، ومن كان مثله لا ينكث عهدا .

فلما سمعت اسم محبوبها رفعت رأسها كأنها هبت من رقاد عميق ، وخجلت من نفسها ، فقال لها بخيت : « أين تظنين والدي شفيق يتوجهان ؟» . فقالت : « قد فهمت من والدته

انها سيذهبان الى لندن لأن شفيقا هناك».

فصمت بخيت مفكرا ثم قال : « وما المانع يا سيدتي من أن تكتبي اليه مبدية رغبتك في الاطلاع على أحواله ، فعسى ان تكون النتيجة على خلاف ما تظنين، وما الامر الا لله ؟ ؟».

فقالت : «أخشى ان تحمله كتابتي اليه على المخاطرة بنفسه فيجيء الى هنا والبلاد على ما تعلم من الهياج والاضطراب، فأكون قد جنيت عليه وعلى نفسي».

فقال : « أرى الافضل ان تستطلعي رأى والدته». فاستصوبت رأيه وأرسلته اليها لتحديد وقت يمكنها الاجتماع بها فيه .

ولما اجتمعا ودار الحديث بينهما، أدركت سعدى غرضها من الاجتماع، فذكرت لها ان الاسطولين الانجليزي والفرنسي في ميناء الاسكندرية منذ أيام، ولكنهما لا يعملان شيئا الا اذا رأيا خطرا على حياة الخديو، فحينئذ يستخدمان لحمايته القوة ولو كلفهما ذلك هدم ثغر الاسكندرة وخراب مصر كلها. ثم تطرقت من ذلك الى حديث السفر فقالت : « أما نحن فقد عزمنا على المهاجرة خوفا من الخطر على حياتنا وان لم نكن من الأجانب ، والأغلب ان نسافر الى لندن حيث نشاهد شفيقا».

فأجهشت فدوى بالبكاء وأطرقت حياء وظهر اضطرابها جليا رغم محاولتها اخفاءه فضمتها سعدى الى صدرها وقبلتها والدموع ملء عينيها ، ثم قالت لها : «خففي عنك يا ابنتي ، ان الذي فرقكما قادر على ان يجمعكما في وقت قريب».

فقالت لها فدوى : « اعذريني يا سيدتي لما ظهر من اضطرابي فقد غلبت على عواطفي ».

وفيما هما في ذلك جاء بخيت ملهوفا وقال : « ان سيدي الباشا قد بعث الينا بالاسراع الى البيت ، لأنه تلقى من عرابي باشا أمرا بالذهاب الى الاسكندرية حالا ، ولا بد له قبل ذهابه من مشاهدتك ».

فنهضت فدوى وودعت سعدى ، فسألتها هذه : « هل لديك رسالة او خبر لشفيق ؟ ».

فخجلت فدوى أول الأمر، ثم تجلدت وقالت : « بلغيه ما تشائين من السلام ، واذا أردت ان تكتبي الى حين وصولك فليكن الكتاب باسم بخيت وهو يوصله الي». ثم ودعتها ثانية وخرجت محاولة اخفاء اضطرابها لئلا يلاحظ عليها أبوها شيئا ، على انها لم تستطع وما وصلت الى البيت حتى لحظ أبوها أثر الدمع في عينيها وسألها عن السبب فقالت له : « لما علمت أمر سفرك في هذا الاضطراب السياسي لم استطع امساك الدمع». فطيب خاطرها وهون عليها وقال لها : « اني مسافر اذعانا لأمر رئيس الحزب العسكري ، وليس في الأمر ما يدعو الى غير الاطمئنان ، وسأوصي بخيتا بكما وبكل من في القصر». ثم ودع الجميع وسافر الى

الاسكندرية بالقطار.

وكان سبب سفره ان عزيزا بعد تحققه قرب مهاجرة والدي شفيق، أخذ يسعى في ابعاده هو أيضا ليخلو له الجو ويرغم فدوى على قبول طلبه ، فوشى به الى عرابي زاعما ان هناك خطرا في بقائه بالقاهرة بعد سفر الجند الى الاسكندرية لشدة رغبته في مخابرة الاجانب، فأصدر اليه عرابي أمرا بأن يسير الى الاسكندرية في أسرع وقت!

وتمكن عزيز من البقاء بعد ذلك في القاهرة لعله يحصل على فدوى أثناء الانقلاب السياسي . وكانت هذه قد كاشفت بخيتا بأنها تخشى اعتداء بعض الجنود على المنزل بدسيسة من عزيز ، فلم يستبعد ذلك ولكنه أكد لها انه غير ممكن ليدخل الى قلبها الاطمئنان.

■

جلست فدوى في غرفتها في ذات يوم من أيام شهر يولو (تموز) ١٨٨٢ تفكر فيما هي فيه، وكانت والدتها في غرفة أخرى مشغولة ببعض الشؤون ، فسمعت فدوى قرع جرس الدار، ثم جاءها أحد الخدم يقول : « ان دليلة الدلالة بالباب». فأذنت في ادخالها، ثم رحبت بها وأجلستها، وأخذت تتفرج على ما معها من السلع ، ثم دار الحديث حول شؤون مختلفة الى أن قالت دليلة : « ان جنودنا سيغلبون جنود الفرنجة، لأن البوارج لا تزال في مياه الاسكندرية تنتظر عقد المؤتمر في الاستانة، ولكن مولانا السلطان غير راض بعقده ».

فقالت فدوى : « وماذا تظنين ان تكون نتيجة هذه الأعمال ؟».

قالت : «النتيجة ان تتحرر البلاد من العنصر الأجنبي فتبقى مصالح الحكومة في أيدي أبناء الوطن، وسيتم كل ذلك بهمة الجهادية المصرية التي ألبستنا المجد والفخر فنطلب الى الله ان يؤيدها بالنصر ويكلل أعمالها بالنجاح».

فقالت فدوى : « كل شيء بيد الله». قالت هذا وعادت الى تقليب ما أمامها من السلع

فأخرجت الدلالة العجوز من جيبها علبة صغيرة فتحتها فاذا فيها خاتم من الذهب ، وقدمته لها ووضعته في بنصرها بدعوى تجربة اتساعه، فلما تأملته فدوى لمحت على فصه نقشا فقرأته فاذا فيه «تذكار عزيز». فنزعته حالا من يدها وقد احمر وجهها وبدت عليها علائم الكدر، ثم رمت به اليها قائلة : « خذي خاتمك وأقصري».

فقهقهت دليلة وقالت مظهرة المزاح : « ماذا أغضبك يا ابنتي ؟».

قالت: «لم يغضبني شيء ولكنني فهمت ان الخاتم ليس للبيع ولكنه تذكار ».

قالت : « وماذا يمنع ان تقبليه على انه تذكار ؟».

فقاطعتها فدوى قائلة : « اقصري يا دليلة، واعلمي ان مثلنا لا يقبل تذكارا من أبناء الأزقة، فخذي تذكارك وأرجعيه الى أهله !».

فنظرت اليها مستعطفة وقالت : « لا تحكمي يا سيدتي قبل معرفة القضية».

فقالت وقد أخذ التأثر منها مأخذا عظيما : « لا حاجة بي الى اطالة الكلام، فاذهبي من حيث أتيت ». ثم تركتها وتحولت عنها فخرجت العجوز لا تلوي على شيء.

وبعد قليل جاء بخيت فأطلعته فدوى على ما كان، فقال لها : « لا يزال هذا اللئيم على غيه فلعنة الله على دهر يستنسر فيه البغاث».

■

لبثت سعدى بعد انصراف فدوى تفكر في أمرها وفيما زينها الله به من رقة العواطف ودقة الاحساس وكمال الذات ولطيف الصفات . فازدادت محبة لها وتحققت سعادة ابنها اذا هو حصل عليها. ولم يكن زوجها ابراهيم قد اطلع على شيء من أمر فدوى وشفيق، فلما صدرت الأوامر بمهاجرة الرعايا الاجانب، أوصى سعدى بالتأهب للسفر الى مدينة لندن لمشاهدة شفيق، وشرعا في اعداد الأمتعة السهلة الحمل ووضعها في الصناديق لارسالها بالسكة الحديدية الى الاسكندرية، وفيما هما في ذلك وقع نظر سعدى على الصندوق المعهود فخفق قلبها وتاقت الى استطلاع ما فيه فقالت لزوجها : « اننا مسافرون على بركة الرحمن، ولا ندري ما نصيب في سفرنا هذا من خير أو شر، فأرغب اليك في ان تطلعني على حكاية هذا الصندوق».

فوجم ابراهيم ثم قال : « أما اطلاعك على تلك الحكاية فقد ذكرت لك انه لم يجيء ميقاته، ولكن . . ». وسكت مفكرا، ثم عاود الحديث فقال : « ولكنني من جهة اخرى أخاف ان أصاب بسوء في سفري هذا فينمحي خبر هذه الضفيرة من العالم اذ لا يعلم امرها الا انا فأمهلني ريثما أعود اليك». قال ذلك ودخل غرفته وأغلق بابها وامرأته تنتظره خارجا وهي لا تدري ماذا يفعل.

وبعد ساعة خرج مكفهر الوجه وفي يده ورقة مختومة فاقترب من سعدى وأمسك بيدها قائلا : « اقسمي لي بمحبة ولدنا الوحيد شفيق انك تحافظين على ما أقوله لك في شأن هذه الورقة». فلما أقسمت قال لها : « اليك هذه البطاقة المختومة على ألا تفضيها الا اذا أصابني ضر في سفرنا هذا او بعده، فعند ذلك تفضينها وتطلعين على ما فيها ، وأرغب اليك العمل بمقتضاها والحرص عليها».

فتناولتها وهي ترتجف تأثرا وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، ثم قالت : « لا أراني الله فيك مكروها». وجعلت البطاقة في جيبها ريثما تختار لها مكانا آخر أمينا تجعلها فيه. .

ومضى الليل وهما يعدان معدات السفر، وكان خادمهما أكثر اهتماما منهما لأنه اشتاق الى سيده شفيق ، وكان يحبه حبا مفرطا . وفيما هو يهيىء الأمتعة قال له ابراهيم : « هل أنت مسرور بالذهاب معنا يا أحمد ؟». فتأدب الخادم أمامه وقال : « كيف لا وأنا مشتاق الى رؤ ية سيدي شفيق ، ويعلم الله اني لا أنسى كرم اخلاقه ابد الدهر ، وقد شكرت الله لوجوده هذه المدة في بلاد الانجليز حرصا على حياته».

فقال ابراهيم : « أتعني انه نجا من مخالب الثورة العرابية ؟». قال : « كلا يا سيدي ، ان ذلك ليس محل خوفي، ولكنني كنت أخاف عليه من دسائس احد اصدقائه الذي رافقه الى الاسكندرية ». قال ذلك وهو يحرق اسنانه غيظا .

فقال ابراهيم : « ماذا تعني ومن هو صديقه هذا ؟».

قال : «هو عزيز الذي تعرفه ، ولقد كنت مشفقا على سيدي شفيق من كيده ومكره، فلما علمت بمرافقته اياه الى الاسكندرية لم يهدأ لي بال حتى رافقتهما متنكرا الى الاسكندرية ولم أرجع حتى ركب سيدي الباخرة على مرأى مني».

فعجب ابراهيم وقال : « انك كثير الوساوس يا أحمد، وما الذي نخشاه على شفيق من هذا الشاب هو أعز أصدقائه ؟».

قال : « ربما كنت غير مصيب ، ولكن قوة خفية دفعتني الى ذلك ».

قال ذلك وعاد الى ترتيب الامتعة وحزمها واستمر في ذلك طول الليل.

■

لبثت فدوى بعد سفر والدي شفيق على مثل الجمر وهي تنتظر كتابا من سعدى . وبعد ثلاثة أسابيع أخذ بخيت كتابا باسمه ففضه فاذا طيه آخر باسم فدوى فلما تناولته اختلج قلبها فرحا وارتعشت يداها حتى لم تقو على فضه، فدخلت غرفتها وأغلقت بابها حذرا من الرقباء ، ثم قعدت على متكأ هناك وفضت الكتاب بيدين ترتعشان فرحا فاذا فيه :

«من لندن شارع أوكسفورد رقم ٥٦ . الى القاهرة في ٥ يوليو سنة ١٨٨٢

«عزيزتي فدوى . وعدتك بأن أكتب اليك حال وصولي الى هذه الديار بما يكون بعد مشاهدتي ولدي شفيقا ، ولكنني أخبرك وأنا أكاد أغيب عن الصواب بأنه قد مر علينا ثلاثة أيام من يوم وصولنا ونحن نبحث عنه في سائر انحاء انجلترا فلم نقف له على أثر، وقد أخبرنا صاحب النزل الذي كان ساكنا فيه بأنه خرج صباح يوم من أيام الاسبوع الماضي ولم يعد، وما

زلنا ساعين في البحث عنه ولم نظفر به. فاذا عرفت عنه شيئا فأبرقي الينا بذلك مشكورة بالعنوان المثبت في أعلى هذا الكتاب ، وسنخبرك بما يتم والسلام . . سعدى».

وما كادت فدوى تنتهي من قراءة الكتاب حتى خارت قواها وارتعدت فرائصها، ثم صرخت وانكبت على الأرض مغشيا عليها ، وسمع بخيت صوتها فسارع اليها وقد اذهله الأمر، وأخذ يرشها بالماء حتى أفاقت فأخذ يسألها السبب وهي لا تعي شيئا وتواصل نوحها فبحث عن الكتاب حتى رآه فلما اطلع عليه لم يتمالك عن البكاء، لكنه أخفي اضطرابه وأقبل عليها مخففا من اضطرابها وهي تصعد الزفرات فقال لها : « اصبري يا مولاتي عسى الله ان يمن بالفرج، واكتمي ما بك لئلا ينكشف الأمر فان سيدتي والدتك لا تلبث ان تأتي».

وأمرت فدوى بخيتا بأن يأتيها بدواة وقرطاس وجلست الى منضدة وكتبت لسعدى رداً على كتابها قالت فيه:

«من القاهرة في ١٢ يوليو سنة ١٨٨٢ . . الى لندن .

سيدتي المحترمة . . قرأت كتابك بدموع الحزن والأسف ، وقلب يتقلب على نار الجزع كأن الدهر قد ندم على ما وهب فحملني مالا استطيع عليه صبرا . أما أنت أيتها الوالدة فلا اذاقك الله لوعة ولا سقاك حسرة فان نبأ اختفاء شفيق اورثني من القلق ما لم أذق مثله ومن اللوعة مالم أكابده، فلا غرو اذا انفطر له قلبك وشح دمعك وتفتت كبدك وأنت والدته.

«على اني آملة في مراحم الله انه لا يخيب أمل والدة حنون وصديقة مخلصة ، وهو الذي اذن بما كان وله القدرة على جبر قلوبنا ، وحاشاه ان يأذن بهلاكنا حسرة ولهفا . على اني أسألك ان تعلميني تلغرافيا بما تعلمين عنه . واذا عرفت عنه شيئا فسأعلمك به. أعذريني على التمادي في مكاشفتك عواطفي اذ ليس لدي من أكاشفه سواك، وأختم الكتاب بتقبيل يديك ودمت سالمة لولدك . . فدوى».

وبعد ان أتمت قراءة الكتاب ختمته وعنونته وسلمته لبخيت ليضعه في صندوق البريد، وعادت الى البكاء فقال لها بخيت : « لا تقنطي من رحمة ربك، ان لندن مدينة عظيمة تحتوي على زهاء خمسة ملايين من الناس فلا بدع اذا اختفى شفيق عن أهله فيها بضعة ايام».

وبقيت فدوى قلقة الى ان كان الأصيل فقال لها بخيت : « هل لك يا سيدتي ان تركبي العربة للنزهة فتفرجي كربك».

فامتنعت اولا ثم رأت في ذلك اخفاء لقلقها وجزعها عن والدتها فأرسلت اليها بخيتا ليخبرها بذهابها للنزهة، ثم ركبت معه العربة وخرجا

ضرب الاسكندرية

مرت فدوى في عربتها بجهات الازبكية ، واذا الناس في هرج يتحدثون ويتساءلون ، والجنود يخطرون في الطرق مرحا ورؤ وسهم تكاد تدرك السحاب عجبا وتيها. فأوقف بخيت المركبة وسأل بعض المارة فقيل له : « ان بعض المهاجرين قدموا من الاسكندرية وأخبروا بأن الاسطول الانجليزي أطلق مدافعه على حصونها فهدمها ، ثم أنزل العساكر اليها واحتلها ففر العرابيون الى كفر الدوار ليتحصنوا ويستعدوا لملاقاة العدو بعد ان أحرقوا الاسكندرية أما جند القاهرة فلم يصدقوا الخبر لأن جرائدهم كاللطائف والمفيد كانت تذكره بعكس ذلك تشجيعا لهم. ولذلك كانوا يمرحون في الأسواق اعجابا بالنصر . ولا سيما الذين هاجروا من الاسكندرية فرارا من الانجليز فانهم كانوا يتحرشون بالمارة من الغرباء ويوقعون بهم كل سوء حتى صاروا لا يخرجون الى الاسواق الامتنكرين بزي الوطنيين حرصا على حياتهم ، وقد شكا أهل القاهرة لضابطها من تصرف جالية الاسكندرية فبذل قصارى الجهد لملافاة تلك الاعتداءات».

كما علم بخيت ان جماعة من المشايخ طافوا بالشوارع وعلى صدورهم مآزر ملونة وبأيديهم مباخر وهم يهتفون داعين لعرابي وحزبه وحبوط مساعي الافرنج.

فعاد بخيت الى سيدته بهذه الأنباء ، وأشار عليها بالعودة الى المنزل فقبلت مشورته ، وكانت والدتها في انتظارها فحيتها وأبلغتها ما سمعته عن ثورة الاسكندرية وهي ترتعد من الخوف ، فلما سمعت والدتها ذلك امتقع لونها ثم قالت : «ما العمل الآن ؟ . . طالما رغبت الى أبيك ان يهاجر من مصر الى دمشق الشام فنقيم بها عند أهلي حتى تسكن الاحوال هنا، ولكنه أبى الا البقاء وها قد ذهب الآن الى الاسكندرية فلا ندري ما حدث له !» . .

فقالت فدوى : « لعله تمنع خوفا على أملاكه من الضياع مدة هذه التقلبات ولا أخاله ظن الثورة تبلغ هذا المبلغ ، أما ذهابنا الى الشام فما أحلاه لو كان لأني شديدة الميل الى مشاهدة مسقط رأسك ومقر أهلك فقد بلغت هذا المبلغ من العمر ولم يسعدني الحظ برؤيتهم» .

فتنهدت والدتها وخنقتها العبرات ، فلما رأتها فدوى على هذه الحال اضطرب فؤادها

وظنت هذا التأثر خوفا على أبيها من مذبحة الاسكندرية فأخذت تهون عليها لتسكن اضطرابها، وأخبرتها بدخول الانجليز الى الاسكندرية وان الجميع في سلام وطمأنينة.

فرفعت نظرها الى فدوى وقالت : «لم يكن اضطرابي كله يا حبيبتي على والدك اذ لا خوف عليه باذن الله لأنه معروف من زعماء الثورة ، وانما تأوهي لذكرى حضرتني بتذكر الوطن».

فقالت : «ما هي هذه الذكرى يا والدتي».

فقالت : «تذكرت ضياع أخ لي منذ ١٩ سنة أثناء الحادثة المشؤومة التي حدثت في دمشق سنة ١٨٦٠ ولم أكن قد عرفت أباك بعد ».

فقالت : «كيف ذلك يا أماه ، وهل لم تقفوا على خبره بعد».

فقالت : «اعلمي يا ابنتي أنني من عائلة معروفة في دمشق ، وكان لي أخ غض الشباب حسنُ السيرة، شهم شجاع ، وكنا نعيش في بسطة ورغد في كنف والدينا، حتى كانت سنة ١٨٦٠ فجرت ثورة في دمشق قام فيها فتيان المسلمين على النصارى فحصلت مذبحة هائلة دارت فيها الدائرة على النصارى ، وكان خالك في جملة أولئك الفتيان فخرج صباح يوم في جملة من خرج للقتل والفتك ولم نعد نراه أو نسمع عنه شيئا واحسرتاه، وبقيت وحدي مع والديَّ جديك، وفي السنة التالية للمذبحة جاء أبوك الى دمشق فتعرف الى أبي وخطبني ثم تزوجنا وجئت معه الى مصر».

فلما سمعت فدوى كلام أمها عن فقد أخيها ، تذكرت فقد شفيق فلم تتمالك عن البكاء وقالت في نفسها : « ترى كيف حال والديه ؟». ثم خشيت ان تلحظ أمها شيئا من اضطرابها فسألتها قائلة : « كيف استطعت الصبر يا أماه على بعد والديك كل هذه المدة ، مع قصر المسافة بين مصر وسورية ، اذ ان قطعها لا يحتاج الى أكثر من أيام ؟».

فتأوهت والدتها من كبد حرى وقالت : « أطلب الى الله أن يمن علينا باللقاء لتري جديك العزيزين».

■

ما برح عزيز يزداد هياما بفدوى رغم الاهانة التي لحقته من بخيت في شارع العباسية وقد رأى ان ينتقم لنفسه فيستعمل ما لديه من الوسائط السافلة لاستطلاع اسرار خصمه ويتخذها سلاحا يذلله بها، فذهب الى المفتش الذي أقامه العرابيون في مصلحة البريد لمراقبة الرسائل المتبادلة بين أعيان البلاد ورجال حكومتها وأوصاه بأن يطلعه على كل كتاب يرسل الى شفيق أو أبويه في انجلترا ، بدعوى ان عرابي باشا يريد ذلك.

ثم أقام على فدوى رقباء لينبئوه متى خرجت من بيتها ، ليسعى الى اكتسابها بأية طريقة ، كما قصد الى صديقته دليلة وعرض عليها الأمر فقالت له : «لا أظن أن فدوى تفضل سواك، فأنت شاب غني بالمال والجاه وقد حصلت على أشرف مناصب الحكومة، ولكنك لا تعرف من أين تؤكل الكتف ، فالجنس اللطيف يؤخذ بالملاطفة وليس بالعنف، فطب نفسا يا ولدي وقر عينا، واذا هي أصرت على عنادها فأنا كفيلة بحصولك عليها بأية وسيلة».

فشكرها وقال : « لكني أخشى ان يصدر الأمر بسفري الى الاسكندرية بغتة، فماذا أصنع ؟».

قالت : «ان الاسكندرية الآن في خطر عظيم اذ تتهددها دوارع انجلترا وفرنسا، كما ان ذهابك اليها يعرقل مساعينا في شأن فدوى».

قال : «ما كل ما يتمنى المرء يدركه. وكنت قد عولت حين انتظامي في سلك العسكرية على أستعفي من الخدمة اذا شعرت باقتراب الخطر ، ولكني ارتقيت فيها وصرت عظيما في أعين الناس، والقوانين العسكرية لا تجيز الاستعفاء وقت الحرب فلا بد لي من البقاء ومتى انتهت مهمتي عدت الى القاهرة لاستئناف مساعينا».

■

ذهبت دليلة كعادتها صباح كل يوم الى بيت عزيز فرأته يخطر في غرفته ذهابا وايابا وفي يده رسالة ينظر اليها وسمات الاضطراب بادية على وجهه، فلما رآها رحب بها ثم مد اليها بتلك الرسالة وقال : «هل تعلمين ممن هذا الكتاب ؟. انه من فدوى الى والدة شفيق».

فسألته : « وماذا فيه ؟». قال : «فيه كل خير، فقد اختفى حبيبها شفيق من لندن ، ولم يعثر والده على أي أثر له !».

فقالت : «هذه خطوة كبيرة في سبيل تحقيق آمالنا، وحبذا لو أطلعت أباها على هذه الرسالة فيتحقق محبتك له وغيرتك على شرف ابنته فيزداد بك ثقة ، ومتى أظهرت له بعدئذ ميلك الى مصاهرته فانه لا يتردد في اجابة طلبك ، واذا فرضنا انها لم تقبل فانه يجبرها على القبول لأنه غيور كما تعلم ».

فلما سمع عزيز كلام العجوز اخذته هزة الطرب وقال : «لا أشك في ان الباشا يرغب كثيرا في مصاهرتي ، لكنني كنت أخشى ان ترفض هي فأرجع بصفقة المغبون، أما الآن وقد وقعت في الشرك فما أظن انها تستطيع رفض أمر أبيها ولا سيما بعد ان انكشف له ما بينها وبين شفيق».

وفيما هما في الحديث ، أتاه الخادم بكتاب ففضه فاذا هو من أركان حرب عرابي يطلبون

اليه فيه ان يعد عددا من الخيل ومقدارا من المؤ ونة مساعدة للجيش ويقدمها في أقرب وقت ، ثم يسافر الى الاسكندرية . فلما قرأ الكتاب تغيرت ملامح وجهه فقطب جبينه وجلس على متكأ أمامه معتمدا رأسه بيده كأنه وقع في أمر عظيم ، فسألته العجوز عما هناك فلم يجبها أولا ، ثم أعلمها بالامر ، فهونته عليه وقالت : «ان أوامر العسكرية لا مرد لها ولا سيما في مثل هذه الاحوال ، فسافر الى الاسكندرية واعتمد علي في مراقبة حركات فدوى واستجلاب رضاها» .

وفي اليوم التالي سافر عزيز قاصدا الاسكندرية فلما وصل الى كفر الدوار علم ان عرابي لا يلبث ان يأتيها بجنده من ضواحي الاسكندرية ليتحصن فيها ويستعد للدفاع ، فخاف ان يلتحم الجيشان هناك فيصيبه سوء وتبادر الى ذهنه ان هذا سيعود بالنفع على شفيق ان كان لا يزال حيا فسول له حسده ان يبحث عن مكان أبي فدوى ويرسل اليه كتابها الى ام شفيق ليهيج فيه عاطفة الانتقام ويعرقل مساعي شفيق ،وعلم بالبحث انه لا يزال في الاسكندرية ، ثم ورد امر من الخديو الى عرابي في كفر الدوار يستقدمه الى الاسكندرية ، ويأمره بالكف عن الاعمال الحربية وحشد الجند لأن الجنرال سيمور اميرالاي العمارة الانجليزية قد صرح باستعداده للجلاء عن الاسكندرية اذا تحقق وقف الاستعدادات الحربية. فسر عزيز بذلك لأنه يمكنه من السفر الى الاسكندرية ، ولكن عرابي لم يذعن لذلك الأمر وكتب الى وكيل الجهادية في القاهرة يخبره بما حدث ، فجمع هذا أعيان العاصمة ورجال حكومتها ، وبعد المفاوضة أقروا وجوب المثابرة على الاعمال الحربية وبعثوا لجنة مؤلفة من ستة مندوبين لمخاطبة الجناب العالي في ذلك فسارت اللجنة من القاهرة ومرت على عرابي في كفر الدوار لاخباره بمهمتها . فرأى عزيز ان يسافر معها الى الاسكندرية ولاسيما ان السكك الحديدية في مصر كانت بعد ضرب الاسكندرية لا تسير قطراتها الا بأمر العرابيين. واستطاع عزيز ان يحصل على الاذن له في ذلك.

ولما بلغ الاسكندرية ذهل لما حل بتلك المدينة العظيمة من الدمار على أثر الحريق الذي ذهب بأعظم مبانيها ، وأحال حي المنشية آكاما من الأتربة والأحجار . وكان الدخان لا يزال يتصاعد منها ، وحوانيتها العظيمة التي كانت ملأى بالأقمشة والملابس والحلى والمجوهرات ذهبت طعاما للنار والنهب ، فتعجب عزيز لهذا الانقلاب السريع وكان لا يشاهد أثناء مسيره من المارة الا أزواجا من الشرطة الانجليز ، بعضهم خيالة وبعضهم مشاة وكلهم بالسلاح الكامل يطوفون بالبلد حفظا للأمن .

واهتدى أخيرا الى المنزل الذي يسكنه الباشا ابو فدوى ، لكنه ما كاد يهم بالدخول حتى أحاط به نفر من الجنود الانجليز وأمسكوا به ، وكانوا آتين للقبض على الباشا لاتهامه بأنه من العصاة

المختبئين. فلما رأوا عزيزا بلباس الجند المصري ظنوه قادما بدسيسة من عرابي وأتباعه الى الباشا فقبضوا عليهما وساقوهما موثقين الى المحافظة بعد ان ضبطوا ما وجدوه معهما من الأوراق.

وفي الطريق لمح الباشا عزيزا فعرفه وظن انه الواشي به، أما عزيز فكان يلعن الساعة التي اتى فيها الاسكندرية ويندب سوء بخته وقد اكفهر لونه واصطكت ركبتاه وارتعدت فرائصه حتى كاد يقع من شدة الخوف . ولم يكن الباشا أقل منه اضطرابا.

وفيما هما سائران مع الجند في ساحة المنشية تصدى لهم ضابط انجليزي فأوقف الجند وتأمل الرجلين الموثقين. ثم خاطب الجند باللغة الانجليزية فتركوهما له وسلموه ملف الأوراق وانصرفوا، بينما أشار هو اليهما ان يتبعاه، فسارا معه حتى خرج بهما من شوارع البلدة الى جهة المسلة فأدخلهما بيتا في منعطف هناك وأغلق الباب. فتحقق لديهما دنو الأجل وأنهما لا محالة مسوقان الى القتل، على ان الضابط الانجليزي ما لبث ان رفع قبعته وخاطبهما باللغة العربية قائلا: «السلام عليكم». . . فذهل كلاهما لهذه المفاجأة وتأملاه فخيل اليهما أنهما يعرفانه، ثم عرفه عزيز فألقى بنفسه عليه قائلا: «شفيق .. أخي شفيق .. ما أسعد هذه المصادفة !».

وسأله الباشا: « أأنت مصري يا سيدي ؟». فقال: « نعم وقد رأيتكما في خطر فسعيت الى انقاذكما من مخالب الموت ». فقال الباشا: « اننا مدينان لك بحياتنا أيها الشهم الباسل، فاطلب الينا ما تشاء لعلنا نفي ببعض الواجب علينا ».

فقال شفيق: «حسبي مكافأة أن قدر لي الله انقاذكما من الموت أو الاهانة». ثم حل وثاقهما ودعاهما الى الاستراحة ودخل هو الى غرفة أخرى وفض ملف الورق ليرى مايحتويه فعثر بالكتاب المرسل من فدوى الى والدته، فما قرأه حتى هاجت عواطفه وأخذته رجفة الحب ولم يقو على الوقوف فقعد على مقعد هناك وهو يكاد يغيب عن الوجود، وصبر الى أن هدأت عواطفه فأرسل خادما عنده وامره ان يدعو الرجلين الى حضرته، فلما حضرا أكرمهما ثم سألهما ما سبب وجود هذا الكتاب بين أوراقهما. فتدارك عزيز الأمر وقال: « كان بين أوراقي أيها الحبيب ». واقترب منه وأشار اليه بأن يخلو اليه ليحدثه بالأمر، فلما انفردا بادأه عزيز بما فطر عليه من الدهاء والكذب قائلا: « ما برحت اذكر أيها العزيز ما تفرضه علي واجبات الصداقة والاخاء، وقد سعيت الى ما وعدتك به من تسهيل أمر اقترانك بفدوى، فبقيت مدة أتردد الى بيت الباشا حتى تسنى لي أن أساعد بخيتا في ايصال كتبها لك الى البريد سرا لأن أباها لم يكن يأذن لأحد في مخاطبتها غير بخيت، وهذا لم يجرؤ على ايصال الخطابات الى البريد خوفا من اطلاع الباشا عليها فينتقم منه. أما انا فلم أخاطب الباشا بشيء من مقاصدك خوفا من أنك

لا تريد ذلك . وهذا الكتاب أعطاني اياه بخيتا، لأوصله الى البريد، ولما كانت ادارته الآن بيد العرابيين، خشيت الا يرسلوا الكتاب فأبقيته معي على ان أضعه في أحد مكاتب البريد الافرنجية ضمانا لارساله . ومما رغبني في المجيء أيضا الى الاسكندرية ان الباشا مقيم بها فاغتنمت الفرصة ، وجئت الى بيته فما بلغته حتى قبض الجند علي وعليه».

فشكره شفيق وقبله قائلا : «لقد أوليتني فضلا عظيما أيها الصديق الحميم ، فأراني مقصرا عن تأدية الشكر لك. غير اني أرجو من لطفك وقد قلدتني هذه المنة ان تعلمني عن حالة فدوى ».

قال : «هي على ما تريد من الكمال والجمال». فأخذ شفيق كلامه مأخذ الاخلاص وظنه صادرا عن شعائر كريمة ومحبة صادقة ، ثم حول نظره الى حلة عزيز العسكرية وقال له : « أراك قد انتظمت في سلك الجندية».

فقص عزيز عليه حكاية انتظامه في الجيش وأدخل عليها ما شاء من الاكاذيب الملفقة ثم قال : « وأنت أراك لابسا ملابس الضباط الانجليز فكيف كان ذلك ؟».

فقال شفيق : « انني لما سمعت بالثورة العرابية وما أصاب الديار المصرية من اختلال الأحوال اشفقت على فدوى ان ينالها سوء، فتطوعت لمرافقة الحملة الانجليزية كي أشاهد الأهل والأحباب ولعلي استطيع خدمتهم ولا سيما فدوى ، لأن حبها شغل كل جوارحي . ولا يخفى عليك ان انتظامي في الجندية الانجليزية كان رابع المستحيلات لو لم استخدم وسائط كثيرة وأكون ممن يعرفون اللغتين العربية والانجليزية فأقوم أحيانا مقام المترجم ولي أمل عظيم اذا نلت حظوة في عيني رئيسي ان أحصل على التعيين النهائي في الجيش فأغفل مهنة المحاماة . فما رأيك يا صديقي وهل أكاشف الباشا الآن حقيقة حبي لفدوى أم . . ».

فقاطعه عزيز قائلا : « أرى الأفضل ان تترك هذا الامر لي فأدبره بما تقتضيه الحكمة».

فقال : « انني أشكر وفاءك، وأتقدم اليك اذا رجعت الى العاصمة قبلي ان تبلغها تحياتي وتخبرها بأني لا أزال على العهد وعما قليل أكون عندهاوسأكتب لها في الغد».

فقال عزيز : « ان خطابك قد لا يصل اليها بالبريد لاختلال الأحوال كما أخبرتك، فاذا شئت فاني أنقل خطابك اليها، وحبذا لو أعطيتني علامة منك».

فقال شفيق : «لدي علامة لا أحب ان يطلع عليها أحد غيرك لأنك عالم بما بيننا». ثم أخرج الدبوس من جيبه وأراه لعزيز قائلا : « هذا الدبوس أخذته منها في حديقة قصر النزهة تذكارا للحب والولاء فاذا أريته لها فهو خير علامة».

فأظهر عزيز استحسانه لهذا الاقتراح وشكر شفيقا على ثقته فيه.

ثم عادا الى الباشا ، ودفع شفيق الأوراق اليهما ونسي كتاب فدوى بينها وقال لهما : «اذا أردتما الذهاب فهاكما شعار الأمان المصطلح عليه هنا، وهو كلمة (السلام) . . ».

فخرج الاثنان ينفضان غبار الموت عن منكبيهما حتى أتيا مختبأ الباشا وعزيز يعجب لهذا الاتفاق العجيب ويقول لنفسه : « ألا يزال على قيد الحياةفوالله اذاالتحمت الحرب لأسعين الى قتله» .

■

أثنى الباشا على عزيز اعتقادا منه انه نجا من الموت بواسطته، فشمخ هذا بأنفه وقال : «ان ما صنعه معنا هذا الرجل انما هو مكافأة على ما لي عليه من الصنع الجميل لكنني سررت لاتفاق وجودك معي» .

ثم نظر الى الباشا كمن تذكر أمرا ذا بال وقال : « لدي أمر أرجو الا يثقل على مسامع سيدي الباشا، ولا أزيدكم علما بغيرتي على شرفكم وشرف كريمتكم، وقد اتيت من القاهرة لهذه الغاية ، ولعل سعادتك تذكر ليلة كنا في الملعب ولمحت لك بشيء عن وجوب العناية بأمر خروج فدوى ؟».

فقال الباشا: «نعم أذكر ذلك، فماذا عندك عن هذا الأمر ؟».

قال : « علمت ان أحد شبان العاصمة سعى الى اغوائها، وهي لصفاء جوهرها وسلامة نيتها وقعت في شركه حتى انها علقت بحبه، ولما ظهرت الثورة العرابية سافر ذلك الشاب الى بلاد الانجليز وشرع يكاتبها من هناك حتى كاتبته، وقد وقع في يدي كتاب منها الى والدته فجئت به اليك لتعلم صدق خدمتي».

ثم أحضر الاوراق وأخرج الكتاب المعهود وأعطاه اياه، ففضه وقرأه. وما أنتهى الى آخره حتى صار ينتفض من الغضب ويلعن ابنته ، فقاطعه عزيزوقال : « ان طيبة قلبها وحسن طويتها غشيا على بصرها ، ولا أكتمك أني معجب بخصالها الحميدة وقد تعلق قلبي بها لصفاء جوهرها وطيب عنصرها ، فهل تريد ان تجعلني في مكان ذلك الغر الخائن فأكون لها بعلا ولك صهرا وعند ذلك تكون لي بمثابة أبي، وتضع يدك على جميع أموالي ؟».

فاستبشر الباشا ببلوغ مناه فقال له على الفور : « انك لتفضلها كثيرا وهي لا تستحق ان تكون لك زوجة ، واني أعد قبولك الاقتران بها شرفا لها ولي».

فقال عزيز : «العفو يا سيدي ، انها مهما يكن من أمرها لم تخرج عن الأصل الكريم والعنصر الشريف، وأحسب نفسي سعيدا اذا عاهدتني على الاقتران بها».

فقال : «قد وهبتها لك زوجة فبورك لك فيها».

فابتهج عزيز لنجاح مسعاه ونسي بغضها له ونفورها منه وحبها شفيقا وائتلاف قلبيهما على حب صادق . ثم أتى الخادم يدعوهما للطعام فذهبا وجلسا الى المائدة فقال الباشا : « ما أخبار جنودكم ؟» . قال : «هم يتأهبون للدفاع في كفر الدوار».

فقال الباشا : «انكم لم تحسنوا التصرف في الأمر كما كان يجب ، ولقد كانت أعمال العرابيين أول الأمر حسنة المظاهر كريمة الغاية ، أما الآن فأخشى ان ينجلي الأمر عن ضرر يلحق بالبلاد » .

فقال عزيز : «اننا لم نطلب يا سعادة الباشا الا مطالب عادلة تعود على الوطن بالنفع العميم» .

قال : «هب ان جميع مطالبكم عادلة ، فكيف تريدون تنفيذها مرة واحدة في يوم واحد ؟ ان الله في عباده سنة لا محيد عنها ، والاصلاح مهما يكن بينا لا يمكن ادخاله الا تدريجا ، وفضلا عن هذا فقد بالغتم في عقوق احسان ولي النعم الذي لم يظهر لكم من أعماله منذ اعتلى أريكة الخديوية الا كل حسن نافع ، فانه رجل مخلص لرعيته محب لمصلحتهم ساهر على خيرهم ، فكيف تقولون انه ساع الى بيع الوطن ؟» .

فقال عزيز : «لم نقل ذلك الا ان رأيناه يقبل تأليب الدول الاجنبية علينا » .

فقال الباشا : « وماذا كان يصنع بعد ان ثارت القوة العسكرية عليه ؟ وهل يخفى عليكم ان للحكومات الأجنبية مصلحة مادية في هذه البلاد ، ومصلحته من مصلحتها ؟ ألا تذكر ما نقلته لي يوم حادثة عابدين عندما صرح قنصل انجلترا لعرابي بأن أصراره على عناده يحمل الدول الأجنبية على التدخل لاخماد الثورة ؟ . ولقد صرحت الدولة الانجليزية بعد دخولها الاسكندرية بأنها سترجع عنها حالما تتحقق وقف حشد الجيوش والمظاهرات الحربية» .

فقال عزيز : « ان هذه الدولة تريد الاستيلاء على هذه البلاد» . قال : «لا أظن ذلك صحيحا ، وقد علمت انها اقترحت ابعاد عرابي وصحبه قبل تفاقم الخطب مع بقاء رتبهم وألقابهم ورواتبهم فلم يقبل ، ولو قبل لانحلت المشكلة على أهون سبيل ، على انه اذا أصغى اليوم الى ما قيل له لانحلت المشكلة وعاد الجنود الانجليز من حيث أتوا ، اما اذا أصر على مراده فان ذلك يعود وبالا علينا» .

فقال عزيز : «لا يخفى على سعادتك اننا ندافع بأعمالنا هذه عن حقوق مولانا السلطان صاحب البلاد» .

قال : «ومن قال لك ذلك ؟ انك لا تلبث قليلا حتى تسمع بصدور المنشورات المؤذنة باعتبار عرابي عاصيا ، وها ان الجناب العالي قد صرح بعصيانه ونحن ليس لنا قدرة على

مدافعة القوة الانجليزية».

فقال عزيز : « اذا كان الجناب العالي يحب الرعية فلماذا يقبل نجدة الدول الاجنبية ؟».

قال الباشا : « قلت لك انه لا يمكنه غيرذلك ، ولا بد انه فعل هذا مضطرا ، فبمن كان يستنجد بعد ان انقلبت عليه القوة التي كان يستنجد بها وقت الحاجة ؟ وفيم كان حرقكم الاسكندرية ؟».

فقال عزيز : «ان حرقها لم يكن الا جريا على مقتضيات القوانين الحربية القاضية باتلاف ما يتحقق قرب وقوعه في يد العدو».

فقا الباشا : «ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا . وحينئذ تتأكد صدق مقالي. والآن ما الذي اعتزمت ان تفعله ؟».

قال : «سأعود مع الوفد العرابي الى كفر الدوار ، ومن هناك اغتنم الفرصة لارجع الى القاهرة».

فقال الباشا : «يلوح لي أن العرابيين طالما أصروا على الدفاع ومخالفة أوامر الخديو فالحرب لا تنتهي الا بعد زمن طويل ، فتطول اقامتك بكفر الدوار أو في غيرها من النقط الحربية . أما انا فلست آمن الخطر في مرافقة الحزب العسكري ولا سيما بعد ان أبعدوني من القاهرة ، ولهذا تراني قلقا على أهلي في مصر ، وأخشى ان ينال فدوى ووالدتها سوء وأنا بعيد عنهما .

فقال عزيز : «أما خوفك على أهلك فلا أخالفك فيه ، واذا شئت فاني أسعى في سرعة انتقالي الى القاهرة ، ومتى صرت هناك اتعهد لك بالمحافظة على راحتهن ما استطعت ، غير اني أخشى الا يثقن بي لعدم علمهن بموافقتك عليه ورغبتك فيه».

فقال الباشا : « اني أعطيك كتابا مني». وفي صباح الغد سلمه كتابا منه الى امرأته قال فيه :

«بعد السلام . قد اضطرني بقائي في الاسكندرية وتعذر حضوري الآن الى القاهرة وما أخشاه عليك وعلى ابنتنا فدوى اذا لا سمح الله حدث حادث في القاهرة أن أسأل ولدي عزيز افندي أن يكون عندكم مشجعا لكم وقائما بمهامكم ، لأنه من رجال الجيش ، وهو من أخص أحبائي . وقد تبرع كرما منه بالقيام بهذه المهمة . فينبغي أن تعتبريه كولدك واعتمدي عليه في كل مهمة ريثما أحضر . والسلام».

فتناول عزيز الكتاب ، ثم ودع الباشا وخرج الى حيث اجتمع برجال الوفد العرابي وعاد

معهم الى كفر الدوار ، ثم الى القاهرة.

■

ظلت فدوى أسبوعين تنتظر رد كتابها الى والدة شفيق ، فلما يئست من وصول الرد استولى عليها القلق والحزن حتى لم تستطع طعاما ولا شرابا فخارت قواها وهزل جسمها واكفهر لون وجهها الابيض وكادت تغور عيناها في وجهها. ولم يكن لها مؤنس في خلوتها الا البكاء . على ان خادمها الامين كان لا ينفك يعزيها ويخفف كربها باحياء آمالها في المستقبل. ودخل غرفتها مرة فاذا هي مكبة على البكاء. فدنا منها وقال يطيب خاطرها : «خففي عنك يا سيدتي ، ولا تيأسي فالله الذي جمع قلبيكما قادر على ان يجمع بينكما، وقد تعاهدتما على حب طاهر مقدس تعززه الشهامة والشرف وتصونه عزة النفس وكرم الأخلاق فلن يخيب الله لكما أملا».

وفيما هما في ذلك اتت خادمة تدعو فدوى الى مقابلة والدتها فقال لها بخيت: «اغسلي وجهك يا سيدتي وأخفي اضطرابك لئلا تلحظ شيئا منه سيدتي والدتك». فنهضت وهي لا تفتأ تائهة في أحزانها فغسلت وجهها، ثم شغلت نفسها بترتيب رياش غرفتها الى ان يزول اضطرابها . ولكن الخادمة عادت تقول لها : « ان سيدتي والدتك قلقة لتأخرك». فمضت معها الى والدتها في قاعة الاستقبال ، فلما كادت تبلغ القاعة رأت ضابطا من ضباط الجيش يهم بالخروج منها، فأجفلت لأنها كانت بثياب البيت وانزوت حياء الى ان خرج، ثم دخلت القاعة فسألتها والدتها عن سبب تأخرها فقالت : « كنت مضطربة البال بسبب القلق على أبي لوجوده تحت رحمة الاخطار في الاسكندرية».

فطيبت خاطرها وقالت : «ان الاسكندرية الآن أكثر أمنا من كل انحاء البلاد ، وقد جاءنا رجل من أخصاء أبيك وأعز أصدقائه بكتاب منه وكل اليه فيه النظر في أمرنا مخافة ان تمتد نيران الحرب الى هنا».

فأدركت فدوى ان ذلك الرجل هو الضابط الذي لمحته خارجا فارتعدت فرائصها لكنها أخفت اضطرابها ولم تقل شيئا فقالت والدتها : «يظهر لي ان هذا الشاب غيور همام فانه جاءنا توا قبل ان يذهب الى بيته ويغير أثوابه ويستريح من مشقة السفر، واني لمغتبطة بمجيئه واهتمامه بنا لأننا في حاجة الى من يحمي ذمارنا أثناء هذه التقلبات السياسية ، وهو ضابط في الجيش ففي استطاعته ان يقينا الأخطار باذن الله. وقد أتانا أيضا بكتاب من أبيك ينطوي على ثقته به وكفاءته للقيام بهذا الأمر ».

ودفعت الكتاب الى فدوى فتناولته وتلته الى أن أتت على آخره ثم ردته اليها صامتة، وقد

تأثرت كثيرا . وأحست بانقباض شديدة ، فعادت الى غرفتها حتى لا ينكشف أمرها لوالدتها . فلما شاهدها بخيت لحظ شيئا من اضطرابها، فقصت عليه الحكاية. فقال : « اذا لم يكن للمرء زاجر من نفسه فماذا تفيد الاهانة والتعنيف، على ان هذا الغر قد سعى بنفسه الى هلاكه ، سواء عندنا أقَرُبَ منا أم بعد فلن يجرؤ على مخاطبتك أو رؤ يتك ، فدعيه وشأنه الى ان يقضي الله بما يشاء».

فتأوهت فدوى من فؤ اد مكلوم وقالت : « ان قلبي يحدثني بأن مجيء هذا النذل ينذر بخطر قريب». قالت ذلك وألقت رأسها بين يديها ولم تتمالك عن البكاء فألقت بنفسها الى سريرها ، وبقيت طول يومها مشغولة الفكر بهذا الحادث الجديد.

■

في صباح اليوم التالي جاءت دليلة الى فدوى مستبشرة ضاحكة ، فلما رأتها فدوى تشاءمت من رؤ يتها وكرهت مخاطبتها، ولكن العجوز أقبلت عليها كأنها لم تبال نفورها منها وقالت : « أرى سيدتي لا تزال غاضبة علي وأنا لم آت الا ما فيه خيرها ولم أقصد الا ما أراده أبوها».

فقالت فدوى : « ما الذي تعنين بهذا القول ؟».

قالت : «اعني الخاتم الذي رميته في وجهي منذ بضعة أيام، فستلبسينه الآن بيد من لا يسعك مخالفته !».

فنظرت فدوى اليها شزرا وقالت : «من يستطيع ذلك ؟».

قالت : «اذا أذنت لي قصصت عليك الخبر . ان سيدي الباشا أباك قد سمح بخطبتك لمن أردت الباسك خاتمه فامتنعت وانتهرتني».

فنفرت فدوى وقالت لها: «هل بلغ بك الأمر الى أن تخاطبيني بمثل هذا؟ أقصري ولا تخرقي حرمة شيخوختك».

فقالت العجوز : «لا يصعب عليك سماعك كلامي يا سيدتي، فإني لم آت لأثير فيك ثائرة الغضب بل لأطلعك على حقيقة الأمر لعلي أقدر ان أعطف قلبك على ذلك الشاب الذي لا يريد من الدنيا الا رضاك».

فقالت فدوى : « لا أريد ان أسمع مثل هذا الكلام، ولا هو من شؤ ونك».

قالت: «اني لا آتيك الا بالخبر اليقين، وهذا كتاب يكشف لك حقيقة الأمر ويطلعك على طوية من تعلق قلبك بحبه ويريك الشراك التي نصبها لك فوقعت فيها لصفاء قلبك».

فاضطربت فدوى عند سماعها هذا الكلام وقالت : « ماذا ؟ . . ألا تقصرين عن معاودة مثل هذا الكلام ؟». فقالت : « اني أتحمل اهانتك بالصبر لأنني كنت فتاة مثلك لا أنقاد الا لما تصوره لي المخيلة، فخذي هذا الكتاب واقرئيه، وستعلمين بعدئذ صدق خدمتي لك».

فأخذت فدوى الكتاب وفضته ويداها ترتعشان فاذا فيه:

«حضرة السيدة فدوى».

ان الموجب الاول لارسال هذا الكتاب اليك هو عظم حبي لك، ولولا هذا الحب الذي بلغ في نفسي مبلغ الهيام، وما لقيته من اكرام أبيك الجليل القدر لأوقعتك في شر أعمالك، غير ان فؤادي المتيم بحبك لم يطاوعني على ذلك رغم انك تماديت في الجفاء والنفور ولم تبالي ما أظهرته لك من اللين والملاطفة، وكلما سعيت الى التقرب منك قابلت هذا باهانتي واذلالي، وأنا لم اقترف ذنبا يوجب هذا. غير اني أطلعت على ما نصبه لك بعضهم من الشراك، فاعلمي يا حبيبتي أن الذي قد وهبته قلبك غلام غر لا يعرف له حسبا ولا نسبا ما خلا والديه، فهل يليق بك وأنت ابنة أصل كريم ومجد وسؤدد ان تسلمي زمامك الى من لا يعرف جده ولا وطنه ولا هو من الناس في مقام يليق بك ويرضي أباك؟ . ان من كان هذا أصله لن يعرف لك قدراً ولا يقدر لك مقاما، ولولا ذلك ما أذاع امرك بين الناس وجعلك مضغة في افواه العامة . وما تزعمين انه عاهدك عليه سراً تتداوله الألسنة في الفنادق والمقاهي، خبر قصر النزهة، وخاصة حكاية الزر والدبوس. وقد كتمت كل ذلك عن أبيك صيانة لحرمتك فاعلمي الآن انك قد صرت خطيبة لي بأمر أبيك، فأذعني لهذا الأمر، ودعي الانقياد لذلك الغلام .واذا حاولت الاستمرار في غرورك فأنت الجانية على نفسك، ومالا ترضينه طوعاً ستنقادين له كرها .والسلام .. محبك عزيز».

فما أتمت فدوى قراءة الكتاب حتى خارت قواها واكفهر لون وجهها، فالتفتت الى دليلة وقالت لها : « لقد تمادى هذا الذميم تماديا ليس وراءه حد ولا نهاية . وأراك متممة لمبادئه الخسيسة فاخرجي من هذا البيت ولا تعودي اليه ابدا». فخرجت دليلة وبقيت فدوى في حيرة مما قرأته من أمر الدبوس والزر، ثم أطلعت بخيتا على الحكاية فقال لها: «لا تصدقي ما ذكره أو يذكره هذا الخائن، فانه كاذب مخادع».

اجتماع الحبيبين

بعد بضعة أيام عاد الباشا ابو فدوى الى القاهرة ، فسارع عزيز الى زيارته، فبالغ هذا في اكرامه وتبجيله فلما بلغ فدوى ذلك خافت سوء العقبى .

وبعد يومين خلا الباشا الى فدوى وفاتحها في أمر خطبتها لعزيز وأطنب في مدح صفاته ومروءته وأنه قد نجاه من الموت في الاسكندرية، الى أن قال لها : « وقد سبق مني القول له أن يكون لك بعلا».

فقالت : « لا أقدر ان أرفض أمرا لأبي العزيز، الا أنني أطلب اليك الامهال في هذه المسألة» .

فقال : «وما الفائدة من الامهال وقد عرفت هذا الشاب معرفة جيدة وهو الذي أنقذني من الموت على يد أحد اصحابه ، وفوق ذلك فهو رجل ذو ثروة واسعة».

فقالت : «ان البلاد الآن في خطر والأفكار مضطربة ، فيحسن التريث في الامر حتى تهدأ الاحوال».

قال : « ان ذلك لا يوجب الامهال ولا بد من اتمام الأمر فالشاب ممن يليقون بنا» .

فقالت : «ولكن . . ». وخنقتها العبرات فلم تستطع ان تتم عبارتها.

فبادرها قائلا : «لا حاجة بنا الى التردد، وقد قضي الامر ووعدت الرجل».

فلم تستطع فدوى جوابا لشدة تأثرها واشتغالها بالبكاء. فغضب الباشا منها وانتهرها قائلا : «ما معنى هذا البكاء ؟ لعلك تريدين خداعي بدموعك فلا حاجة بنا الى الاطالة فالغد موعد الاقتران» .

فترامت على يدي أبيها تقبيلها وتقول : « ارحم يا أبتاه ابنتك المسكينة واسمح لها بكلمة ». فأحس بالحنو الوالدي فانعطف قلبه نحوها وقال: «تكلمي ما بدا لك» . فقالت : «يا سيدي لا تظلم ابنتك ولا تحملها مالا تطيق».

فقال : « ماذا ؟ . . هل تجرؤ ين على مخالفة قولي ؟» .

قالت : « ما عودتك ان أخالف لك أمرا ، ولكن . . .».

فقاطعها وهو يتميز من الغضب قائلا : «كفى لا تزيدي، أتظنين أني لم أطلع على مكاتبتك لذلك الغر الشقي ؟».

فقاطعته قائلة : «مهلا يا أبي ولا تظلم ابنتك، فالموت أقرب إلي من قبول هذا الامر».

قال : «لا يعنيني هذا ولا يهمني الا اني وعدت ولا بد من انجاز وعدي . هل فهمت ؟».

فأوشكت فدوى ان تفقد صوابها من التأثر، لكنها تجلدت وقالت بصوت ضعيف ونغمة حزينة : «الموت أحب الي من هذا».

فانتهرها قائلا : «أهذه التربية يا فدوى ان تعقي أباك وتخالفي أمره ؟».

فقالت : «معاذ الله أن أعق أبي، وانما أطلب اليك الامهال ريثما تختبر من غشتك ظواهره».

فقال : «عبثا تحاولين، فغدا ميقات الاقتران قبلت أم لم تقبلي».

ثم تركها وخرج لا يلوي على شيء، وأخذ يهتم بمعدات عقد القران. وبقيت فدوى تتقلب على نار الأسى وتندب سوء بختها، فتراءى لها ان تستنجد بوالدتها، فلما ذهبت اليها وأطلعتها على الامر أجابتها قائلة : «خير لك الانصياع الى أمر أبيك فانه لا يسعى الا الى خيرك، ولا ينبغي ان تخالفيه فأنت أقل خبرة منه، وهو لا يمكن ان يريد بك سوءاً». فعادت فدوى الى غرفتها وقد عصر الأسى روحها وبقيت بياض النهار وسواد الليل تتقلب على مثل الجمر. فلما كان الصباح أعد الباشا معدات الفرح من مأكول ومشروب، وأعدت فدوى جرعة سامة أخفتها في ثيابها حتى اذا تحققت وقوع المقدور تجرعتهالتتخلص من حياة تسخر قلبها فيها لغير من تحبه وتهواه.

أما عزيز فأخذته هزة الطرب لما نال من الفوز، فدعا من استطاع من أصدقائه الى الاحتفال، ولبس أفخر ما لديه من اللباس، متناسيا حالة البلاد التي كانت في خطر عظيم، فالجنود المصريون كانوا في التل الكبير يتوقعون هجوم الانجليز عليهم، ولكنه ما كان يفكر الا في نفسه. ولو ساعدته الاحوال لجاء بالمغنين والمغنيات. وما حان العصر حتى امتلأت القاعات في قصر الباشا بالمدعوين، فلما تأكدت فدوى الأمر نالها اليأس فخلت الى نفسها في غرفتها تندب حظها، وأرسلت تستقدم بخيتا وأطلعته على ما اعتزمته من تجرع كأس الموت فقال لها : «كلا. لا تفعلي هذا يا سيدتي ولا تبيعي حياتك رخيصة ان هذا الخائن لن يبلغ ما يريد وأنا حي أرزق، فلا بد لي من ان أخطف روحه قبل ان يدركك ببصره، وبعد ذلك سواء عندي أعشت أم مت لأني أكون قد قمت بما يجب علي وخلصت نفسا طاهرة من العذاب والموت».

وكان بخيت قد أعد مسدسا ليطلقه على عزيز ثم على نفسه فيموت الاثنان فداء لفدوى .

■

وفيما كان بيت الباشا غاصا بالجماهير احتفالا بعقد الزفاف، جاءه خادم يقول : «ان في الباب جاويشا في يده كتاب لسعادتكم» . فخرج الباشا وتناول الكتاب فاذا هو مكتوب بايعاز عرابي باشا في قصر النيل يقول فيه : « ان امتلاك جنود العدو حصون التل الكبير يقضي على جميع أمراء العسكرية والملكية وأعيان البلاد بالحضور حالا الى سراي قصر النيل ، للمباحثة في الاحتياطات اللازمة لمنع العدو من دخول مدينة القاهرة . فيجب حضوركم حالا الى السراي المشار اليها . . . من قصر النيل يوم الاربعاء في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢».

فلما قرأ الباشا الكتاب تغير لون وجهه فأمر بإحضار العربة وركب، وركب معه من حضر من أعيان البلاد الى قصر النيل . فلما وصلوا رأى الباشا قاعات القصر ملأى بالامراء والاعيان وهم يتفاوضون فيما يتخذونه من الاحتياطات لمنع العدو ، وكثرت الآراء، وتعددت وتناقضت ، فنهض أحد الباشوات وكان من الذين لا يزالون محافظين على الولاء للخديو فعنف العسكريين على عصيانهم وحرضهم على وجوب التماس العفو من مولاهم، ووافقه كثيرون ممن حضروا ، فألفوا لجنة لتكتب عرضا بطلب العفو فكتبته وأرسلته مع وفد خاص الى الاسكندرية .

وبعد مسير الوفد من القاهرة أصر بعض الحاضرين على وجوب الدفاع وقرروا انشاء خطوط دفاعية في ضواحي القاهرة ، فذهب عرابي باشا لتنفيذ ذلك في العباسية . وكانت العاصمة حينذاك في اضطراب كبير خوفا من حدوث مثل ما حدث في الاسكندرية من حريق وخراب .

أما عزيز فلم يكن له هم الا الظفر بفدوى ، فلما أقبل المساء ولم يأت الباشا خاف ان يعرقل الانقلاب السياسي مساعيه ولا سيما اذا جاء شفيق العاصمة ووقف على خيانته له فيعمل على الانتقام منه، فسولت له نفسه ان يأتي بزمرة من الرعاع ويتهدد فدوى ويختطفها غصبا ، وهكذا فعل فلما وصل الى باب غرفتها وهم بالدخول اعترضه بخيت ، ولكنه نحاه بالقوة ، وهجم مع رفاقه يريدون فتح الباب قهرا. فلما رآهم بخيت على هذه الحال أطلق مسدسه على عزيز فأصاب الرصاص جنبه فسقط على الارض، وعلت الضوضاء ، وهجم من كانوا معه على بخيت بالعصى ، فدافع عن نفسه حتى كاد يقع على الارض . وكانت فدوى قد اضطربت لهذه الضوضاء واطلاق الرصاص، فتناولت كأس الجرعة السامة ويداها

ترتعشان وفرائصها ترتعد ، ثم أخرجت تذكار شفيق وجعلت تقبله وتذرف العبرات قائلة: «على الدنيا ومن فيها السلام، الوداع الوداع أيها الحبيب اذا كنت لا تزال من أهل الحياة، واللقاء اللقاء اذا كنت قد انتقلت الى أهل البقاء». ثم لم تقو على الوقوف فألقت بنفسها على المقعد خائرة القوى ، وسمعت ضجة أعقبها سكوت وصوت رخيم ينادي : «ما هذا ؟ . أين فدوى ؟ . من هؤلاء يا بخيت ؟ . وكيف يجرؤ ون على انتهاك حرمة البيوت؟».

فلما سمعت فدوى هذا الكلام خافت افتضاح أمرها ورفعت الكأس الى فيها فسمعت ذلك الصوت نفسه يقول : « أين فدوى . من يظلم هذا الملاك ؟» . فبهتت وأخذتها الدهشة لمشابهة هذا الصوت صوت من تحب، ورغبت في استطلاع الخبر قبل ان تتجرع السم، وتصورت ان حبيبها عاد اليها، ثم عاد الصوت مرة أخرى يقول : «اذهبوا لا يبق منكم أحد».

وبعد بضع ثوان لم تعد تسمع صوتا ، ثم فتح الباب ودخل ضابط انجليزي فلما رأته اضطربت من جديد، ولكنه بادرها قائلا بالعربية : «لا تخافي يا فدوى ، أنا شفيق !» .

وكانت لا تزال جالسة والجرعة السامة في يدها ، فلما سمعت ذلك سقطت الجرعة من يدها وقالت : «شفيق ؟ . شفيق ما زال حيا ؟». وسقطت على الارض مغشيا عليها فرشها شفيق ، بالماء الى ان أفاقت ، وأجلسها على المتكأ، وهو يقول : « خففي من اضطرابك » . فلما تأكدت انه هو شفيق لم تتمالك ان صاحت قائلة : « شفيق حبيبي شفيق ، لقد رحم الله حياتي فأرسل الي ملاكي الحارس». فأخذ شفيق يسكن روعها ويلاطفها الى ان هدأ روعها وعاد اليها صوابها.

■

نهض شفيق ليرى ما تم لعزيز فاذا به يئن من ألم الجراح وقد هم بخيت بأن يقضي عليه، فمنعه وأمره بنقله الى غرفة لمداواته فقالت فدوى : «أتريد احياء خائن أراد بك سوءا ؟». فقال تمهلي يا حبيبتي ، فهذا الشاب كان من أصدقائي وهو الآن مطروح بين حي وميت فيجب علينا معاملته معاملة الجريح في الحرب».

ثم أمر بنقله الى غرفة ثانية ، وغسل جراحه وضمدها حتى أفاق ، فلما رأى شفيقا عند رأسه بكى وشعر بما أساء به الى هذا الباسل ، فهم بأن يلقي بنفسه على قدميه طالبا اليه المغفرة فمنعه شفيق وطيب خاطره قائلا : « لا بأس عليك يا عزيز، أنا أعلم انها هفوة صدرت منك فلا أؤ اخذك عليها، فاضطجع ريثما تستريح وسأعود اليك». ثم تركه وعاد الى فدوى .

وكان رجال الشرطة قد سمعوا صوت اطلاق الرصاص والضجة التي اعقبت ذلك ،

فجاء بعضهم الى القصر ، فشاهدوا شفيقا يدخله في ملابسه العسكرية الأنجليزية ، وكانوا قد سمعوا بدخول الانجليز مدينة القاهرة في ذلك المساء، فظنوه فعل ذلك عمدا، ولم يستطيعوا كلاما . .

أما والدة فدوى فلما سمعت الضوضاء واطلاق البارود اضطربت وخرجت فرأت الازدحام ، ثم رأت ضابطا أنجليزيا يدخل غرفة فدوى فخافت عليها ونادت الخدم ان يمنعوه فلم يجرؤ احد منهم على ذلك ، فظنت ان الانجليز دخلوا القاهرة وجاءوا للقتل والنهب، فبقيت في قلق عظيم على ابنتها، الى ان أتى الباشا فأطلعته على الخبر فصار ينتفض من الخوف والغضب ويفكر في مخرج ليخلص ابنته، واذا ببخيت قد أتى اليه ودلائل الفرح والاستبشار بادية في وجهه وقال : «لم لا يدخل سيدي ؟». فدخل الباشا غرفة ابنته فاذا بها جالسة الى ذلك الضابط فاستاء منها لما كان يجب عليها من التحجب عن الغرباء خصوصا انه كان يعهد فيها المحافظة على تلك العادة ، غير انه لم يقو على ابداء ملاحظة في هذا الشأن فنسب ذلك الى خوفها، فلما اقترب منهما وتفرس في وجه شفيق عرف انه هو الذي نجاه من الموت في الاسكندرية ، فسارع الى تحيته السعيد وقال : «اهلا وسهلا ، اني لا انسى فضلك مدى العمر ماهذا الاتفاق السعيد؟ ومتى جئت؟».

قال : « جئت هذا المساء مع الجيوش الانجليزية ».

فقال : «هل على المدينة من بأس منهم ؟ ». قال : «لا ، لأنهم دخلوها وأقاموا الحراس في كل جهاتها واحتلوا القلاع والحصون ولا يلبثون ان يقبضوا على عرابي. وها قد تمت نبوءة قائد الحملة الجنرال ولسلي بأنه يدخلها في ١٤ سبتمبر».

أما فدوى فدهشت لترحيب أبيها بشفيق ولكن امارات الوجل كانت لا تزال على وجهها بعدما قاست من الاهوال والمفاجآت .

ولم يكن الباشا قد علم بسبب اصابة عزيز، وخيل اليه انه أصيب خلال دفاعه عن فدوى ضد ذلك الضابط الجالس اليها ، فأسف لما أصابه وأوجس خيفة من ضياع الثروة التي أوشك ان ينالها، وهم باستطلاع الخبر فبادرته فدوى وكانت قد استردت روعها وقالت : « ان بخيتا هو الذي ضربه يا أبي، وياليتها كانت القاضية !».

فعجب وسألها : « كيف كان؟». فقالت : « قبل أن أقص عليك الخبر ، أرجو ان تخبرني كيف عرفت هذا الضابط ؟».

فقال الباشا : «انه هو الذي انقذنا من الموت في الاسكندرية انا وعزيز ».

قالت : «أتعرف ان اسمه شفيق ؟» .

فبهت اذ تذكر هذا الاسم، وقال : « لعله الذي خبرت عنه من عزيز ؟». قالت : «نعم، هذا هو الملاك الحارس الذي انقذك من الموت مرة، وأنقذني منه مرتين، وأنقذ ذلك الخائن مرارا» .

فخجل شفيق وقد أذهله لطف حديث فدوى حتى أوشك ان يغيب بسكرة الحب، فقالت له وهي ترمقه بنظرات ناطقة بأنها لا تخشى في حبه لوم اللائمين : « اذا ذكرت بسالتك فلا أكسبك رفعة لأن أعمالك المتجددة مع الأيام ناطقة بذلك ، فلا تحسب شكري لك على ما أوليتني من الفضل ثناء عليك». ولم تدع له مجالا للكلام بل وجهت الخطاب الى أبيها وقالت : «أتلومني بعد هذا يا والدي اذا كنت . . . » . وكادت تتلعثم فأتم أبوها عبارتهاقائلا: «اذا كنت تحبينه أليس كذلك ؟» . فخجلت ولكنها استأنفت الكلام فقالت : « لا أجهل يا أبت ان وجودي بالقرب منه ولو ملثمة محظور في عوائدنا غير اني لا أستحيي ان أقول بأنه يجب معاملة من كان كهذا الشهم وقد أنقذني من الموت مرتين معاملة أقرب الناس مني ، فأعد مقابلتي له على هذه الحالة كمقابلتي لأقرب أقربائي» .

فنهض الباشا حينئذ الى شفيق وقبله ومدحه ، فكرر شفيق ما حضره من عبارات الشكر والامتنان لما أظهراه له . ثم أخذوا بأطراف الحديث عن عزيز وأعماله حتى انكشف للكل سعايته ورداءةجوهره، فأسف الباشا على ثقته به قدر اسفه على فقد ثروته بهذا الحادث ثم سأل الباشا شفيقا عن أسرته فقال : «ان ابي اسمه ابراهيم وهو من مستخدمي قنصلية انجلترا في القاهرة وقد قضى حتى الآن في خدمتها زهاء ١٨ سنة» .

فدهش الباشا لذلك وخاف الا يكون مسلما فقال : « ومن أي الطوائف هو ؟» .

قال : « من الطائفة الاسلامية» . فازداد الباشا دهشة وقال : « أيكون مسلما ويقضي في خدمة الحكومة الانجليزية جل عمره ؟ » . فقال شفيق : « ان لتقربه من قنصل انجلترا فيما يلوح لي سرا حرص على اخفائه . فلم أعرفه !» .

فقال الباشا : « أظن هذه البلاد ليست بلادكم ؟» .

فقال شفيق : « أعترف لك بجهلي الحقيقة في هذا ، لكني أرجح ان أبي جاء من الشام» .

فاستأنف الباشا الحديث لئلا يضايق شفيقا وعاد الى التكلم في أمر عزيز ولكنه أضمر أن يبحث عن حقيقة حسب شفيق ونسبه قبل اتمام امر الاقتران . فقال الباشا . « ان خيانة هذا الرجل تستوجب القتل» .

فقالت فدوى: « لا شك في ذلك ، واني اعجب كيف سعى شفيق الى معالجته ؟» .

فقال شفيق : « ألم يكن هذا الشاب من أصدقائي بل رفيقي في المدرسة فلا يليق بي ان اقابل جهله بالشر» .

فقالت فدوى : « أيستحق هذا الخائن غير القتل وقد أبذى لك ما أبداه من الشر والعدوان ؟» .

قال شفيق : « أي فضل للعاقل على الجاهل اذا هو قابل الجهل بالجهل والشر بالشر، وما الانتقام الا شأن الضعيف الساقط ، وهذا المسكين قد نال ما جنت يداه فأصيب بما استحق ولو استحق الموت لكانت الضربة هي القاضية ، ثم هو الى ذلك جريح يقاسي من الآلام وتبكيت الضمير ما يكفيه جزاء » .

فقالت : «لا تزال تسعى الى الابقاء عليه وشفائه وأنا لا أرى الا الموت جزاء له» .

فقال : « الموت والحياة يا عزيزتي بيد الله، وما نحن الا عبيد ضعفاء عرضة للغلط والتهور ، وقد رأيت هذا الشاب يترامى على قدمي ليقبلهما وهو فيما علمت من ألم الجرح وقد أصيب من تبكيت الضمير بما يكفيه، ومع ذلك فالشهامة تأمر بالعفو عند المقدرة» .

قالت : «ولكني أطلب اليك بحق المحبة ألا تبقي عليه ، والا فليعالج جرحه في غير هذا البيت » . فقال شفيق مبتسما : «ان أمرك يا سيدتي مطاع ، ولكني أذكرك أمرا واحدا وهو أنني وقد صرت من رجال الجهادية عرضة للرصاص في الحروب وحياتي دائما في خطر ، فلو بلغك يوما أنني أصبت برصاصة ولم ألق نصيرا ولا مواسيا، ماذا يكون حالك حينئذ وكيف يكون قلبك ؟» .

فارتعدت فرائص فدوى جزعا من تصور اصابة شفيق . ثم مسحت دموعها وقالت : «ان هذا خائن لئيم أعيذك من التشبه به» .

فقال : «ان البشر ضعفاء يا عزيزتي، ومن منا معصوم من الغلط . وقد قيل ان المستغفر لذنبه كمن لا ذنب له» .

وكان الباشا يسمع تحاورهما وينظر الى شفيق معجبا بكرم أخلاقه فقال : «لله درك يا ولدي ما أكبر نفسك وما أظهر دلائل الفضل عليك فافعل ما بدا لك لئلا يقال فقدت المروءة أهلها» .

فقال : «عفوا يا سيدي، اني لم أقصد الا ابداء رأي، ولسعادتك الأمر والنهي، غير أني أظن أنه يحسن بقاء عزيز هنا الآن تحت المعالجة » .

فقال الباشا : «نعم الرأي رأيك يا ولدي فهيا بنا نخيره في البقاء هنا ريثما يشفى او الذهاب الى بيته» .

فلما قابلاه أخفى وجهه بين يديه وقال : « عفوا عفوا أيها الصديق الكريم فضميري يبكتني لما اقترفته نحوك فذنبي عظيم يستحق الموت».

فقال شفيق : « لا بأس عليك ولا راد لما جرى به القدر ، أما الآن فقد أتيت وسعادة الباشا نخيرك بين البقاء هنا او الذهاب الى بيتك».

فقال : « أريد ان تسمحا بنقلي الى محل سكني». فأجاباه الى ذلك، وعادا الى غرفة فدوى حيث استأذن شفيق في الانصراف قائلا : « اني آسف لعدم امكاني البقاء الآن لأزداد شرفا ومؤانسة برؤيتكم ، اذ ربما يترتب على تغيبي عن الجيش وقتا طويلا سوء ظن بي ، لأنهم لم يسمحوا بانخراطي في جندهم متطوعا الا بعد السعي الكثير فإني لست انجليزي الأصل ، وانما ساعدني كون أبي من موظفي الحكومة الانجليزية هنا وله خدمات صادقة ، فلا بد لي من أن أبرهن لهم على صدق خدمتي حتى يثقوا بي ، وسأعود الآن الى الآلاى ومتى استتبت الحال أصير قادرا على التشرف بالمثول بين يدي سعادة الباشا فألقي اليه ما يخالج ضميري من المحبة والاحترام لعلي أصادف ما آمله من محبته وكرمه».

فلحظ الباشا المراد من تقربه، وقد أحبه وسرته العلائق التي ربطت فدوى بحبه. أما فدوى فهان عليها ان تفارق حياتها ولا تقاسي بعاد الحبيب ثانية ، لكنها لم تجد مجالا لاظهار عواطفها أمام أبيها، فنظرت الى شفيق مستعطفة وقد تاه عقلها فتبادلا الخطاب بالألحاظ الناطقة التي يريدها الشاعر بقوله :

تشير لنا عما تقول بطرفها ... واومي اليها باللحاظ فتفهم
حواجبنا تقضي الحوائج بيننا ... فنحن سكوت والهوى يتكلم

ثم عاود شفيق الكلام فقال : « انني في انتظار قدوم والدي فمتى قدما فإني أرجو ان تقوى علائق المودة المتبادلة بين الاسرتين».

فقال الباشا : « ومتى يحضران بمشيئة الله ؟».

قال : «أرجو ان يكون ذلك قريبا ، ولكن ربما تستبقى الحكومة والدي في لندن بعض الوقت».

ثم دنا شفيق من الباشا وودعه، ومد يده الى فدوى فمدت يدها وهي ترتعش من عظم تأثرها فضغط عليها بلطف كأنه يقول لها : «عندي مثل ما عندك فلا تيأسي من حبي لك».

ثم انصرف شفيق وبقي الباشا وابنته ، فأثنى هذا على كرم شفيق وبسالته ولامها على كتمانها ما ربطها بشفيق من الحب الطاهر فاعتذرت له بأنها كانت تخاف الا يوافقها، وبعد المذاكرة فيما كان من سفالة مبادىء عزيز وكيف آل أمره وفيما أبداه شفيق من كرم النفس وكيف ظهر

فضله ، نهض الباشا يريد الذهاب الى المدينة ليرى ما جرى فيها بعد دخول الانجليز ، فوجد انهم دخلوها بسلام .

ولما وصل شفيق الى معسكره في العباسية وجد هناك عرابي وبعض رفقائه معتقلين في غرفة ، وأخذ الجنود الانجليز يلقون القبض على زعماء الثورة للمحاكمة ، فحكم على سبعة منهم وفيهم أحمد عرابي زعيم الثورة بالاعدام ، ثم أمر الخديو بالعفو عنهم وابعادهم الى جزيرة سيلان، وبعد ابعادهم أخذت الاحوال في السكون رويدا رويدا. وكان شفيق ينتظر بعد محاكمة العرابيين واستقرار الاحوال ان يعود الانجليز الى بلادهم فيستعفى هو من العسكرية ويخلو له الجو فيقترن بحبيبته، غير ان أمله لم يتحقق لأن الحكومة الانجليزية قررت احتلال مصر الى أجل غير معين، بدعوى أنها جاءت لاخماد الثورة وتأييد الامن فلا تبرح البلاد حتى يستتب الأمن تماما. فظل شفيق أثناء بقائه في القاهرة يتردد الى بيت الباشا لمشاهدة فدوى ، ولم يكن يهمل السؤال عن صحة عزيز..

■

كان والدا شفيق قد وردت عليهما كتب منه تنبئهما بأنه في مصر بخير وسلام، فسرا لذلك ولا سيما حين علما انه ممن أنعم عليهم الجناب العالي بالنياشين والرتب وممن اختيروا للانتظام في خدمة الجيش المصري وتدريبه.

وبقيت والدة شفيق كاتمة عن زوجها أمر حب شفيق لفدوى ، حتى أتاها كتاب منه يخبرها برضاء والد فدوى عنه وأنه يميل الى تزويجه بها ويطلب اليها ان تطلع أباه على حقيقة الخبر وتستطلع رأيه في ذلك. فبقيت تترقب العرض حتى كانت ليلة من ليالي الصيف في لندن وبدا زوجها أقل انقباضا مما هو عادة ، فجلست اليه وبدأت تجاذبه الحديث الى ان قالت : « ألا تبرح مصرا على كتمان حكاية الشعر الذي في الصندوق ؟».

فتأنف ابراهيم من هذا السؤال وقال : « أستحلفك بالله ألا تعيدي على مسمعي ذكر ذلك الشعر، فقد قلت لك انني لا أستطيع اطلاعك على شيء من أمره».

فضحكت سعدى وقالت : « أتظن الا أحد يحمل أسرارا الا انت ؟ . . ان لدي سرا لو أطلعتك عليه لزالت كل أكدارك وتبدلت أفراحا».

قال : « وما هو يا ترى السر الذي يجلب الافراح وتكتمينه ؟».

قالت : « لا أستطيع أن انقله لك قبل أن تسمح لي بفض الكتاب أو تطلعني على حكاية الشعر».

فقال : « اذا كان لديك نبأ سار فهاتيه، فقد كفانا ما كابدناه أثناء البحث عن شفيق» .
قالت : « لا أظن انك أقل اهتماما مني باختيار عروس لولدنا ، فما رأيك في الابنة الغنية ألا تفضلها على الجميلة ؟» .
فقال : «اذا أردت رأيي فلا أريد عروسه الا من ذوات قرباه» .
فقالت : « أتقصد أقرباءك أم أقربائي ؟» . قال : «أقربائي» . فرمقته بنظرة كلها دهشة وقالت : «قد مر علي في عشرتك أكثر من عشرين سنة ولم تطلعني على شيء من أمر وطنك أو ذوي قرباك ، فكتمانك عني هذا الأمر أشبه بكتمان أمر الصندوق » .
فابتسم ساخرا وقال : «ان معرفة أحد السرين يترتب عليه معرفة الآخر » .
فأرادت سعدى استطلاع السر وقالت : « اذا اختار ابنة من بنات مصر الغنيات ذات حسب ونسب وتهذيب أفلا تكون مسرورا ؟» .
فقال : «كلا بل أكون متكدرا ولو كانت الابنة من بنات الباشوات ، لأني أفضل له ابنة من بنات أعمامي ولو كانت فقيرة» .
فاضطربت سعدى لعلمها بشدة تعلق شفيق بفدوى ، ولكنها لم تستطع مراجعة زوجها لئلا يفهم قصدها فسكتت مرتبكة . ولم تقدر ان تطلع شفيقا على أفكار والده خوفا من سوء عاقبة ذلك ، فانتظرت ما يأتي به المقدور، وكتبت الى شفيق تخبره بأنها لم تعلم أباه بأمره مع فدوى لأنها لم تر فرصة مناسبة لذلك ، وستخبره في أول فرصة ، أما مجيئهما الى مصر فسيكون بعد حين لأن الحكومة الانجليزية استبقت أباه لتستخدمه في بعض المهام المتعلقة بمصر لما تعلمه من خبرته بأحوالها . ثم أشارت على شفيق بألا يستعجل أمر الزواج وأن يدع كل شيء ريثما يحضران .
وظن شفيق ان قدوم والديه الى مصر يكون على أثر مجيء اللورد(دوفرين) موفدا من الحكومة الانجليزية لدراسة الحالة، غير ان ذلك الظن لم يتحقق . وكان شفيق قد وعد الباشا بأن يرسل الى أبيه ليكتب الى الباشا ليتم تعارفهما فلما جاء كتاب والدته خشي ان تطول المدة قبل اطلاع والده على الأمر ، فلبث ينتظر ما يكون وهو على مثل الجمر .
وكذلك كانت فدوى تعد الساعات والايام في انتظار قدوم والدي شفيق لأن وجودهما يسهل امر الاقتران ويضع حدا لكل المشاكل التي كانت تخافها ولا سيما دسائس عزيز، وكان هذا قد عزل من خدمة الجيش المصري مع من عزلوا بعد الحوادث العرابية .

حملة هيكس

في يوم من أيام شهر فبراير (شباط) سنة ١٨٨٣ توجه شفيق الى منزل الباشا وعلى وجه امارات الانقباض، فعلمت فدوى بمجيئه فبعثت الى أبيها ليأتي به إلى دار الحريم، فلما جاءاها ورأت شفيقاً على تلك الحال بادرته بالسؤال عن السبب، فتبسم يريد اخفاء اضطرابه وقال: «ليس هناك ما يوجب الاضطراب يا عزيزتي، ورجال العسكرية كما تعرفين يجب الا يضطربوا حتى من المسير الى الحرب».

فقالت: «لعلك ذاهب الى الحرب ؟».

فقال: «نعم». فتلعثم لسانها والتفتت الى أبيها وقد اغرورقت عيناها بالدموع قائلة: « اسأله يا أبي عما يقصد بهذا فإني لا أستطيع كلاما ».

فابتسم شفيق ليهون الامر عليها، وامتلأت عيناه بالدموع ثم قال: «ان أكبر فخر للجندي يا عزيزتي هو فخره بالانتصار في الحرب، فاسألي الله أن يكتب لنا هذا الفخر».

قالت: « والى أين ؟». قال: «الى الاقطار السودانية».

ولم تتمالك نفسها عن البكاء، فأخذ يخفف عنها ويهون عليها، ثم قال له الباشا: « وما سبب هذه الحرب الآن ؟».

قال: « لا يخفى على سعادتك ان الاقطار السودانية ما برحت منذ افتتحها المغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية تحت كنف الحكومة المصرية ينتفع من تجارتها بالعاج والريش والصمغ وغير ذلك.، فظهر فيها في أواسط سنة ١٨٨١ رجل نوبي يقال له محمد أحمد، وادعى انه هو المهدي المنتظر فالتفت حوله عصابة قوية عرفوا بالدراويش وجاهروابعصيان الحكومة، فحاولت قمع ثورتهم مرارا فلم تفلح واستفحل أمرهم حتى استولوا على مديرية كردفان واحتلوا الابيض عاصمتها، فشق ذلك على الحكومة المصرية واعتبرته الحكومة الانجليزية أمرا مؤذنا باضطراب الامن في البلاد، فانفتح لها باب لاطالة مدة بقاء جيشها في مصر، مع حق المشورة على الحكومة المصرية بما تتخذه من الاحتياطات، وقد اشارت بإرسال حملة مصرية لانقاذ الأبيض بقيادة قائد انجليزي اسمه هيكس باشا،

فأعدت الحملة وستسير من هنا بعد يومين قاصدة الخرطوم لتتحد هناك بحاميتها ويسير الجميع الى انقاذ الابيض . ولما كنت من الضباط الانجليز المنتظمين في خدمة الجيش المصري فقد دعيت لمرافقة تلك الحملة».

وما أتم شفيق كلامه حتى غلب على فدوى البكاء جزعا على شفيق ، فقال لها : «لا تجزعي يا فدوى فاني ذاهب لأداء واجبي وسأعود باذن الله مكتسبا فخرا ، وهذا يسرك طبعا».

فقالت : «دع عنك هذا الفخر المحفوف بالاخطار ».

فرمقها شفيق بنظرات المستهام، ثم وضع يده على قبضة سيفه وابتسم قائلا : «اني لم أتقلد هذا السيف يا فدوى الا لكي انال شرفا يجعلني جديرا بك».

فقالت : «ان لم تشفق على قلبي، فهلا رحمت قلب والدتك ؟».

فاغرورقت عيناه بالدموع وقال : «أستحلفك بالله يا فدوى ان تدعي هذا الكلام وأنا ذاهب الى الحرب، ولندع عواطف الحب جانبا فاني أمرت بالسفر الى الابيض ولا يسعني مخالفة الأمر، على انه لو وسعني ذلك ما فعلته محافظة على شرفي لئلا يقال اني خفت الحرب والاعمار والارزاق بيد الله».

فاعتمدت فدوى رأسها بإحدى يديها ومسحت دموعها باليد الأخرى ، ولبث الجميع صامتين برهة يفكرون ، ثم قال الباشا : «اذا كان لا بد من سفرك فصبر جميل ، والله المستعان».

فرفعت فدوى رأسها وقالت : «لا . . لا . . لا أظن ان قلبه يطاوعه على السفر».

فقال شفيق : «لو أردت مطاوعة قلبي يا عزيزتي ما كلفتك هذا العناء، وانما الأمر أمر الشرف والشهامة اللذين أنا عبد رق لهما، والآن ما لنا وللخوض فيها لا فائدة لنا منه، فقد جئتكم مودعا فليس لنا الا الصبر الجميل والاتكال على الله».

ثم التفت الى الباشا قائلا : «أما وصيتي لك يا سيدي فالعناية بوالدي اذا جاءا مصر أثناء غيابي ، وما أحسب فدوى تحتاج الى الوصية وانما أطلب اليها ان تسمح لي برسمها حتى استأنس به في سفري».

ثم مد يده الى جيبه وأخرج رسمه وناولها اياه قائلا : «وهذا رسمي يبقى عندك تذكارا ريثما أعود ان شاء الله».

فأخذت فدوى رسمه بعد ان استأذنت أباها وهي تبكي ، ولم تستطع النهوض حتى تأتيه برسمها الا بعد العناء فسارت وركبتاها ترتجفان ثم عادت فناولته رسمها فتأمله واذا هو رسم فوتوغرافي كثير الشبه بها يمثلها جالسة على كرسي ملثمة باللثام التركي كأنها تمعن النظر في شيء في يدها، فتأمله فاذا هو الزر الذي أعطاها اياه تذكارا. وبعد ان تأمل الرسم مدة وضعه

في جيبه وكان يريد تقبيله فمنعه الحياء، أما هي فكانت تنظر الى الرسم ولا تتمالك عن البكاء.

ثم نهض شفيق وقبل يد الباشا فقبله وعيناه تدمعان، ثم مد يده الى فدوى وضغط على يدها قائلا: «أرجو انك لا تنسين شفيقا». فخنقتها العبرات ولم تستطع جوابا.

وخرج تاركا اباها في حالة يرثى لها من القلق والاضطراب.

■

سار شفيق الى معسكره فرأى هيكس وأركان حربه على أهبة المسير، فأعد ما يحتاج اليه، وكتب الى أبيه في لندن يخبره بما هو فيه، كما كتب الى والدته يلح عليها في ان تستطلع رأي أبيه في أمر فدوى.

وفي اليوم التالي سافرت الحملة عن طريق السويس فالبحر الاحمر الى سواكن، ومن هناك سارت في الصحراء حتى مدينة بربر على النيل، لتستقل السفن الى الخرطوم حيث تسير مع حاميتها الى الابيض.

أما ما كان من أمر والدي شفيق فإنهما لما جاءهما كتابه بسفره مع حملة هيكس اضطرب بالهما، وأوقف أبوه سعيه في سرعة المجيء الى القاهرة وما زال كذلك حتى دخل صيف سنة ١٨٨٣ فوردت الاخبار بظهور الكوليرا في مصر. وكانت أخبار هيكس تصل الى لندن في حينها فعلما بوصوله الى الخرطوم ثم استعداده للمسير لفتح الأبيض.

وفي ١٧ أكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٨٨٣ جاءت برقية من هيكس قال فيها:

«نحن الآن على مسافة عشرين ميلا من نورابي، واني آسف لأننا لم نحفظ خط الرجعة، وقد علمت من علاء الدين باشا حكمدار السودان ان العرب سيقطعون عنا الذخيرة والزاد ويحدقون بنا من كل ناحية بعد ان يوغل جيشنا في البلاد، هذا الى ان برك الماء ستجف فلا يمكننا الاستقاء الا بحفر الآبار. صحة العساكر جيدة والحر شديد».

ثم انقطعت أخبار هيكس وحملته منذ ذلك الحين فخاف الناس خوفا عظيما، وكان أكثرهم وجلا والدا شفيق في لندن وفدوى في مصر، الناس يقولون في مصير تلك الحملة أقوالا متضاربة نقلا عن السنة العرب القادمين من تلك الانحاء، حتى ثبت أخيرا ان تلك الحملة ذهبت بمن فيها من الرجال عطشا وقتلا بين العربة والابيض ولم ينج منها أحد، فأصبح الكدر مستوليا على جميع الناس ولا سيما على قلب والدي شفيق وهما لا يزالان في لندن. ولما مضت سنة ١٨٨٣ ولم يرد خبر عن شفيق شقا عليه الجيوب ولبسا أثواب الحداد ولم يعد أبوه يخرج من

البيت ولا يخاطب احدا واستولت عليه السويداء حتى لم يعد أحد يستطيع مخاطبته حتى ولا امرأته .

أما فدوى فانها بعد ان علمت بنكبة هيكس وحملته أصبح النور في عينيها ظلاماً، ولم تعد تستطيع طعاما ، وأخذ جسمها في النحول وجمالها في الذبول ، وتكدر لذلك أبواها لكنهما كانا يعزيانها من وقت الى آخر بأن الاخبار الصحيحة لم ترد بعد. ولكنها لم تكن تصغي الى قول أحد، وأخذت تقضي النهار واضعة رسم شفيق أمامها والعبرات تتساقط من عينيها ، حتى أصبحت جلدا على عظم ووصف لها الاطباء السفر الى خارج مصر ترويحا للنفس ولكنها لم تشأ الخروج من حجرتها لئلا يمنعها ذلك من البكاء والنحيب ، ولكنهم ما زالوا بها حتى أجبروها على الخروج من القاهرة وذهبوا بها الى الريف، فلم يجدها ذلك نفعا.

وأما عزيز فكان قد شُفي وازداد حقدا على شفيق ، ولما علم بما حل بحملة هيكس سر وابتهج وكان يود ان يبلغ فدوى ذلك شفاها تشفيا منها، لكنه لم يكن يستطيع ذلك لعلمه ان من في البيت عالمون بقصته . فاكتفى بأن أقام عليها الارصاد والعيون ظنا منه انها حالما تستيقن فقد شفيق يتغير قلبها وتسلوه مع الزمن، فلما رأى انها لم تزل على حبه، لجأ الى بعض اصدقائه ليفهموا أباها ان أحسن وسيلة لحفظ حياة ابنته هي ان تشغل عنه بغيره .

فلما علم بقرب سفر فدوى من القاهرة جاء الى أبيها يسأله عن صحتها مظهرا الاسف الشديد على ما أصابها ، وكان أبوها قد يئس من عودة شفيق واقتنع بأن الخير في حمل فدوى على نسيانه، فتلقاه مرحبا به.

وكان عزيز قبل ذلك قد أراد الشماتة بفدوى المسكينة فكتب رقعة قال فيها : «ذلك نتيجة كبريائك، فأين شفيق الآن ؟ وهل رأيت في حبك له خيرا مما كنت تلاقين ممن نبذتهم فأصبحوا ولسان حالهم يقول :

«من عاش بعد عدوه يوما فقد نال المنى»

وبعث بتلك الرقعة مع أحد جواسيسه ليوصلها الى فدوى، فلم يستطع هذا غير رميها في أرض حجرتها ، ولكنها وقعت في يد بخيت ، فلما قرأها علم انها من عزيز فاشتد غضبه وصمم على قتل ذلك الخائن، لكنه لم يستطع الخروج من البيت لاشتغاله بمرض فدوى.

■

وصل هيكس بحملته الى بربر ، ومن هناك ركبوا البواخر النيلية فوصلوا الى الخرطوم في أول شهر مارس من تلك السنة . وكان شفيق قد اكتسب ثقة هيكس باشا ومحبته لما اتصف به من الشهامة ولمعرفته اللغة العربية .

وخرج حكمدار الخرطوم لملاقاتهم وأنزلهم بقصر أعده لهم. والخرطوم عاصمة السودان ومقر حكومته وهي واقعة على الشاطىء الشرقي للنيل عند ملتقى النيلين الابيض والازرق. وهي أكبر مدن السودان. فلما كان اليوم التالي خرج شفيق لمشاهدة المدينة فاذا هي آهلة بالسكان وفيها ديوان الحكمدارية والمجلس المحلي ومستشفى ومخازن للذخيرة ومكاتب للتلغراف والتليفون ومتاجر بها أنواع البضائع الافرنجية والسودانية. وفيها كذلك حدائق وبساتين كثيرة حافلة بأشجار الليمون والبرتقال والعنب والرمان والتين والقشطة والخوخ والتفاح، وكان مما أعجب به شفيق هناك مهارة صاغة المدينة في عمل الفناجين من الاسلاك.

وبعد مضي ثلاثة أسابيع وصلت الى هيكس سرية من الجند المصري قادمة من القاهرة، ثم جاءته سرية أخرى معظم ضباطها من العرابيين.

ودخل شفيق يوما على هيكس باشا في حجرته فوجده يكتب كتبا الى لندن، فلما أتم هيكس الكتابة، بدأ الحديث فقال: « لا أرى هؤلاء الدراويش يستطيعون الثبات في منازلة جنودنا».

فقال شفيق: « حبذا ذلك يا سعادة الباشا، ولكني أرى ان جندنا لا يصلح لهذه المهمة !».

فقال هيكس: «ولماذا». قال: «لأن معظم ضباطنا كانوا في جيش عرابي وهم لم يأتوا الينا الا مكرهين، لاعتقادهم انهم سيقوا الى هنا ابعادا لهم عن الديار المصرية».

قال: «ولكنهم يؤكدون تفانيهم في الولاء للخديو وخدمة مصلحة البلاد».

قال: « لا يغرنك ذلك، فاني سمعتهم يتحدثون بما ذكرته لك الآن، وهم يجاهرون بأفكارهم أمامي لأنهم لا يعلمون انني أعرف اللغة العربية، فكن منهم على حذر».

فقال هيكس: « وما ظنك بالجنود السودانيين ؟».

قال: «ان السودانيين اذا تدربوا على الجندية كانوا قوة يخشى بأسها لأنهم صبورون على الاهوال ثابتون في مواقع القتال».

فوقع هذا الكلام لدى هيكس باشا موقع الاستحسان وازداد حبا لشفيق وتقريبا له. فأخذ يصطحبه حيثما سار ويستشيره في كثير من الاعمال. فكان ذلك مدعاة لسرور شفيق، آملا في أن ينال بما يعقبه من الرتب والالقاب مرضاة حبيبته.

وبقي هيكس باشا في الخرطوم مكتفيا بإرسال بعض الجند لمقاتلة شراذم العصاة في أماكن مختلفة. الى ان عقد النية على المسير لافتتاح كردفان واستخلاص الأبيض عاصمتها من قبضة المهدي وجنوده. فبعث الجواسيس يستطلعون أحوال العدو، ولكن أخبارهم جاءت

مختلفة متناقضة فاحتار ولم يعلم أيها الصحيح . ثم أفضى الى شفيق بما هو فيه من الحيرة والتردد ، وقال له : « لا بد لنا من رجل نثق به كل الثقة ليستطلع لنا أحوال العدو، والا فاننا في خطر على حياتنا».

فأطرق شفيق هنيهة ثم قال : «ما رأيك في ان أسير انا في هذه المهمة ؟». قال : «انك أقدر الناس على ذلك لمعرفتك العربية ولاطلاعك على عوائد هذه البلاد . واذا فعلت فإني أذكرك لدى نظارة الحربية فتنال مكافأة عظيمة، ولكن أخشى ان تلقي بنفسك الى التهلكة بهذه المغامرة».

قال : «اني لم آت الى هذه الديار الا للقتال.».

«ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في ارضٍ سواها»

«وانما أسألك ان نكتم أمر ذهابي عن كل أحد».

وكان شفيق قد تعلم لغة عرب السودان، وعرف كثيرا من عوائدهم فأزمع الذهاب متنكرا في زي المغاربة، فلبس جبة فوق قباء طويل ، وأعتم بعمامة بيضاء ، واحتذى حذاء كحذاء المغاربة، وحمل السبحة بيده ، وعلق الغليون بمنطقته. وجاء بجملين خفيفين أحدهما لركوبه وعليه رحل خفيف بكل من جانبيه قربة ماء. ثم تقلد سيفا سودانيا واصطحب دليلا كان في الخرطوم في مثل لباسه وحاله ، وركب الاثنان وسارا جنوبا يريدان الأبيض بعد ان حمل شفيق جملا آخر بأكياس فيها أنواع العطارة متظاهرا بأنه تاجر مغربي يطوف البلاد للاتجار بها . ولم ينس رسم فدوى فجعله في كيس وعلقه حول عنقه تحت ثيابه احتفاظا به لأنه كان تعزيته الوحيدة في تلك الأنحاء.

وخرج شفيق من الخرطوم في أوائل سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٨٣ دون ان يعلم بذلك أحد، وفي غد يوم خروجه سارت حملة هيكس تريد الدويم بقيادة هيكس باشا وعلاء الدين باشا حكمدار السودان، على أن يلتقوا بشفيق في جهة مورابي عند أول خور أبي حبل، وكان قد اتخذ طريقه بعيدا عن مجرى النيل، وكلما مر بحي من العرب في الصحراء بات عندهم وباعهم الطيوب وحادثهم في مختلف الشؤون.

❋

المهدي والدراويش

وما زال شفيق سائرا ومعه دليله حتى صار على مقربة من الأبيض فقال له الدليل : «لايمكننا المسير بهذا الزي بعد الآن ، اذ لا بد من التنكر في زي الدراويش» . وأشار عليه بإخفاء غليونه لأن التدخين به محظور على أتباع المهدي، فعمل شفيق بمشورته . ثم انطلقا حتى لقيا جماعه قادمين من الأبيض ، فعلما منهم ان المهدي خارج بموكبه ليخطب في رجاله الذاهبين لملاقاة العدو. فأحب شفيق مشاهدة ذلك الموكب فوقف حتى جاء الموكب فانضم اليه، ولما كان العصر سمع نقر الدفوف من بعيد ، وعلم ان هذا هو موسيقى الجيش المهدوي السائر الى الدويم ، وبعد قليل رأى أفواجا من الدراويش تسير مهرولة ، ويتقدمها أربعة يحمل كل اثنين منهم آنية كبيرة من النحاس شد عليها رق من الجلد ، ومعهما ثالث ينقر عليها نقرات تقلق الأذن ولكن الدراويش يطربون لها. ووراء هذه الموسيقى خيالة على أفراس بسرج عربية، وعليهم لباس الدراويش المؤلف من جبة من نسيج السودان يقال لها مرقعة لانها مرقعة بقطع مختلفة الألوان ، وعلى رؤوسهم عمائم بيضاء ملفوفة حول القش الأبيض او القطن ، تسترسل من كل منها ذؤابة طويلة تتدلى على الصدر ، وحول أوساطهم مناطق من نسج الدمور او القش يقال لها في لغتهم كربة . وهم حفاة ، وقليل منهم يحتذون نعالا تشدها على القدمين سيور من الجلد ، وحول أعناقهم سبحات مدلاة على صدورهم . أما أسلحة غالبيتهم فهي الرماح والحراب وسيوف مستطيلة ذات حدين أغمادها من الجلد الأصفر يعلقونها باكتافهم ويحملون درقا من جلد بقر النهر، وكبراؤهم يتقلدون خناجر معلقة بمناطقهم . وكان شفيق يسمع عن ملابس الدراويش فلم يعجب منها كثيرا، ثم رأى القوم قد حطوا رحالهم ونصبوا بيارقهم الحمراء والبيضاء والزرقاء ، مكتوبا على بعضها بالعربية (لا اله الا الله والامام المهدي خليفة رسول الله .) ثم تعالى النقر مرة اخرى فاصطف الفرسان في ناحية والمشاة في أخرى ، وكان هذا الجيش مؤلفا من : الدراويش وهم سمر الوجوه، ومن الجنود حملة البنادق وفيهم السود والسمر وهم حامية الأبيض الأصليون، ثم من العبيد خدم الدراويش وهم يلبسون شملات من قماش أصله أبيض من نسيج السودان يسترون بها عوراتهم وبعض صدورهم.

وعرف شفيق امراء ذلك الجيش بخيولهم المطهمة وبما يحدق بهم من الخدم، وان كان لباسهم لا يختلف كثيرا عن ملابس بقية الدراويش . .

ثم صاح القوم جميعا بصوت واحد قائلين : «في سبيل الله قتل الكفار» . فخفق قلب شفيق وجلا ، وندم على تعريض نفسه للخطر ، لكنه تجلد واندس بين الصفوف منتظرا ما يكون ، فرأى كل أمير قد وقف بجانب قبيلته ، ثم وقف أحد هؤ لاء الأمراء على مرتفع هناك وفي يده كتاب ، فضج الجمع ، وصاح بعضهم قائلين : «اسمعوا ماذا يقول الخليفة محمد الشريف ، انه والله لأشبه بالامام علي عليه السلام» . فعلم شفيق انه أحد خلفاء الخليفة الاربعة .

وكان محمد الشريف هذا مرتديا لباس الدراويش ، فلما سكنت الضجة نادى بأعلى صوته قائلا : « الفاتحة أيها المسلمون» . فقرأوا جميعا الفاتحة بصوت مرتفع ، ثم انصتوا اليه ففتح ورقة كبيرة وقبلها ووضعها على رأسه ثم قال : « اعلموا أيها الاحباب ان هذا منشور من سيدنا الامام المهدي صلوات الله عليه ، وسأتلوه عليكم وهو :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الوالي الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم . وبعد فهذا اعلام من عبد الله محمد المهدي ابن السيد عبد الله ، الى كل المشايخ والأمراء والنواب والمقاديم والأتباع . يا عباد الله . اسمعوا ما أقوله لكم وكونوا على بصيرة ، واحمدوا ربكم واشكروه على النعمة التي خصكم بها ، وهي ظهورنا بينكم مما هو شرف لكم يرفعكم على سائر الأمم . والمطلوب منكم يا أحبابنا هو المهاجرة والمجاهدة في سبيل الله ، مع الزهد في الدنيا فكل ما فيها الى البوار . فجاهدوا في سبيل الله ، فلهزة سيف مسلم في سبيل الله أفضل من عبادة سبعين سنة ، وعلى النساء الجهاد اذا كن قاعدات وقد انقطع منهن أرب الرجال . أما الشابات فليجاهدن نفوسهن وليسكن بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، ولا يخرجن الا لحاجة شرعية ، ولا يتكلمن جهرا ، ولا يسمعن الرجال أصواتهن الا من وراء حجاب ، وليقمن الصلاة ويطعن أزواجهن ويسترن ثيابهن . فمن قعدت كاشفة رأسها ولو لحظة عين فتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطا ، ومن تكلمت بصوت عال فتضرب سبعة وعشرين سوطا ، ومن تكلمت بفاحشة تضرب ثمانين سوطا ، ومن قال لأخيه يا كلب أو يا خنزير أو يا يهودي أو يا فاجر أو يا سارق أو يا زاني أو يا كافر أو يا نصراني الخ ، فيضرب ثمانين سوطا ويحبس سبعة ايام . ومن تكلم مع أجنبية ليس بعاقد عليها في غير أمر شرعي ، أو حلف بطلاق أو حرام يضرب سبعة وعشرين سوطا . ومن شرب الدخان أو خزنه في فيه أو أنفه يؤ دب بثمانين سوطا ويحرق ما يوجد عنده منه ، ومن باعه أو اشتراه ولم يستعمله يؤدب بسبعة وعشرين سوطا . ومن شرب الخمر ولو مصه يؤدب

بثمانين سوطا ويحبس سبعة أيام . وكذلك من ساعد شارب الخمر بشربة ماء او اناء . ومجاهدة النفس طاعة الله حقيقة أشد من الجهاد بالرماح ، لأن النفس أشد فتنة من الكافر، فالكافر تقاتله وتقتله وتكون لك الراحة منه، وهي عدوة في صورة حبيب فقتلها صعب ومسلكها تعب

ومن ترك الصلاة عمدا فهو كافر بالله ورسوله ويجب قتله ، وعلى الجار ان ينهى جاره عن اتيان المعصية ، فان لم يقدر عليه فليكلم أمير البلد، فان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطا ويحبس سبعة أيام.

«واعلموا أيها الأحباب ان خلافتكم وامارتكم ونيابتكم عنا في الاحكام والقضايا لاجل ان تشفقوا على الخلق وتهدوهم في الدنيا. ويزوج الفتى بعشرة ريالات مجيدية أو انقص ، والعزبة بخمسة أو أنقص . ومن خالف هذا ، فعليه الأدب بالضرب والحبس بالسجن حتى يتوب او يموت في سجنه . ويكون مقطوعا من أهل زمرتنا ونحن بريئون منه وهو بريء منا والسلام».

■

ما أتم محمد الشريف قراءة منشور المهدي حتى ضج الجماهير بالدعاء، فقال شفيق في نفسه : « والله انها لتعاليم حسنة لا يأتي المتمدنون بأحسن منها». ولكنه شعر بخطر موقفه فصارت ركبتاه ترتجفان وأخذ يدبر وسيلة يتخلص بها اذا انكشف أمره ثم جعل يفكر في قيام المتمهدي وما تأتي له من الفوز ، وفيما هو في ذلك رأى الناس في جلبة واختلاط ، ثم علم انهم يستعدون لملاقاة المتمهدي وهم يتطلعون الى جهة الأبيض ، فنظر واذا بالموكب قادم والمتمهدي في لباس الدراويش على جواد أصيل يحدق به الخليفتان : التعايشي ، وولد الحلو. ووراءهم جماعة من الفرسان في لباس الدراويش غير أن مراقعهم أقصر لا تتجاوز ركبهم ويكاد يظهر من تحتها أسفل سراويلهم القطنية وعلم بعد ذلك أنهم جماعة الملازمين أي خدم المتمهدي وكانوا سائرين وراء الخلفاء مطرقين احتراما ووقارا وبينهم العلم الخاص بالمتمهدي .

فلما وصل الموكب ترجل المتمهدي ، وترجل كل من معه، ومشوا الى مرتفع هناك ثم تنحوا جميعا الا المتمهدي فجيء اليه بفرو من جلد فرش امامه فوقف للصلاة ووقف الجميع صفوفا خلفه وبينهم شفيق ، وقد زاد اضطرابه لما شاهده من سعة نفوذ المتمهدي ، وخيل اليه انه لا يلبث ان يكشف امره فيقتل في الحال .

وبعد انقضاء الصلاة وقف المتمهدي فخطب في الامراء موصيا اياهم بالثبات ، وحول عنقه سبحة من خشب البقس مدلاة على صدره ، ولم يكن في ملابسه ما يميزه عن سائر

الدراويش الا كونها أكثر اتقانا وأغلى قيمة . فأخذ شفيق يتأمل في هيئة هذا الرجل الذي أقلق دول أوربا وألقى في مجالسها الشقاق ، فاذا هو طويل القامة ، خفيف العضل ، كبير العينين، حسن الملامح كسائر الدنقلاويين ابناء وطنه . وآنس في وجهه مهابة ولطفا . ولفت انتباهه الخال الأسود على خد المتمهدي ، فتذكر ما كتبه الى السنوسي من أن ذلك الخال هو علامة المهدوية . وكان الحاضرون جميعا يقفون مطرقين صامتين وكلهم آذان لسماع الخطبة وقد جاء فيها :

«أيها الأحباب من المقدمين والمشايخ والنواب والأنصار ، اعلموا ان الله لو شاء سبحانه وتعالى ان يبيد أهل الكفر ويستأصل شأفتهم من غير قتال لفعل ، كما ورد في الكتاب العزيز قوله تعالى : (ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوكم بعضكم ببعض) . وقوله : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) . فصار لا محيد للخلق عن امتثال هذه الحكمة . فها انكم مرسلون لقتال الكفرة القادمين الينا من جهات الخرطوم ، فعليكم ان تكونوا أهل حزم ، وتشددوا العزائم والنيات ، وتسيروا بالهمم العاليات في نصرة دين الله ، وأن تبذلوا نفوسكم وأموالكم في سبيل الله كما عاهدتم الله ورسوله وبايعتمونا على ذلك ، ولا يحصل منكم أدنى فتور ولا توان عما انتم بصدده ، وضيقوا عليهم أشد التضييق.(فعسى ان يأتي الله بالفتح او أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في انفسهم نادمين) . أنتم على كلا الحالين من الفائزين . فخوضوا الغمرات شوقا الى الله ، والى جنة قصورها عالية وأنوارها زاهية وأنهارها جارية وقطوفها دانية» .

ولما أتم المتمهدي خطابه ضج القوم بالتهليل والتكبير ، ثم ركب مع حاشيته وعادوا الى الابيض ، فتراكض الدراويش الى موطىء قدميه يمسحون وجوههم وأعناقهم بالتراب الذي وطئه ويعفرون رؤوسهم به . وكان قد عهد في قيادة تلك الحملة الى الأمير عبد الحليم ، وأبي جرجة ويبلغ عدد جنودها ثلاثة آلاف . ثم سارت الحملة الى الدويم ، وشفيق معها وقلبه يخفق بشدة مخافة انكشاف أمره . .

*

أسير المتمهدي

أخذ شفيق بعد ان دخل الدويم يطوف بها مستطلعا أحوالها، فوجد منازلها مبنية بالآجر طبقة واحدة، وليست من طراز واحد ، وشاهد بينها مساكن مصنوعة من القش يقال لها(تكول) يسكنها من لا قدرة لهم على البناء بالطين . ثم وصل الى ديوان الحكومة فاذا هو مبني بالآجر وفي وسطه فضاء يقيمون به الصلاة، ولم يشاهد في الاسواق من أرباب الصناعة غير الحدادين والصاغة ، لان أكثر الاهلين يتعيشون بالتجارة في ريش النعام والصمغ والتمر هندي وسن الفيل وهم جميعا يشربون من آبار عميقة يبلغ عمق بعضها ١٧ قامة.

وكان شفيق قد أرسل دليله ليبحث عن منزل يبيتان فيه، فعاد الدليل مصحوبا بزمرة من الدراويش ، وما وقعت أعينهم على شفيق حتى قبضوا عليه وأوثقوه وساروا به الى ديوان الحكمدارية حيث مجلس المتمهدي، فلما بلغوا الديوان تصدى له بعض الأمراء وأخذوه الى الخليفة ، فلما رآه توسم في وجهه النباهة وعجب من جرأته فأحب ان يراه المتمهدي نفسه ، فأوقفه خارج قاعة المتمهدي ، حتى استأذن في ادخاله عليه ، ثم ادخل القاعة فاذا المتمهدي قد جلس فيها على عنقريب وبين يديه الامراء جالسين الاربعاء خافضي للرؤوس في احترام ووقار والسكون مستول على تلك القاعة.

وكان شفيق قد أيقن بالهلاك وعلم أنه أسر بدسيسة من دليله، لكنه تجلد وأخذ يفكر في وسيلة للنجاة ، فلما وصل الى مجلس المتمهدي وأوقفوه بين يديه ، شعر بعظم هيبة ذلك الرجل وسطوته ولكنه تجرأ ووقف وهو لا يزال في لباس الدراويش ينتظر امر المتمهدي فخاطبه هذا قائلا : « ما الذي جاء بك الى هذه الديار ؟».

فقال شفيق : « جئت بقضاء من الله سبحانه وتعالى».

قال : « ألا تعلم اننا لا نؤخذ بالدسائس وقد نصر الله دعوتنا ومنحنا الغلبة على القوم الكافرين ؟».

فقال شفيق : « ان القدرة لله يهبها لمن يشاء من عباده».

فأعجب المتمهدي جوابه وقال : « ولكن الله يقول :(ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) .

فلم فعلت هذا بنفسك ؟».

قال شفيق : « صدق الله العظيم ، وهو سبحانه يقول أيضا :(من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . . ».

فقال المتمهدي : « أتعلم انك الآن في قبضة يدنا ولو أردنا قتلك لما كلفنا ذلك غير اشارة ؟».

قال : «نعم أعلم ذلك، وأعلم أن الموت والحياة بيد الله».

فقال : « قد كنت عازما على قتلك ، ولكن أعجبني ايمانك ، فهل انت مؤمن بما دعانا الله تعالى اليه من المهدوية ؟ أم أنت على ما أصحابك عليه من الكفر المبين ؟».

قال : «اذا أذن لي مولاي، قلت : ان الكفر ليس من أوصاف الموحدين، وما في أصحابي الا كل موحد يؤمن بالله وبرسوله وبيوم الدين».

قال : «انك تستحق القتل بمقتضى الشرع لأنك جاسوس جاء يستطلع أحوالنا ، وقد جاء بك الينا من نال أجره في الدنيا وفي الآخرة، على أننا سنبقي عليك عسى ان تفيدنا بشيء».

قال : « لله الامر يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير ،ولو قدر الله قتلي ما امسكت عنه فإن كل شيء فقضاء وقدر، وانا لم اعمل الا ما استوجب من أجله الثناء لأني قمت بأمر مولاي كما قام رفيقي هذا (وأشار الى دليل) بأمر مولاه. وقد قال الله في كتابه العزيز: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) . . ».

فقال المتهمدي : « خذوه الى السجن موثقا حتى نبت في أمره ».

فقال شفيق : « حيى الله مولانا وبياه، ان الوثاق لا يزيد شيئا في الحجر علي ، لأني لو أطلقتم سبيلي ما استطعت العود وحدي، فاتركوني محلول الوثاق ، لعلي استطيع خدمة لكم».

■

ازداد شفيق كرامة في عيني المتمهدي، فأمر بعض من في حضرته ان يذهب به الى حجرة يبقى فيها تحت الحجر، فخرج شفيق ينفض غبار الموت عن وجهه وقعد يندب سوء حظه ويلعن ذلك الخائن الذي خانه وألقاه في هذا الضيق.

وذهبوا به الى حجرة ينام فيها بعد ان جاءوه بالطعام فتناول بعضه، ثم تركوه في الحجرة وقد أظلمت الدنيا فجلس على الارض وأفكاره تتقاذفه كخشبة تتقاذفها الامواج ، وأخذ يتأمل فيما مر به من الأخطار وما يزال يخشاه ، وخطرت بباله فدوى فخفق قلبه وجلا عليها لئلا تحزن على طول غيبته، واشتد به الشوق حتى بكى وأراد ان يخرج الصورة لمشاهدتها ولكنه

أدرك انه في ظلمة اذا أخرج يده فيها لم يكد يراها ، فاكتفى بلمس الصورة وتقبيلها ، وظل ليلته يبكي ويخاطب نفسه نادبا سوء حظه ، طالبا الى الله تعالى ان يخفف حزن والديه وخطيبته . .

وفيما هو في ذلك وقد مضى معظم الليل سمع وقع أقدام عند باب الحجرة وصوتا منخفضا يقول : « لا تخف يا أخي ولا تجزع». فاقشعر بدن شفيق وأسرع الى اخفاء الصورة وقال : «من انت » . قال : «اني صديق لك فلا تخف » . فأمل شفيق في ذلك خيرا فسكت برهة واذا بذلك الرجل قد دخل بعد ان أشعل قطعة خشب ووضعها في منتصف الحجرة ليستضيء بها ، فتأمله فاذا هو اسمر البشرة تدل ملامحه على انه مصري الأصل ولكنه في لباس الدراويش ، فأوجس شفيق خيفة وظهر ذلك على وجهه فابتدره الرجل هامسا في أذنه قائلا : « لا تخف يا أخي ، اني لست درويشا الا في الظاهر ولم أتقلد هذه الملابس الا مرغما ، فطب نفسا وعسى ان ينجيك الله على يدي».

فقال شفيق : « ومن أنت ؟» . قال : « كنت قبل سقوط الأبيض من مستخدمي الحكومة فيها ، فلما سقطت في قبضة المهدويين ، ولم أر بدا من التظاهر بدعوتهم حفظا لحياتي فأحبوني حتى دخلت في خدمتهم فاتخذني الامير عبد الحليم كاتبا له . واسمي حسن» . قال هذا وسارع الى الخشبة المشتعلة . فأطفأها وقال : « ان الظلام خير لنا لئلا يأتي الينا أحد فيعود ذلك وبالا علينا» .

فقال شفيق : « قد سمعت اليوم ان الحملة سائرة بقيادة الامير عبد الحليم فهل انت ذاهب برفقته ؟» .

قال : « نعم سنسافر بعد غد ان شاء الله ، ولكني لا أخفي عليك اني ذاهب رغما عني ، اذ لا يسعني غير ذلك . والآن يجب ان أتخذ وسيلة انقذك بها من الخطر ، لأن المهدي لا بد ان يأمر بقتلك ، فهو قلما يثق بغير الدراويش . وسأبذل الجهد في انقاذك ، ولا أريد ان اسألك عن أحوال حملة هيكس باشا لاننا قد عرفنا عنها كل شيء ، اذ ان جواسيسنا منبثون في سائر الانحاء . وأرى ان نجعلك من الدراويش فتسير معهم حتى يقدر لنا الفرار والعودة الى بلادنا فإننا ان لم نفعل ذلك قتلنا لا محالة» .

فلما سمع شفيق ذلك تحقق اخلاص الرجل فقال له : « اني فاعل ما تأمرني به ولن انسى فضلك ، فماذا أفعل ؟» .

قال : « ان المهدي امر الامير عبد الحليم بأن يقتلك قبل مغادرته هذه المدينة ، وسيدعوك غدا لأجل ذلك على اني سأفعل ما يجب علي كي انقذك وأضمك الى حملتنا فنسير معا حتى يمن الله علينا بالفرج» .

فتنهد شفيق وقال : « ان الموت لا يخفيني ، ولكني أضن بحياتي لأجل من هم أحب الي منها ، وهل في هذه المدينة احد غيرك من المصريين ؟».
قال : « فيها كثيرون ، جلهم من رجال الحامية الذين أصيبوا بمثل ما أصبت فانضموا الى المهدويين ، وفيها أيضا رجل افرنجي يقال له الأب بونومي كان راهب دير في جبل دلن من جبال نوبيا جنوبي كردفان ، فلما حاصر امراء المهدي ذلك الدير واستولوا عليه جيء به الى هنا ، وهو لا يزال تحت الحجر ، وهناك غيره كثيرون».
فتأوه شفيق وكاد ييأس لكنه تجلد وقال في نفسه : « ان الرجل من احتمل المشاق والاخطار ، ولله الأمر يفعل ما يشاء».
وبعد ان أمضيا وقتا في الحديث ، نهض حسن للعودة الى المعسكر ، وانصرف بعد ان أعطى شفيقا ملابس ليرتديها تنكرا في زي الدراويش وهي المرقعة والعمامة والسبحة . .

■

في صباح اليوم التالي قام الدراويش للصلاة ، ثم جاء أحدهم يدعو شفيقا الى مقابلة الأمير عبد الحليم .
وكان حسن قد بكر بالذهاب الى الامير كعادته ، وتظاهر بالاضطراب والقلق ، فلما سأله الامير عما به قال: « رأيت حلما هذه الليلة اقلقني ولا أعلم تفسيره » . قال : « وما هو ؟».
قال : « رأيت ايها الامير كأني جالس في مجلسك ، فجاء الى المجلس شيخ بملابس الدراويش كبير السن عظيم الهيبة واسع اللحية ولما رأيناه سقطنا على وجوهنا فقال لك: (لا تخف يا عبد الحليم اني الشيخ البصير ، ولم آت لأدعوكم الى المهدوية ، ولكني جئت لأدعو رجلا حل بينكم لعله ينفعكم) . ولما قال ذلك رفعت وجهي لعلي أراه فشعرت كأن الشمس تلمع أمام عيني فلم أر شيئا وللحال استيقظت مذعورا».
فقال الامير عبد الحليم : « كرم الله وجه الشيخ البصير ، انه جد مولانا الامام المهدي ، وكثيرا ما يتراءى له ويخاطبه ، فلا تخف انه حلم ليس فيه شر» . .
ثم نادى الامير تابعا له لاحضار شفيق ، فلما حضر بين يديه ، عجب لرؤ يته في ملابس الدراويش ، وسأله : «ما هذا ؟ . وما الذي البسك هذه الثياب ، ألا تعلم انك قد دنستها لأنها لباس كرام الرجال الاتقياء ؟».
فأشار شفيق بيده الى السماء وقال : «اني لم ألبس هذه الثياب الا بأمر ممن لا بد من طاعته» .

فقال الأمير : «ومن أمرك بذلك ؟». قال : « قد رأيت يا سيدي حلما سرني كثيرا ، وذلك اني رأيت رجلا عظيم الهيبة كبير السن عريض اللحية، جاءني وفي يده هذه الملابس وقال لي : (انك لم تأت هذه الديار الا لتكسب آخرتك وتصلح دنياك ، فقم الى دعوة الامام المهدي خليفة رسول الله). ثم علمني آية وأوصاني أن أتلوها تكرارا وهي : (لا اله الا الله محمد رسول الله والامام المهدي خليفة رسول الله). فحفظتها ولكني سألت الشيخ عن اسمه فلم يشأ أن ينبئني به واكتفى بأن قال : (اني مصدر الهدى والصلاح لكل المؤمنين). ثم رأيت كأن الشمس خارجة من باب الحجرة ، ولما استيقظت رأيت هذه الملابس بجانبي ، فآمنت بصحة الرؤ يا ، وارتديتها ولبثت أكرر الشهادة السابق ذكرها حتى جاءني رسول الامير فجئت معه».

فعجب الامير عبد الحليم لذلك الاتفاق ، واستنتج من اتفاق الحلمين انهما صحيحان ، وبعث الى المهدي بذلك فقال : «انه ممن اختارهم الله لدعوتنا فلا تقتلوه بل ولوه منصبا يليق بعلمه ومعارفه !».

فلما جاء الامر الى عبد الحليم بطلب ذلك سأل كاتبه حسنا ان يمتحن الرجل ويرى ما يصلح له ، فامتحنه وأبلغ الامير انه يعرف الكتابة والرطانة باللسان الاجنبي فأمر ان يضم الى كاتبه ويرافقه في الحملة .

وكان حسن هو الذي لقن شفيقا ان يقول ما قاله للامير عبد الحليم .

مصرع هيكس

انضم شفيق الى معسكر الامير عبد الحليم وهو بملابس الدراويش ، وكان ذلك غاية ما يريد لأنه استأنس بحسن وتوسم فيه الخير.

وفي اليوم التالي سارت الحملة بجمالها وخيولها ، وقد عجب شفيق لقلة انتظام ذلك الجيش ، وكان مع كل درويش فروة خروف يستخدمها للجلوس والصلاة والرقاد . وما زالت الحملة سائرة حتى وصلت (ابو جوى) . وهناك التقوا بجيش هيكس باشا . وكان قد عسكر هناك ليجمع اليه بعض القبائل البدوية تعزيزا له ، ولا علم لهيكس ورجاله بشيء عن جيش الامير عبد الحليم.

وحاول شفيق ان يفر الى معسكر هيكس ولكنه لم يستطيع ذلك لبعد المسافة. ثم أرسل الأمير عبد الحليم حسنا الى المهدي مستأذنا في الحرب، فأمره بألا يفعل ، بل يتبع الحملة في خور أبي حبل حتى بحيرة الرهد ، وهناك تصل اليه الاوامر الاخيرة.

وكان هيكس بعد ان فارقه شفيق قد جاء الدويم وتفاوض مع زميله علاء الدين باشا في أي الطريقين يتخذان : طريق خور أبي حبل ؟ . أم طريق بارا. فكان من رأى علاء الدين اتخاذ طريق الخور لأنها كثيرة المياه وان كانت بعيدة الشقة. فسارت الحملة حتى جاءت نورابي أول الخور في ٨ أوكتوبر (تشرين الأول)، ثم سارت الحملة من نورابي الى جلبن هار في الخور أيضاً، ولكنهم علموا هناك ان جنود المتمهدي تتعقبهم فندموا على قطع خط الرجعية بينهم وبين الدويم، ولكنهم مازالوا سائرين وأملهم في الحياة يقل يوما بعد يوم ، لأنهم رأوا انفسهم محاطين بالعدو من كل ناحية. فضلا عن وقوع النفور بين القائدين هيكس وعلاء الدين وما زالوا بين حل وترحال حتى القوا عصا التسيار في بحيرة الرهد ، فحطوا رحالهم وتحصنوا هناك، وأخذوا يتفاوضون في أمر الجهة التي يسيرون منها الى الابيض ، لأن الخور هناك ينفصل الى فرعين : «أحدهما يتصل بمحلة البركة ، والأخر يتصل بمحلة كشجيل . وهذه أقرب الى الابيض . فبقيت الحملة في رهد ستة أيام، وشاهدوا في اليوم الخامس بعض العربان على الضفة الاخرى من البحيرة فظن

علاء الدين انهم الرجال الذين جمعهم الشيخان اللذان أرسلهما لجمع النجدة فشد منديلا الى عصا وجعل يلوح لهم بالمجيء ، فلم يبالوا وملأوا قربهم ماء وعادوا من حيث أتوا ، فبعث هيكس في أثرهم بعض الفرسان فعادوا وأخبروا بأنهم رأوا عددا كبيرا من العدو معسكرين بين الشجر . وبعد ستة أيام سارت الحملة قاصدة البركة فوصلت الى محل على ثمانية أميال من الوبا. ومن هناك بعث هيكس جاسوسا الى الابيض يستطلع قوة المتمهدي . وفي اليوم التالي ساروا الى الوبا، وفيها كثير من الماء فبقوا هناك حتى يرجع الجاسوس، وأرسلوا جاسوسا آخر ليستطلع أحوال البركة، ولم يمض اربعة أيام حتى عاد الجاسوس من الابيض ومعه كتاب من المهدي لقواد الحملة يدعوهم فيه الى التسليم، وبعد قليل جاءهم الجاسوس الآخر وذكر ان العدو جاء قاصدا البركة لملاقاة جيش هيكس . فوقع هيكس في حيرة وتشاور مع رجاله في أي السبل يسلكونها الى الابيض بحيث لا يلتقون بالدراويش في البركة ، فأجمع الرأي على ان تكون طريقهم عبر كشجيل ، على أن يأخذوا معهم ما يكفيهم من الماء يومين.

سارت حملة هيكس في اليوم الثالث من نوفمبر قاصدة كشجيل ، وبعد مسيرة عشرة أميال في غابات موحشة وقفوا وقد وقع الرعب في قلوبهم خوفا من أن يكونوا قد تاهوا عن الطريق ، وكان الخبراء الذين معهم من الاسرى مكبلين بالقيود خوفا من فرارهم، وفي اليوم التالي ساروا قاصدين غابة شيكان بين البركة وكشجيل.

وفي تلك الغابة كانت جنود أبو عنجر ، أما المتمهدي فكان قد علم باعتزام هيكس المسير الى كشجيل، فسار لملاقاته في طريقه الى شيكان ومعه الخلفاء الثلاثة ، وابن النجومي وغيرهم. وشفيق لا يزال في جيش عبد الحليم الذي يتبع خطوات الحملة، وقد أيقن بأن فوزها لم يعد ممكنا لما علمه من استعداد المهديين، ولكنه كان ينتظر فرصة يستطيع فيها افادة هيكس باشا بشيء ، وقلبه يكاد ينفطر كلما تصور الخطر الذي أحدق بتلك الحملة المنكودة الحظ وفيها نحو ١١ ألفا من الرجال ، كأنما ساقتهم الاقدار ليكونوا طعاما للوحوش في تلك البيداء.

فلما هيأ المتمهدي جنده على هذه الطريقة ، جمع أمراءه ليبلغهم الاوامر الأخيرة ، وصلى بهم أولا ، ثم قرأوا الفاتحة ، وبعد ذلك رفع يديه الى السماء وأخذ يقرئهم الدعاء التالي :

«اللهم لا عيش الا في دارك، ولا نعيم الا في لقائك ، ولا خير في غيرك ، ولا نصر الا من عندك ، بك الحياة وبك الممات ، وبك التقلبات ، واليك المصير». وكان الجميع يرددون ذلك الدعاء في خشوع . ثم استل المتمهدي سيفه وقال : «الله أكبر لا تخافوا ان النصر لنا». ثم أصدر أمره بالهجوم على الحملة . وكانت قد وصلت الى غابة شيكان بين البركة وكشجيل فهجم عليها المختبئون في تلك الغابة ، ثم هجم المتمهدي برجاله من الجهة الاخرى ،

وجاء عبد الحليم من الوراء ،والتحم الفريقان يقتتلان بالسلاح الابيض . وأراد شفيق ان يسير الى هيكس لعله يستطيع اغاثته فلم يدركه الا مقتولا بسيف الخليفة محمد الشريف . وانتهى الامر بابادة الحملة عن آخرها ما عدا حوالي ثلاثمائة جندي، أخذهم الدراويش أسرى .

وكان المتمهدي وقواده في فرح لا مزيد عليه بعد هذا النصر ، وشغل الدراويش بالغنائم

وطاف شفيق بالقتلى فاذا بالجثث متراكمة تلالا والدماء جارية أنهارا، ومر بجثة هيكس فوجده قد صرع بحربة أصابته في صدره ، وشاهد علاء الدين باشا في مثل ذلك ، فكاد قلبه ينفطر لتلك المناظر ، لكنه تجلد مخافة افتضاح امره. وفيما هو في ذلك رأى الناس يهرولون الى مكان المتمهدي فسار في أثرهم ، واذا بالاسرى الذين قبض عليهم قد أوقفوا في بقعة من الارض موثقين وعلى وجوههم علامات الشقاء والتعب والجوع والعطش ، فسأل عما دعاهم الى ذلك فقيل له انهم سلموا أنفسهم وأحبوا مبايعة المهدي ، فوقف شفيق ليسمع المبايعة فاذا بمحمد أحمد قد جيء له بالفرو فصلى بمن معه، ثم وقف أحد الخلفاء يلقن الاسرى سورة المبايعة وهم يرددونها بعده حانين رؤوسهم اجلالا، وهي :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، بايعنا الله ورسوله ومهديه ، بعنا أرواحنا وأموالنا وعيالنا في سبيل الله، فلا نهرب من الجهاد ، ولا نزني ، ولا نسرق ، ولا نشرب الخمر ، ولا نعصيه في معروف».

وبعد قليل أخذ الامراء والمقدمون في احضار الغنائم الى ما بين يدي المتمهدي ، فأمرهم بأن يأخذوا خمسها له، ويفرقوا ما بقي على الامراء والمقدمين حسب المعتاد . وكان في تلك الحملة من الغنائم ما لا يحصى عدده من الثياب والدراهم . أما الاسلحة والمدافع فأخذت الى بيت المال.

وبعد الاستراحة عاد الجميع غانمين فائزين قاصدين الابيض ، وغادروا جثث رجال الحملة المنكودي الحظ ملقاة على الرمال وبين الاشجار .

فلما وصل الجيش المنتصر الى الأبيض أطلقت المدافع تحية له ، ودخل المدينة باحتفال عظيم.

■

مكث شفيق في الأبيض بعد ذلك حينا وهو يترقب فرصة لعله يستطيع العودة الى الخرطوم، ولكنه لم يكن يستطيع الفرار وحده لأنه لا يعرف الطريق فضلا عن أنه لا يأمن

غائلة أنصار المتمهدي اذا كشفوا أمره. فلبث صابرا على مثل الجمر، وقلبه لا ينفك مشتغلا بوالديه وحبيبته، ولا عزاء له الا صورة فدوى يتأملها كلما خلا الى نفسه ويطلق لدموعه العنان حتى يشفى غليله، ثم يعود الى التفكير في وسيلة لنجاته من تلك الاصقاع والعودة الى الديار المصرية، أو على الاقل في ارسال كتاب يبشر أهله ببقائه على قيد الحياة.

وكان حسن يجتمع به أحيانا فيتحادثان في شؤون كثيرة أخصها تدبير الوسائل للخروج من ذلك السجن فكان شفيق لا يظهر ملله من تلك الحال خيفة ان ينسب اليه الجبن او ضعف العزيمة.

وكان يترقب ورود جواسيس المتمهدي ليطلع منهم على حركات الحكومة المصرية ومقاصدها بعد انكسار حملة هيكس، فلم يكن يسمع الا باتساع سلطة المتمهدي وانتشار نفوذه في الاقطار السودانية، فلم يمض بعض سنة ١٨٨٤ حتى أصبح معظم السودان على دعوته، وسلمت له مديريات: دارفور، وكوردفان، وبربر، وبحر الغزال، وغيرها. ولم يبق من السودان في حوزة الحكومة المصرية الا بعض المدن التي فيها حاميتها كالخرطوم وسنار وكسلا وسواكن، وبعض المدن في خط الاستواء.

وأخيرا علم شفيق من أخبار الجواسيس ان الحكومة الانجليزية أشارت على الحكومة المصرية بأن تخلي السودان، فيئس من العودة الى مصر وأخذ يندب سوء حظه ويأسف على ما ساقه الى تلك الحالة وقد كان في غنى عنها.

وفي صباح يوم من أيام سنة ١٨٨٤ رأى في منامه فدوى وقد شفها السقام حتى أشرفت على الموت، فاستيقظ مرتعبا وتناول صورتها وأخذ يقبلها ويبكي بكاء مرا حتى كاد يغمى عليه على انه لم يكن يستطيع التمادي في اظهار عواطفه خوفا من انكشاف أمره.

وفيما هو في ذلك سمع وقع اقدام خارج الحجرة، فذعر وسارع الى اخفاء الصورة وكظم ما به، ثم التفت الى الباب فاذا بصديقه حسن قادما اليه وعلى وجهه أمارات السرور، فاستبشر وسأله: «ما وراءك يا حسن؟».

قال: «أبشر بقرب الفرج يا عزيزي».

فقال شفيق: «من لنا بالفرج ونحن هنا، ودون الوصول الينا خرط القتاد؟».

فقال حسن: «ليس شيء على الله بعسير، وقد قررت الحكومة الانجليزية ارسال غوردون باشا الى هذه الديار لاخماد الثورة وتلافي الاحوال وأنا واثق بأنه سيفوز باذن الله».

فقال شفيق: «ومن قال لك ذلك؟».

قال: «أتظن المهدي غافلا عن استطلاع أحوال عدوه، ان له في مصر نفسها جواسيس يبعثون اليه بالكتب والاخبار عن كل أحوال البلاد، وقد جاءنا أمس رسول بكتاب من أحد

أعيان الصعيد ينبىء بعزم الحكومة الانجليزية على ارسال غوردون باشا بلا جيش لتدبير هذه المسألة» . . .

فقال شفيق : « كيف يمكن تلافي الاحوال وقد آمن بالمهدي أهل السودان كافة ، وهو لا يقبل الا أن يمنح كل مطالبه ، وهي تقضي بزوال السلطة المصرية ، بل الرجل طامع في عرش مصر بل في عرش الخلافة بالاستانة. وان شئت فقل انه لا يقنع الا بفتح العالم، ولا سيما بعد ان ساعدته المقادير وانتصر في وقائع عدة. ولا يخفى عليك ان ما حل بجيش هيكس المنكود الحظ لم يكن الا تنشيطا لمشروع هذا المتمهدي، لأنه صرح في منشوراته الى أتباعه بأن من علامات المهدوية عدا الخال الذي على خده ان النصر يرافقه حيثما توجه، وان علما أبيض يتقدمه حيثما سار لجهاد ، وقد رأيت ان جميع حروبه جاءت بنتائج أيدت دعواه ، فاذا راجعت تاريخ ظهوره منذ كان فقيها يعلم الناس الصلاة والعبادة في جزيرة أبا حتى بلغ نفوذه هذا المبلغ وانتشرت سطوته في سائر أقطار السودان ، رأيت ان المقادير كانت تساعده وتوفق مساعيه تأييدا لدعوته . فاذا كانت الحكومة لم تقدر على تلافي خطر المتمهدي عند اول دعوته في جزيرة ابا وهو وحيد ليس حوله الا قليل من طلبة العلم، فكيف تستطيع ذلك الآن بعد أن ثبتت دعواه لدى أهل السودان أجمع ؟».

فقال حسن : «لاأنكر استفحال أمر هذا الرجل لاستخفاف الحكومة المصرية به أول الامر حين ظهر بدعوته في جزيرة أبا، اذ بعثت اليه حكمدارية الخرطوم نفرا من العلماء يأتون به اليها فأهانهم، ثم بعثت اليه نفرا قليلا من الجند فقتل معظمهم ، وظلت الحكومة مستخفة به، بينما واصل هو نشر دعوته بين أهل السودان متظاهرا بأن قصده الوحيد نصر الاسلام، وانقاذ المسلمين مما حاق بهم من الاستبداد لاهمالهم فروض دينهم. فكان هذا داعيا الى التفاف العامة حوله حتى آل الأمرالى ما ترى، ولكن لا يخفي عليك ان غوردون باشا لايقل اعتبارا في عيون أهل السودان عن المهدي، لانه حين تولى حكمدارية السودان أظهر من العدل والحنو والرأفة واللطف والدعة ما حببه الى الناس ، ولا سيما بعد ان ألغى في عهده بيع الرقيق ، ولهذا أرجو انه اذا جاء الآن لا يعجز عن تلافي مسألة المهدي بوجه من الوجوه».

فأطرق شفيق مفكرا وقال : «ان غوردون باشا حرر السودانيين من الرق حقا ، ولكن أمر المهدي قد استفحل بعد ان بايعوه على الطاعة والجهاد ، ورأوا من انتصاره في الحروب ما أيد دعوته ، ولا تنس انه استحوذ على عقول أكثر القواد السودانيين مثل : ولد النجومي ، وأبي عنجر ، وأبي جرجه فضلا عن خلفائه : ولد الحلو ، وعبد الله التعايشي ، ومحمد الشريف ، وقائده عثمان دقنا الذي أتى بالمعجزات في حروبه بالسودان الشرقي ،* وغير هؤلاء من القواد

العظام . على اني لأعجب غاية العجب من ارسال غوردون باشا وحده في هذه المهمة التي قصرت دون حلها الجيوش ،وكان على الحكومة المصرية اذا ارادت قهر هذا الرجل ان ترسل اليه جيشا منظما مخلصا لها لا كجيش هيكس باشا الذي كان معظمه من الجنود العرابيين» .

فقال حسن : «ما أظن ان الحكومة المصرية تعجز عن ذلك ، ولكنها لا تستطيع ان تفعل غير ما تشير به دولة انجلترا ، فانها هي التي أشارت عليها باخلاء السودان وارجاع الحامية من الخرطوم وغيرها ، ولما لم توافقها الوزارة المصرية أصرت على وجوب الاخلاء فاستعفت الوزارة الشريفية وخلفتها الوزارة النوبارية ووافقت على اخلاء السودان، فانفذت انجلترا غوردون باشا لكي يسترجع الحاميات ويعيد حكم السودان الى ما كان عليه قبل ان يفتحه محمد علي باشا» .

فقال شفيق : « هب كل ذلك صحيحا ، فما الذي يترتب عليه من النفع لنا، اذا كان غوردون آتيا لاسترجاع الحاميات فليس هنا حاميات نرجع معها !» .

فقال حسن : « فلنتوكل على الله والله مع المتوكلين» . ثم عاد حسن الى بيته ، وعاد شفيق الى هواجسه .

ثم انتبه بغتة والتفت الى ما حوله قائلا : « ما لي ولهذه الهواجس ، انني هنا في بلاد الحرب والقتال ، ولا بد لي من الصبر والجلد والحزم شأن الرجال» .

وألقى بنفسه على العنقريب لعل النوم يخفف ما ألم به من التعب بسبب تلك الهواجس .

وما لبث قليلا حتى سمع نقرات الدفوف اشارة الى عرض الجند، فخرج باللباس الدراويش الى ساحة العرض خارج المدينة ، وهو يفكر فيما عسى أن يكون سبب ذلك ، وفي الطريق لقيه حسن فسأله عن السبب فقال: «تمهل وستعلم كل شيء عما قليل » . فخفق قلبه وخاف ان يكون في الامر ما يخشى منه . وما ان انتهى العرض وعادت الجيوش الى أماكنها حتى سار بجانب حسن، حتى بعدا من الجمع فقال له حسن : «ألم تشاهد الرجل الذي جاءنا اليوم محاطا بالحراس » . قال : «نعم ولعله أسير» . قال : «لا . . ولكنه رسول من غوردون باشا أرسله من الخرطوم » .

فقال شفيق متلهفا : « وهل جاء غوردون الى الخرطوم ؟ وماذا يريد بهذه الرسالة ؟» .

قال : «انه بعث يؤكد للمهدي انه جاء لانقاذ المسلمين وفتح طريق الحج الى البيت الحرام مظهرا رغبته في توطيد دعائم السلم ، وطلب الى المهدي ان يطلق سراح من في حوزته من الأسرى النصارى والمسلمين من رعايا الحكومة ، على أن يعين في مقابل ذلك مديرا لكردفان» .

فقال شفيق : « وهل تظن المهدي يجيبه الى طلبه ؟» .

قال : « يا حبذا ذلك ، لأننا نكون ممن يطلق سراحهم ، ولكني لا أظنه يقبل بعد ان اتسع نطاق سطوته ونفوذه ، ولذلك رأيته قد أمر بعرض الجيش أمام الرسول ليبين له قوته».

فقال شفيق : «لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وماذا ترى ؟».

قال : «أرى انه لم يكن من حسن السياسة ارسال غوردون وحده من اقاصي المغرب الى أواسط افريقية ليخمد ثورة المهدي التي جعلت السودان شعلة ثورة بلغ لهيبها أقاصي أفريقيا بل لقد مس شعاعها أقطار آسيا ، وسيرفض المهدي ذلك الطلب ، ولا سيما بعد ان أيقن بالفوز واعتاد رجاله النصر والاستخفاف بالحكومة المصرية . وزد على ذلك ان السودانيين يكرهون الجنس التركي ، وهم يرون كل من لبس الطربوش تركيا، واذا تأملت فيما كتبه غوردون الى المتمهدي فسترى انه مما يزيده طمعا في النصر والاستخفاف بعدوه ، فهو قد أساء الى الحكومة المصرية بقتل حامياتها وسلب حقوقها، ولكنها بدلا من أن تقتص منه بعثت على لسان غوردون تكافئة بتوليته كوردفان !».

فقال شفيق : « لنصبر الى الغد لعلنا نصيب خيرا باذن الله والله مع الصابرين». ثم افترقا ومضى كل منهما لشأنه.

وأمضى شفيق ليلته مسهدا يدعو الله ان يجيب المهدي طلب غوردون لتتاح له العودة الى مصر ورؤ ية فدوى . ثم لاح له انه حتى لو رفض المتمهدي ذلك الطلب قد يستطيع ارسال كتاب الى فدوى أو والديه مع رسول غوردون.

وفي الصباح توجه الى حسن وسأله عما انتهى اليه رأى المتمهدي في خطاب غوردون ، فقال حسن : « لقد رفض كما توقعت وكتب الى غورون مؤكدا انه لم يقم بجهاده رغبة في الدنيا ولا ليتولى كوردفان أو غيرها، وأن النصر مقدور له لأن النبي (ﷺ) بشره بسقوط كل من يناوئه . ثم طلب من غوردون نفسه ان يؤ من بدعوته وينتظم في سلك الدراويش، وبعث اليه مع الرسول صرة بها جميع ما يحتاج اليه الدرويش من الملابس !».

فقال شفيق : «ومتى يسافر الرسول ؟». قال : «يسافر في صباح الغد».

فتساقطت عبرات شفيق على الرغم منه وسكت، فابتدره حسن سائلا عما أبكاه، فقال : «تذكرت والدي اللذين ربياني بدموعهما وضحيا بكل شيء من أجلي، وهما الآن ولا شك يحسبانني في عالم الأموات وقد لبسا على الحداد».

فقال حسن : « اننا جميعا في مثل هذا المصاب يا أخي ، وهذا قضاء الله».

فتنهد شفيق وقال : «ان بقائي هنا دون علم والدي يقضي عليهما لا محالة، فأنا وحيدهما وقد علقا آمالهما بي، وكنت اذا غبت عن البيت ساعة قلقا لغيابي، فكيف يكون حالهما وقد

جئت الى هذه الديار مع حملة علما بأنها بادت عن اخرها ؟».

فقال حسن : «لعلك تريد ان تبعث مع رسول غوردون بكتاب الى والديك ؟».

قال : «حبذا ذلك». فقال : «هذا أمر عسير جدا، لأن الرسول محجور عليه ولا يباح لأحد ان يخاطبه في شيء، ولكن اكتب الخطاب فلعلي أجد وسيلة لارساله مع من سيصحبون الرسول في عودته من رجال الامير عبد الحليم. ولكن يجب عليك ان تختصر الكتاب ما أمكن، وتطويه بحيث يستطيع الرسول اخفاءه في ثنايا ثوبه أو نعله».

فشكره شفيق وجاء بورقة في حجم الكف وكتب فيها يقول :

«سيدي الوالدين . أكتب اليكما من الأبيض حيث قدر لي أن أكون في عداد الدراويش في أمن وسلام لولا البعد عنكم، ولا أدري متى يتاح لي الرجوع، فاصبرا حتى يأتي الله بالفرج ، واكتبا الي مع حامل كتابي هذا . . شفيق».

ثم فكر في أمر فدوى وخجل ان يذكرها في كتابه ، فلا يكون أبوه قد علم بأمره معها بعد ، أو يكون غير راض عن خطبتها، وأخيرا رأى ان يوجه الكلام عن فدوى الى والدته فكتب تحت ذلك الكتاب حاشية قال فيها: «أرجو من والدتي ان تخبر فدوى بأني باق على العهد ، فاذا رأت سعادتها في البقاء عليه فبها ونعمت، والا فهي في حل من أمرها، والأمر لله».

ثم طوى الكتاب ودفعه الى حسن ليسلمه الى الرسول، وأعطاه له عشرين ريالا على ان ينقده ضعفها حينما يأتي بالجواب . وجعل العنوان على قنصلية انجلترا بالقاهرة ، فان لم يجد الرسول أباه هناك، سلم الكتاب لوالد فدوى في بيته.

فأخذ حسن الكتاب وسلمه الى الرسول ، ثم عاد وأخبر شفيقا بذلك

■

كان والدا شفيق قد اشتد بهما الحزن لفقده حتى كرها الاقامة بمصر ، ولم تكن سعدى قد أطلعت زوجها على شيء من أمر فدوى ، لكنها كانت تنتهز الفرص لمشاهدتها للاجتماع بها حيث تتشاكيان الأحزان.

وفي ليلة من ليالي سنة ١٨٨٤ كانت سعدى جالسة في غرفتها فدخل زوجها وبيده صحيفة (لسان الحال) . وكان يطالع فيها وعلى وجهه بعض الانبساط مع ما كان فيه من شدة الحزن ، فاستغربت سعدى ذلك منه، وتطلعت اليه متسائلة فابتدرها قائلا : «لقد دنا الوقت الذي يباح لي فيه ان أطلعك على ذلك السر، بعد ان مات الأمير عبد القادر الجزائري ولم يعد علي رقيب».

فلم تفهم مراده وأصغت لسماع تتمة كلامه، فقال : «هاتي الكتاب الذي عهدت اليك في حفظه ».

فسارعت الى النهوض وتوجهت لاحضار ذلك الكتاب، ولكنها لم تجده حيث وضعته ، وعبثا حاولت البحث عنه، فعادت الى زوجها قلقة مضطربة وقالت له : «لعلي وضعته في مكان لا أتذكره الآن . وسأواصل البحث عنه حتى أجده بأذن الله».

فاشتد غيظه لضياع الكتاب ، وتركها ومضى الى حجرته قلقا متكدرا ، فلم تجرؤ على مخاطبته في شيء.

وفي الصباح التالي قال ابراهيم لزوجته : «ان المقام بهذه الديار لم يعد يحلو لي، ولا سيما بعد فقد ولدنا ، وأرى ان نبيع أمتعتنا ونهاجر من مصر الى لبنان فنتخذ لنا مسكنا في قرية من قراه نقضي فيها بقية حياتنا».

فوافقته على ذلك، ولم تمض أيام حتى هاجرا الى لبنان، وأبى خادمها الأمين أحمد الا أن يرافقهما ليكون عونا لهما في السراء والضراء .

أما فدوى فظلت تزداد سقاما يوما بعد يوم حتى خاف أبوها عليها الهلاك، وكان كثير التعلق بها لأنها وحيدته ولما آنس فيها من الخلال الحميدة ، فلما رأى ما ألم بها من النحول بسبب حبها لشفيق ، عمل على ان ينسيها ذلك الحب وراح يتخذ كل وسيلة يراها مؤدية الى ذلك. ومن هنا أصبح ميالا الى الاجتماع بعزيز والاستماع لمشورته في هذا الشأن.

فلما وصف لها الاطباء السفر الى الشام لترويح النفس في ربى لبنان الجيدة الهواء ، سارع الى اجابة هذه الرغبة ، معتقدا ان بعدها عن القاهرة ربما يعينها على السلوان، وعرض عليها الامر فلم تمانع، فأعد عدة السفر ، واصطحبها وبخيتا وخادمين آخرين، تاركا امرأته في البيت مع بقية الخدم ، ثم ركبوا القطار الى الاسماعيلية ليسيروا منها الى بور سعيد ومن هناك يبحرون الى بيروت.

وودعهم عزيز في المحطة وقد أضمر ان يقتفي أثرهم بعد حين الى لبنان لعل المقادير تساعده في نيل مرامه.

وبعد مسيرة يومين بالباخرة في بحر الروم، وصلوا الى ميناء بيروت ، فأعجبهم موقعها عند سفح لبنان الشامخ الآكام ، الذي لم يحل ارتفاعه الهائل دون اكتساء جباله المناطحة للسحاب بأنضر الأشجار.

واتفق وصولهم في يوم رق أديمه واعتل نسيمه، فلاحت لهم قمم ذلك الجبل القديم العهد مكسوة بالثلج الأبيض الناصع ، وكانت كل رباه الخضراء قد غسلها المطر الذي لازمها أسبوعا فأصبح منظره من أبهج ما يكون.

وأخذ الباشا بيد ابنته فدوى وأشار الى تلك المناظر الطبيعية وقال لها : «تأملي يا عزيزتي هذه الآكام الممتدة على مدى النظر وسبحي الخالق العظيم الذي فجر الماء من أعلى قممها فاكتسبت خضرة بهيجة بين أشجار وأعشاب، تتخللها قرى صغيرة، كل قرية على أكمة أو في سفح أكمة، وبيوتها بيضاء متفرقة بين الزرع كأنها أحجار كريمة على ديباجة خضراء. وانظري الى هذه المدينة الجميلة القائمة على مرتفعات لطيفة عند سفح هذا الجبل، ان أبنيتها الشاهقة مختلفة الالوان ، وفي سقوفها القرميدية الحمراء وما يحيط بها من الحدائق الخضراء ما يجعلها بهجة للناظرين

وكان يقول ذلك وينظر الى وجه فدوى ليرى ما يكون منها، فاذا هي ساكتة لا تبدي جوابا فظنها تتأمل جمال ذلك المنظر ، ثم ركبوا عربة أوصلتهم الى فندق بسول على الشاطىء، فوجدوه حسن الموقع لا تنفك الأمواج تضرب أساسه ليلا ونهارا فهيأ صاحبه حجرة لنوم الباشا وابنته واخرى للخدم ، فلما دخلت فدوى الغرفة استقبلت المرآة في صدرها، فارتاعت لما رأت نحولها فألقت بنفسها على السرير وهي تغالب الحزن والبكاء.

وبعد الاستحمام وتغيير الثياب وشرب المنعشات والاستراحة من وعثاء السفر ، تناولوا الغداء ، ثم خرج الباشا بقباء شتوي لمشاهدة غرف الفندق فقابله أحد خدمه وذهب به الى غرفة الاستقبال المطلة على البحر، فأشعل سيجارة وجلس بجانب النافذة يسرح نظره في البحر الهادىء وصوت أمواجه .

أما فدوى فلبثت في الحجرة ترتب الثياب، وفيما هي تقلب محتويات صندوقها عثرت بصورة شفيق فتناولتها وأخذت تتأمل فيها وتذرف الدموع حتى بللت ثيابها وخارت قواها فألقت بنفسها على السرير والصورة في يدها وهي لا تعلم ، فأخذتها سنة من النوم . وفيما هي كذلك عاد أبوها فلما رآها على تلك الحال علم انها نامت باكية، ثم لاحت منه التفاتة الى يدها فاذا فيها صورة شفيق ، فانتزعها من يدها وهي لا تدري وأخفاها في مكان بالغرفة ، ثم خرج عائدا الى قاعة الاستقبال.

ولما أفاقت فدوى افتقدت الرسم فلم تجده فأخذت تبحث عنه فلم تقف له على أثر، وفيما هي في ذلك دخل عليها أبوها، فلما أخبرته بفقدها رسم شفيق تظاهر بمشاركتها في البحث عنه، وأخذ يحاول اقناعها بأنه ربما سقط منها في البحر وهي غائبة عن صوابها

وفهمت من كلامه انه مغتبط لفقد ذلك الرسم فصبرت حتى خرج، وبعثت الى بخيت وأطلعته على الامر فوعدها بأن يبحث عن الرسم ويأتي به ولو كان في لج البحار.

■

لاحظ صاحب الفندق ان الباشا يبدو قلقا مهموما، فجاء اليه وحياه ، ثم أخذ يجاذبه أطراف الاحاديث لاستطلاع أمره الى أن قال : «لعل الهانم لم تسر بنزولها بهذا الفندق لعدم وجود سيدات فيه».

فقال الباشا : «هذا صحيح ، ولا سيما ان تقاليدنا لا تسمح لها بالظهور أمام الرجال كما يفعل الافرنج ومن يقلدونهم».

فقال صاحب الفندق : «اذا أذنت سعادتك ، فان زوجتي تتشرف بمعرفة ابنتكم لعلها تأنس بها في وحدتها » . فوافقه الباشا وشكره .

فخرج صاحب الفندق وأخبر زوجته بأن عنده سيدة مصرية تود الاستئناس بها ، فلبست أحسن ما عندها من الثياب والحلى وسارت معه حتى دخلا على الباشا فاستقبلها مطرقا ولم يرفع اليها نظرة جريا على عادة بلاده، ثم عهد الى بخيت في ان يسير بالسيدة الى فدوى ويعرفها اليها لعلها تستأنس بمعاشرتها في وحدتها ، وسار بخيت أمام زوجة صاحب الفندق حتى وصل الى باب غرفة سيدته ، فأوقفها خارجا ودخل وحده ليستأذنها ، فرآها متكئة مبهوتة لا تبدي حراكا، فأخذ يلاطفها ويسري عنها ثم قال لها : «ان زوجة صاحب الفندق بالباب، وقد جاءت لتحيتك فهل أدعوها اليك ؟».

فقالت : «دعني يا بخيت ، اني غير قادرة على لقاء أحد الآن».

فقال : « انك يا مولاتي توقدين في قلبي نارا تحرق حشاشتي بهذا الكلام ، ولا أقول لك شيئا الآن سوى اني مستعد لان أبذل حياتي في سبيل مرضاتك ، فانهضي غير مأمورة وأذني للسيدة في الدخول ، فان لم تؤانسي منها تعزية فلا تعودي الى مجالستها مرة أخرى ، على ان أهل هذه المدينة كلهم يجيدون الحديث والمؤانسة لتعودهم لقاء الغرباء».

فقالت : «دعها تدخل». ونهضت ترتب ثوبها وتنظم غرفتها ، فلما دخلت المرأة قابلتها بوجه باش وأذنت لها في الجلوس. فبادأتها المرأة بالحديث قائلة : «أهلا وسهلا بك يا حبيبتي، انك شرفتنا بقدومك».

فأجابتها فدوى بما عهد في أهل مصر من اللطف والدعة وحلو الحديث . ثم جرى الحديث بينهما في شؤون مختلفة ، الى ان تطرقتا الى ذكر الملابس والحلى فنظرت زوجة صاحب الفندق الى سوار من الذهب المرصع بالياقوت والماس كانت فدوى تتحلى به وقالت : «لعل هذا السوار من صنع أوربا، انه في غاية الاتقان».

فقالت فدوى : «نعم هو من صنع أوربا، ثم نزعته من يدها وناولتها اياه قائلة : « هل يستطيع الصاغة عندكم أن يصنعوا مثله ؟».

فقالت : «ان الصاغة عندنا مشهورون بالمهارة والحذق ، وجميع مصوغاتنا من

صنعهم». ثم أشارت الى سوار في يدها ، ونزعته وناولتها اياه قائلة : «انه من صنع صاغتنا»
فتأملته فدوى فاذا هو مصنوع من الذهب ومرصع ترصيعا جميلا.
ثم مدت صاحبة الفندق يدها الى شعرها وانتزعت دبوسا مرصعا بالماس ناولتها اياه وقالت : «هذا من صنع أوربا على ما أظن».
فتناولت فدوى الدبوس، وما تأملته حتى اشتد وجيب قلبها ورجفت ركبتاها، لانه يشبه الدبوس الذي أعطته لشفيق، ثم تحققت انه هو بعينه فازداد خفقان قلبها واصفر وجهها وأخذتها الرعدة وتلعثم لسانها وبردت أطرافها . فأدركت زائرتها ذلك ولم تفهم له معنى لأنها لم تعلم له سببا.
أما فدوى فإنها حاولت اخفاء عواطفها فلم تستطع لأن الدموع سبقتها، وأرادت ان تسألها كيف وصل هذا الدبوس اليها فلم تستطع وخافت الفضيحة فأسندت رأسها الى وسادة المقعد متظاهرة باضطراب صحتها فوقع الدبوس من يدها فتناولته المرأة وشكته في شعرها قائلة : «لا أراك الله سوءا يا ابنتي ما هذا الاضطراب الذي اعتراك؟ هل تأمرين باستدعاء الطبيب ؟».
فقالت : «لا حاجة الى الطبيب الآن ». قالت ذلك وهي ترتجف ، فنهضت المرأة واستأذنت في الانصراف ، ثم سارعت الى اطلاع زوجها على الامر ليخاطب والد الفتاة في شأنها.
ودخل بخيت على فدوى فرآها على تلك الحال، فسألها عن شأنها فأخبرته بأمر الدبوس وقالت : «أريد منك ان تستطلع هذا الأمر وتعرف كيف وصل الدبوس الى هنا».
فقال : «سمعا وطاعة ». وخرج وهو لا يقل عنها دهشة.
ومضت زوجة صاحب الفندق اليه وقصت عليه قصة الفتاة وقالت: «لعلها مصابة بمرض من الامراض العصبية ، ومما يدل على ذلك شدة ضعفها وسرعة تأثرها، فيحسن ان تخبر أباها بذلك وتشير عليه باستدعاء الطبيب ، لأني أضن بهذه الفتاة لما شاهدت من لطفها وجمالها».
فاستصوب الرجل رأيها وقال : «سأغتنم فرصة مناسبة وأذكر ذلك أمامه».
ولما كان وقت العشاء طلب الباشا الطعام في الغرفة ، ثم تغير الجو تلك الليلة وتساقطت الامطار غزيرة ، فآثر الاستدفاء بالفراش . وقضت فدوى ليلتها مشغولة البال بأمر الدبوس.
نهض الباشا في صباح اليوم التالي ، فرأى فدوى في حالة يرثى لها من الضعف والاصفرار ، فقلق على صحتها وعزم على ان يأتيها بالطبيب، فسار بعد الغداء الى قاعة الاستراحة وبعث الى صاحب الفندق فلما حضر قال له : «أريد استدعاء أشهر طبيب في بيروت لمشاهدة

ابنتي».

فقال: «ان لكل طبيب شهرة في فرع من فروع الطب».

قال: «أريد أشهر طبيب في الامراض العامة».

فقال: «في هذه المدينة طبيب من أعرف الاطباء بهذه الأمراض وان يكن مشهورا ببراعته في علاج أمراض العين، وهو الدكتور (ن). وفضلا عن سعة اطلاعه قد خصه الله باللطف والايناس فان كلم المريض طيب خاطره وخفف أوجاعه بلطف حديثه قبل ان يصف له الدواء. وقد أقام هنا خمسين عاما بين تطبيب وتدريس في فن الطب. وهو بفراسته يعرف الداء بالنظر الى المريض».

فقال الباشا: «الي به حالاً». قال: «لا يمكننا أن ندعوه الا بعد الظهر، لأنه قبل ذلك يطيب الفقراء في بعض المستشفيات مجانا». قال الباشا: «ندعوه من المستشفى، فلا بد انه يفضل المريض الذي ينقده الدراهم».

فتبسم الرجل قائلا: «لا يا سيدي انه على نقيض ذلك يفضل تطبيب الفقراء، بل هو يساعدهم في الحصول على الدواء وغيره. وله صدقات يجريها على عائلات كثيرة كل شهر في الخفاء».

فقال الباشا: «اذن ندعوه بعد الظهر». قال: «سمعا وطاعة».. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر وقفت عربة أمام باب الفندق، ونزل منها شيخ في نحو السبعين من عمره يمشي على عصا لكن من غير تحدب ولا خمول، وهو سريع الحركة قصير القامة خفيف الجسم طويل اللحية خفيفها، وعلى عينيه النظارات. فاستقبله صاحب الفندق وأخبر الباشا بأن الطبيب حضر، فخرج الباشا لاستقباله، وعاد معه الى غرفة الاستراحة فآنس الباشا منه فوق ما سمعه عنه من اللطف والدعة، فأثنى عليه ثناء جميلا الى أن قال: «لقد وددت لو أكون مريضا فأتمتع بتطبيبك. ان حديثك لأشهى من الترياق». فلم يرد الطبيب على هذا المدح فرارا من مدح آخر.

ثم تحادثا قليلا الى أن قال الباشا: «قد دعوتك يا حضرة الطبيب لأستشيرك في أمر ابنتي وقد جرأتني اخلاقك الشريفة على سر لم أطلع عليه أحدا في هذه المدينة». فقال: «قل ما بدا لك».

فقص الباشا قصة ابنته مع شفيق الى أن قال: «وقد وقعت في حيرة الآن لأن الفتاة كلفة بذلك الشاب كلفا شديدا، ولا أنكر عليك اني أحبه أيضا، لأنه انقذني من الموت وآنست منه شهامة غريبة، ولكني لا أرى فائدة من بقائها على حبه بعدأن تحققنا ان الحملة التي سارمعها قد

هلكت بأجمعها».
فقال الطبيب : « هل حاولتم ان تشغلوها بشأن من الشؤون ؟».
قال : «نعم ولكن بلا فائدة».
فقال : « ان أفضل طريقة على ما أرى ان تشغل الفتاة عنه بما ينسيها اياه تدريجيا ، ولقد أعجبني منها محافظتها على العهد ، ولكن ليس في اليد حيلة».
فقال : «وكيف نشغلها عنه ؟».
قال : «اشغلوها بالاسفار من بلد الى آخر ، والسفر في جبل لبنان أفضل ما يكون ، ولكن هذا الفصل فصل شتاء فلا تستطيعون التجوال في انحاء الجبل، فامكثوا هنا ريثما ينقضي هذا الفصل ويحلو المقام على ربى لبنان فتتمتع الفتاة بهوائه».
فقال الباشا : «ولكن ما العمل الآن ، وهي لا تنفك تفكر في ذلك الشاب ليلا ونهارا ، وكلما زدت في تسليتها عنه زادت شغفا به ؟».
فأجاب الحكيم وهو يمسح النظارات بمنديله الحريري : «تلك عادة أهل الغرام ، كلما زدتهم لوما زادوا هياما ، فالأولى ان تغض الطرف عن ذلك ، واذا ذكرت حبيبها فاذكره بالجميل مع الاشارة الى الدهر الذي يقضي على المحبين بالفراق، واشغلها بالأمل البعيد حتى يقضي الله بما يشاء».
فتأوه الباشا ثم قال : «والله انك لأحسن من يعزي عن المصائب فهل لك ان تتردد علينا حينا بعد حين».
قال : «سأفعل ان شاء الله، ولكن ربما كان الأفضل ان تذهب بها الى زيارة منزلي بقرب المنارة فإنه في مكان يشرف على البحر من جهة وعلى الجبل من جهة أخرى».
ظلت فدوى معتكفة في غرفتها ، مشغولة بالبحث عن صورة شفيق، فلم تترك مكانا هناك الا بحثت فيه، لكنها لم تقف للصورة على أثر ، فلاح لها ان أباها أخفاها في جيبه فعزمت على البحث عنها في ثيابه بعد نومه ليلا. ثم ألقت نفسها على فراشها خائرة القوى ، في انتظار عودة بخيت.
وفي المساء عاد بخيت والدبوس بيده، فلما رأته فدوى خفق قلبها وأسرعت اليه وخطفته من يده وجعلت تقبله وتتأمله وتبكي قائلة : « هل عرفت حكايته ؟».
فقال : « لا يا سيدتي ، ولكني ذهبت الى صاحب الفندق وزعمت له انك تحبين مشاهدة الدبوس لانك أعجبت بصنعه ، وحاولت معرفة طريقة وصوله اليه، فلم يقل أكثر من أنه جاءه هدية من أحد السياح الانجليز الذين ينزلون بفندقه ».
فقالت : «لم يقل الحق ، لاني شاهدت الدبوس مع شفيق قبل سفره الى السودان ،

فكيف وصل بعد ذلك الى بلاد الانجليز ؟».

فقال بخيت : «سأواصل البحث حتى أهتدي الى طريقة وصوله، كما اني سأقلب الارض طولا وعرضا حتى أجد الرسم المفقود».

قالت : «ليس في العالم من أثق به سواك، فلا تضع أملي فيك ، والآن خذ الدبوس وأرجعه الى صاحبه ». فأخذ الدبوس وخرج.

وجاء الباشا الى غرفة فدوى بعد قليل ، فرآها أحسن حالا من ذي قبل ، فقال لها : «لقد أطلت عليك الغيبة اليوم».

قالت : «نعم يا أبتاه ، وأنت تعلم اني لم آت هذه البلاد لأسجن في هذه الحجرة ».

قال : «كنت أبحث عن مكان نخرج اليه للنزهة، وقد دعانا الدكتور (ن) الشهيرلزيارة منزله غدا وهو في طرف المدينة يطل على البحر والجبل».

قالت : «وكيف دعانا الى منزله وهو لا يعرفنا ؟».

قال : «لقد دعوته لأستشيره في أمرك ، وقد أنست بلقائه كثيرا وأحببته للطفه وكرم أخلاقه فضلا عن علمه الغزير».

«وصحيح ان الافرنج لا يدعون الى منازلهم أحدا الا بعد طول معرفة، ولكنه أمضى في هذه البلاد قرابة خمسين سنة فتخلق بأخلاق أهلها وألف عاداتهم، كما أتقن لغتهم وحفظ أمثالهم وأساليب كلامهم. وقد سمعته يورد في حديثه من الامثال الدارجة ما يتعذر ايراده على كثير من أبناء اللغة أنفسهم. وأؤكد لك انك لو جالسته ساعة لذهب عنك كل كدر، وستعرفين زوجته حين نذهب الى منزله غدا، ولا بد أن تكون قد اكتسبت شيئا من أخلاقه ولطفه وظرفه».

قالت : «اذن نذهب اليه غدا ». ثم ذهب كل منهما الى فراشه، ونامت فدوى لأول مرة منذ السفر نوما عميقا مريحا .

■

مضى بخيت الى صاحب الفندق فرد اليه الدبوس وقال : « ان سيدتي سرت كثيرا باتقان صنعه وتحب معرفة المكان الذي صنع فيه لتوصي بصنع مثله ».

قال : « قلت لك انه صنع في أوربا وقد أهداه الي سائح انجليزي، ولم أسأله عمن صنعه هناك، ولو أن الهدايا لا تباع ولا تشرى لقدمناه لحضرة السيدة».

فشكره بخيت ثم ذهب الى عبود طباخ الفندق، وكانا قد تعارفا وتحابا،فدعاه هذاالى

حجرته ، ثم دعاه الى مشاركته شراب (العرقي) . فتظاهر بالقبول ، وأخذ يسكب على الارض كل قدح يملؤه له دون ان يشعره بذلك حتى فرغت الزجاجة او كادت ، وسكر الطباخ فقال له بخيت : « ان موقع هذا الفندق جميل جدا ولا سيما في فصل الصيف ، فإنه يشرح الصدر لقربه من البحر».

فقال الطباخ : « صدقت ولكنا نسر في الشتاء لكثرة السياح فإنهم يأتوننا جماعات من أقاصي البلاد».

فاستبشر بخيت بذكر السياح آملا ان يعرف شيئا عن وصول الدبوس الى هناك فقال:«وما الذي يحملهم على المجيء الى هذه الديار في هذا الفصل».

قال : « انهم يأتون الى يافا ويسيرون منها الى بيت المقدس لزيارة قبر المسيح، ثم يأتون الى هنا غالبا في أوائل الربيع لمشاهدة أشجار أرز لبنان المشهورة بقدم عهدها حتى ليقال انها باقية من أيام سليمان».

قال بخيت : « انهم يزورون مصر في فصل الشتاء لاعتدال الهواء هناك ».

قال : «نعم وهم يأتون من مصر الى يابا ، ولكنهم لا يستطيعون التجوال هنا لكثرة الثلوج التي تتراكم في طرق جبل لبنان، والمهم انهم ينفقون أموالا طائلة فنكسب منهم كثيراً».

فقال بخيت وقد رجا قرب الوصول الى مبتغاه : «هل يعطونكم هدايا من الثياب أو الحلى ، أم يكتفون بالنقود ؟».

قال : «هم يعطوننا نقودا وهدايا من الثياب والحلى وغيرها، ولكني أفضل النقود طبعا».

فقال بخيت : « ولكن اذا أعطوك قطعة حلى مثل دبوس رقبة مثلا، أفلا تفضله على الدراهم ؟».

قال : « وما أصنع بالدبابيس وأنا لا ألبس ثوبا أفرنجيا، ولو أعطيتني حلة أفرنجية ما لبستها وكذا لو أعطيتني قطعة حلى فإني أفضل بيعها واذا كنت لا تصدق فاسأل معلمي الخواجة بسول ، فهو قد خبرني جيدا منذ جئت من بلاد السودان».

فسر بخيت لمعرفته أن صاحبه كان في السودان وقال له : « انك مغربي يا عزيزي فكيف ذهبت الى بلاد السودان ؟».

فتغيرت حالة عبود من السكر المضحك الى الهدوء والرزانة وقال : «ذهبت اليها من مصر ، لأني كنت أذهب كل سنة الى القاهرة في فصل الشتاء لمرافقة السياح، فلما كانت سنة ١٨٨٢ مضى فصل الشتاء علي في القاهرة دون عمل لان محل كوك احتكر السياح وكان يرسل

معهم تراجمة وأدلاء من عنده ، فلما اعتزمت العودة الى بيروت سمعت بمسير حملة هيكس باشا لمحاربة المتمهدي في السودان ، وعرضت على أحد ضباط الحملة الانجليز ان يصحبني لخدمته هناك فقبل ومضيت معه حتى أتينا الخرطوم » . قال ذلك وشرق بدموعه وتوقف عن الحديث .

فقال بخيت : « لا بأس عليك يا أخي ، ما الذي يبكيك ؟ » .

فتنهد عبود وقال : «تذكرت ما مر بي من الاهوال بعد ذاك ،فقد تركني صاحبي الضابط الانجليزي في الخرطوم ، وذهب متنكرا الى الابيض حيث يقيم المتهمدي ، وابقى عندي امتعته وثيابه حتى يعود ، ولكنه لم يعد وا أسفاه ، ثم سمعنا بالقضاء على هيكس وجيشه ، ولم يسعني الا بالمهاجرة من هناك فحملت ما خف حمله من ثياب ذلك الضابط ،

وسافرت قاصدا هذه الديار عن طريق بربر ، فلما بلغتها خشيت على نفسي خطر الدراويش ، فطرحت ما كان معي من تلك الثياب ولم أبق الا بعض الأشياء الغالية الثمن ، ثم واصلت المسير الى سواكن مصطحبا أعرابيا كان ذاهبا اليها في مهمة سرية أرسله فيها حسين باشا خليفة مدير بربر ، فقطعنا نصف الطريق في بضعة أيام ، ثم علمنا ان الطريق الى سواكن مقطوعة لظهور دعاة المهدي فيها بقيادة عثمان دقنا الذي أصبح ألد عدو للأتراك ومن شابههم مع كونه تركي الاصل» .

فضاق بخيت ذرعا لطول القصة ، وأراد ان يبتدره بالكلام لاستطلاع ما يهمه ، ولكنه خاف ان يغضبه فبقي صامتا مصغيا ، وأتم عبود حديثه فقال : « فلما سمعنا ذلك وقعنا في حيرة ، وتوسلت الى رفيقي الاعرابي ان يدبر، لي وسيلة أخلص بها من تلك الورطة فأعطاني بعض ثيابه وعلمني من الكلام السوداني فوق ما كنت أعرف حتى اذا وقعنا في مشكل ندعي اننا من أهل تلك الجهات القائمين على دعوة المهدي .

وما زلنا سائرين حتى صرنا على مقربة من سنكات ، فأخبرني بأنها محاصرة وفيها حامية من الجنود المصريين ، وقد أرسلت الحكومة المصرية اليهم نجدة بقيادة رجل انجليزي اسمه بيكر باشا ، وأشار بأن ندخل سنكات بدلا من الاستمرار في السير الى سواكن ، فدخلناه وبتنا تلك الليلة قرب الحصون ، وفي الصباح تجولت في البلدة فاذا هي ليست كبيرة وأبنيتها من الآجر تتخللها بيوت من القش . وشاهدت أهلها في ضنك شديد لقلة المؤونة بسبب انقطاع المواصلات» .

بطل سنكات

واصل عبود الطباخ حديثه عن الاهوال التي لقيها في رحلته الى السودان فقال : «وفيما أنا أجول في سنكات جاءني جندي يدعوني الى مقابلة توفيق بك محافظها، فذهبت اليه في ديوانه، فسألني عما سمعته عن حملة بيكر باشا فقلت :(اني لم أسمع الا أنها جاءت لانقاذكم من هذا الحصار). فتنهد توفيق بك وهز رأسه وجعل يخاطب نفسه قائلا :(أجاءوا الينا بنساء أم برجال ؟). ثمّ قال يخاطب ضابطا بجانبه : (لقد جاء بيكر باشا في حملة لانقاذنا، ولكن الاوامر جاءته بانقاذ حامية طوكر أولا، ولكن جنوده لم يحسنوا القتال فهزمهم الدراويش واضطروهم الى العودة).

«فأخذ ذلك الضابط يخفف عنه ويهون عليه، فقال له : (اني لا أخاف الموت، ولكني أخشى العار الذي يلحق بحكومتي لاهمالها انقاذ حامية هذه البلدة التي دافع أهلها دفاعا حسنا، وكم من كتاب جاءنا من عثمان دقنا يعدنا مواعيد حسنة اذا سلمنا ولم نجبه الا بالتهديد والوعيد. وعما قريب يحل بنا ما حل بهيكس، ولكن حملته كان لها عذرها لبعدها عن مراكز الحكومة ، وجهل هذه مقر الحملة. أما نحن فمقرنا معلوم، وقد أصبحنا في حال لا تطاق) . . . ».

وكان بخيت قد سمع طرفا من قصة البطولة التي أبداها ذلك القائد الشهم فأحب الوقوف على تفصيلها، وشغل بذلك عن حكاية الدبوس، فقال : « يلوح لي أن هذا القائد من أصحاب الحزم والعزم».

فقال عبود : «نعم، وقد أعجبت باخلاصه للحكومة وعظم شهامته، وقلت في نفسي : انه اذا انحاز الى العصاة فلا لوم عليه لأنه مضطر ، ولكنه في اليوم التالي جمع ضباط مجلسه في جلسة حافلة حضرتها وخطب فيهم قائلا : (ها ان العصاة قد أحاطوا بنا من كل ناحية ، والنجدة التي أرسلتها الحكومة الينا لم تصل، والبلد في جوع مدقع. فالآن اما ان نلبث في الحصار فنموت جوعا، واما ان نخرج مستقتلين وندافع عن أنفسنا وحكومتنا ، فاذا قتلنا عن آخرنا فذلك خير لنا من التسليم لأنه لن يفيدنا شيئا، وعثمان دقنا لن يبقي علينا اذا سلمنا له.

فما رأيكم؟).

فبهت الجميع وقد سحروا بكلام ذلك القائد المملوء شهامة وحزما ، وتركوا الرأي له فقال : (أرى ان نفتح أبواب البلدة غداً بعد ان نخربها ثم نخرج منها مستقتلين فاذا لقينا الاعداء قاتلناهم الى آخر نسمة من حياتنا باسم خديوينا توفيق باشا حتى يقضي الله بيننا وبينهم ، (ولكل أمة أجل فاذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون).

«فوقعت في حيرة ، لأني لست جنديا ولا معرفة لي بالقتال ، وندمت على دخولي سنكات ، وكذلك كان شأن رفيقي فتعاهدنا على ان نفر من المدينة تلك الليلة الى معسكر العدو كما كنا قبلا ثم نذهب من هناك الى سواكن. وخرجنا في منتصف الليل وقد لبسنا المرقعيات نريد معسكر عثمان دقنا فدخلناه مولولين مستنجدين وزعمنا اننا ضللنا الطريق فمررنا بجانب سنكات ، فأطلقت حاميتها علينا الرصاص ولم ننج الا بعد الجهد والعناء . فصدقونا وبتنا تلك الليلة هناك ، وفي الصباح تركنا المعسكر وسرنا حتى أتينا سواكن . وهناك علمنا بخروج توفيق بك ورجاله من سنكات حيث أحاط بهم الدراويش من كل جانب وأفنوهم عن آخرهم ، فأسفت لمصرع ذلك البطل . ثم ركبت البحر من سواكن الى السويس ، ولم أصل الى هنا الا منذ أيام».

فقال بخيت : «ان حكايتك غاية في الغرابة ، ولكنك لم تذكر الاشياء التي جئت بها من السودان».

قال : «لقد جئت من هناك بما بقي معي من ثياب الضابط الانجليزي وفي جملتها دبوس مرصع ، فبعته لصاحب هذا الفندق بثمن زهيد اذ انه لا ينفعني».

فأخذ قلب بخيت في الخفقان ، ثم سأل عبودا عن اسم ذلك الضابط الانجليزي ، فأجابه عبود قائلا : «من الغريب ان اسمه عربي وهو الكابتن شفيق ، وكان يعرف العربية كأنه من أهلها ».

فازداد خفقان قلب بخيت ، وكاد يطير من الفرح لاكتشافه سر الدبوس ، ولكنه أسف لتذكره فقد شفيق ، وقال لعبود : «ألم تسمع شيئا بعدئذ عن ذلك الضابط ؟».

فقال : «لو كنت سمعت عنه شيئا ما برحت السودان قبل ان التقي به».

فقال بخيت : «ولكنك ذكرت انه لم يسر مع الحملة فمن الممكن ان يكون حيا بعد ؟».

قال : «آه لو أعلم انه حي ، اذن لما ادخرت وسعا في سبيل البحث عنه ، لأني لا أنسى فضله ولطفه فقد كان يحبني ويعدني بمستقبل حسن عنده».

فاكتفى بخيت بهذا الحديث ونهض فودع صاحبه شاكرا له حسن ضيافته ، وأعطاه بعض

النقود قائلا : «ان الباشا مسرور منك وقد أوصاني بأن أكرمك ». فتناول الدراهم وقبلها قائلا : «أطال الله حياة الباشا»..

ثم خرج بخيت غارقا في بحار من الهواجس ، وود لو استطاع ان يسير توا الى سيدته ليطلعها على ما سمعه، ولكنه سمع الساعة تدق عشر دقات : فسار الى حجرته على أن يقص عليها القصة في اليوم التالي.

■

أمضت فدوى تلك الليلة تحلم بأمر الدبوس ورسم شفيق. فلما أصبح الصباح، تناولت طعام الافطار مع أبيها في حجرته ، وفي الساعة العاشرة أرسل بخيتا ليأتيهم بعربة توصلهم الى منزل الدكتور (ن) . وكانت فدوى قد لبست ثيابها استعداد لهذه الزيارة وضفرت شعرها ضفيرة واحدة محلوله من طرفها وأرختها على ظهرها، فبدت غاية في الجمال رغم نحولها. ثم جاءت العربة فركبت بجانب أبيها، وركب بخيت بجانب السائق وساروا قاصدين رأس بيروت حيث منزل الدكتور .

وساروا في طريق طويل خارج المدينة ينتهي ببناء فيه المنارة التي تهتدي بها السفن الى ميناء بيروت . فشاهدوا على يمينهم قبل وصولهم الى المنارة بابا كبيرا عاريا من كل زينة، دخلوا منه الى بقعة محاطة بسوروفي صدرها باب آخر وقفت العربة عنده، فاستقبلهم خادم هناك، وأدخلهم رواقا يحف به من الجانبين حوضان مزروعان بأعشاب ونباتات مختلفة الوانها، وفي نهاية ذلك الرواق باب يؤدي الى حديقة تشرف على البحر والمنزل كله على مرتفع أشبه بتل كبير.

فلما وصلوا الى آخر الرواق ، دخل الخادم في باب صغير على يمينه اتصل منه الى مكتب الدكتور وأخبره بمجيء الضيوف ، ثم سار في طرقة أخرى الى اليسار مرصوفة بالرخام يتصل منها الى باب المنزل الحقيقي وأخبر زوجة الدكتور . فخرج الدكتور واستقبل الباشا ودخل به مكتبته ، وجاءت امرأته واستقبلت فدوى بكل ترحاب كأنها تعرفها من زمن مديد ، وأمرت بالقهوة وسائر معدات الترحاب، وبعثت الى بناتها وعرفتهن اليها، فشاركن والدتهن في الترحيب بها ومؤانستها حتى كادت تنسى هواجسها.

وأمر الدكتور للباشا بالقهوة والنرجيلة وجلسا يتبادلان الاحاديث . وكان الدكتور يرتدي فوق بذلته الافرنجية عباءة سوداء من ملابس البدو، وعلى رأسه بدل القبعة عراقية من المخمل الازرق مزركشة بالقصب تتدلى منها طرة من القصب .

ومضى نصف النهار دون ان يشعر الباشا لاستئناسه بمضيفه، ثم تنبه الى ذلك فاستأذن في

الانصراف ، ولكن الدكتور لم يتركه حتى تغذي عنده ، بينما مدت مائدة اخرى للسيدات احتفاء بفدوى.

وقال الباشا للدكتور وهما على المائدة : « اعذرني اذا تطفلت في سؤ الك عما رغبك في عادات الشرقيين والتخلق بأخلاقهم».

فقال الدكتور : « تلك عادتي في سائر ايامي ، فاني جئت الى هذه الديار واتخذتها وطنا لي ، وأحببت أهلها محبتي لاولادي ، ولا أنسى محبتهم لي واكرامهم لي» .

ثم سأله الدكتور عن صحة فدوى ، فأخبره بأنها استراحت قليلا . فقال الدكتور : « اذا كان منزلنا يفيلها فاننا نرحب باقامتها معنا اذا شاءت » . فأثنى الباشا على كرمه واعتذر عن عدم استطاعته ذلك.

وبعد تناول الغداء وشرب القهوة استأذن الباشا في الانصراف فودعه الدكتور ، وودعت زوجته فدوى بحرارة.

وفيما العربة سائرة بهم بالقرب من مدرسة طبية في الطريق الى الفندق ، خرنت الخيل ، وعبثا حاول السائق حملها على المسير ، فهبط الباشا وفدوى منها ، وأرسلا بخيتا ليحضر عربة أخرى ، ثم اخذا يتمشيان في الطريق أمام المدرسة حتى يعود اليهما.

وفيما هما يتمشيان أمام المدرسة ويتأملان في بنائها الجميل المشرف على البحر ، أمطرت السماء على غير انتظار ، فاضطرا الى دخول المدرسة للوقاية من المطر ، ووقفا هناك ينتظران مجيء بخيت بالعربة ، فجاءهما البواب بكرسيين جلسا عليهما.

ومضت ساعة دون ان يعود بخيت ، ثم حان موعد الانصراف من المدرسة فاذا بالتلامذة والاساتذة يخرجون أفواجا . وسمع الباشا قرقعة عجلات عربة خارج الباب ، فحسب أنها العربة التي أحضرها بخيت ، فخرج ليتحقق الأمر ، فوجد بالقرب منها أحد أساتذة المدرسة وهو شيخ في لباس أفرنجي أشيب الشعر كثيف شعر اللحية على عينيه النظارات ، فحياه فرد التحية مرحبا به وسأله عن غرضه ، فأخبره بما كان فقال : «ربما يتأخر رسولكم أكثر من ذلك اذ لا بد له من الذهاب الى المدينة لاحضار عربة . وهذه عربتي تحت أمرك » .

فشكره الباشا على أريحيته وقبل هذه الدعوة بعد الحاح .

ولم يكن الدكتور قد شاهد مع الباشا أحداً سواه ولذلك كان يريد الركوب معه ، فلما رآه ينادي ابنته امتنع عن الركوب معهما ، فركب الباشا وابنته وقال للسائق : « خذنا الى فندق بسول على البحر» . والتفت الى الدكتور شاكرا ، فسارت العربة حتى أتيا الفندق فلم يجدا بخيتا هناك ، فقلقا عليه ، ولكن صاحب الفندق طمأن الباشا وقال له : « لعله ضل الطريق ولا

يلبث ان يعود».

■

انقضى اليوم كله دون أن يعود بخيت، فبات الباشا وفدوى ليلتهما قلقين عليه، فلما كان الصباح جاء أحد خدم الفندق يدعو الباشا الى مخاطبة شرطي جاء يطلبه، فخرج فاذا بأحد الشرطة وبيده ورقة فلما تلاها فهم منها ان بخيتا في سجن البوليس رهن التحقيق، فلبس ثيابه وسار مع الشرطي الى دار البوليس قرب حديقة الحميدية، فلما دخل على المأمور وقف له احتراما وأجلسه بجانبه ثم قال له : « ان خادمك وأحد المصريين تشاجرا أمس ، وجيء بهما الى المخفر ». ثم أمر بإحضارهما فحضرا فاذا بالمصري الذي تشاجر معه بخيت هو عزيز.

وما وقعت عين عزيز على الباشا حتى أكب على يديه يقبلهما وقال : «عفوا يا سعادة الباشا ، لقد لقيت خادمكم هذا مساء أمس وهو مسرع نحو المدينة ، فناديته لأسأله عن سعادتكم ، فلعنني وأهانني، وسمعنا الشرطة فقبضوا علينا وساقونا الى السجن».

فقال الباشا : «لعله لم يعرفك ؟». وهنا صاح بخيت قائلا : «كلا يا سعادة الباشا، بل عرفته ولولا ذلك ما أهنته».

فقال له الباشا : «أسكت يا بخيت ، لقد جئت الآن لأصلح بينكما وأخرجكما من السجن». ثم قال الباشا للمأمور : «لقد تصالحا لأنهما من بلد واحد وكلاهما من خاصتي، وأرجو ان تأمر باطلاق سراحهما ».

فقال المأمور : « ليكن ما تريد سعادتك». وأمر بالافراج عنهما.

وعاد الباشا الى الفندق وهما معه، وفي الطريق رحب بعزيز وسأله عن سبب مجيئه فقال : «يعلم الله يا سعادة الباشا اني لم يهدأ لي بال منذ برحتمونا، ولم أر سبيلا للاطمئنان الا بالمجيء الى هنا ومشاهدتكم، فعسى ان تكون فدوى هانم بخير».

فقال الباشا : « انها بخير والحمدالله ». ثم سأله عن محل نزوله فقال: « لم أختر منزلا بعد ، وقد قيل لي أن هذا الفندق من أفضل فنادق بيروت، وقد وضعت أمتعتي في مقهى بقرب الميناء على ان أعود لأخذها بعد الاهتداء الى منزل مناسب ، فالتقيت بخادمك وجرى ما جرى».

فقال : «سنبعث من يأتيك بالأمتعة الى هنا».

وكانت فدوى في انتظار عودة أبيها فلما سمعت صوته في الدهليز المؤدي الى غرفتها فتحت الباب لاستقباله والاستفهام عن بخيت، فوقعت عينها على عزيز فارتعدت فرائصها وخفق قلبها واتقدت النار في فؤادها ، فعادت الى الحجرة وأغلقت الباب وراءها والقت

بنفسها على المقعد خائرة القوى من شدة الغيظ والتأثر .

وقد أدرك أبوها ما بها، ودخل عليها ومعه بخيت فأسرع هذا الى تقبيل يدها وقال لها : «معذرة يا سيدتي، انها حادثة عرضت وانقضت بسلام». قال ذلك وحرق أسنانه ، فأدركت ان في المسألة سرا فصبرت ريثما تخلو اليه وتعلم ما هناك.

وجلس الباشا يقص القصة عليها وهي مصغية ، حتى وصل الى ذكر عزيز فامتقع لونها وظهرت عليها أمارات الغيظ ، فلحظ ذلك منها وقال ضاحكا : «ما الذي غاظك من حديثي يا حبيبتي ؟».

قالت : «لم يغظني شيء وانما عجبت لهذا الاتفاق».

فقال : «انه اتفاق عجيب ، والرجل قد جاء من مصر غيرة علينا ، وقد سألني عنك كثيرا » . فازدادت هي غيظا حتى لم تعد تقدر على اخفاء ما بها فقالت : «وما الذي حمله على افتقاد من لم يخطر لهم في بال».

فضحك أبوها وقال : «ألا تزالين حاقدة عليه يا عزيزتي ؟».

قالت : «نعم يا سيدي ولن أزال كذلك ما بقيت حية».

فقال : «يا للعجب ، لقد عهدتك كريمة لينة الجانب لا تحملين لأحد حقدا وهذا الفتى لم نر منه بعد تلك الحادثة المشؤومة الا اخلاصا ومحبة».

فازداد اضطرابها لتذكرها شفيقا ، وأرادت التكلم فلم تستطع، فألقت بنفسها على الفراش وغلب عليها البكاء .

فحاول أبوها اسكاتها فلم يستطع ، فاغتاظ منها ونسي محبته لها وانتهرها قائلا : «كفى يا فدوى كفى، الا تزالين مشغوفة بحب الأموات ؟».

فلم تزدد الا بكاء وعويلا ، فتركها وخرج مغضبا مغلقا الباب وراءه وبعد قليل دخل عليها بخيت وقال لها : «لا تخافي يا سيدتي، وطيبي نفسا ، فلعل وقت الفرج قد دنا وقد قيل :

«ضاقت ولما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج»

فالتفتت اليه مندهشة وقالت له : «هل عندك خبر جديد ؟».

قال : «نعم عندي خبر جديد ولكني لا أخبرك به الا متى سكن روعك واصغيت الى ما أقول».

فمسحت دموعها وقالت : «ها انذا قد أصغيت فقل ما عندك ».

فقال : «ان هذا الخائن اذا بقي حيا الى الغد فلن يبقى الى ما بعده، ولو ساعدتني الاقدار لسقيته كأس المنون امس، ولكن ابشري فسوف اذيقه تلك الكأس عاجلا أو آجلا .

وأما الأهم من ذلك فهو أني عرفت شيئا جديدا يختص بالدبوس».

فقالت : «قل حالا ماذا عرفت ؟».

قال : «قد عرفت انه دبوس سيدي شفيق ، وعرفت الرجل الذي جاء به وهو طباخ هذا الفندق».

قالت : «وماذا قال عن شفيق ؟».

قال : «أكد لي انه لم يكن مع حملة هيكس باشا بل . . . .».

فانتفضت فدوى من الفرح وهزت بيدها كتف بخيت قائلة : «وأين ذهب اذن ؟».

قال : «ذهب يا سيدتي في مهمة سرية الى الأبيض».

فاخذت فدوى تثب في أرض الغرفة كأنها أصيبت بجنة وهي تقول : «شفيق لم يمت في الحملة ؟ ! . . آه يا شفيق هل أنت حي ؟».

فقال بخيت : «اجلسي يا سيدتي فأحدثك بكل ما سمعت». فجلست وقص عليها الحكاية كما سمعها». ثم قال لها : «على اني أرى أولا ان أقتل هذا الخائن ثم أقول لك ماذا فعل بعد ذلك».

فقالت : «أقتله لا بارك الله فيه، ولكن . .». وسكتت.

فقال بخيت : «لكن ماذا ؟. انه يستحق القتل حرقا لأنه خائن غادر».

فقالت : «لا يا بخيت ، لا تقتله ، ان شفيقا أوصى بألا نقتله فهل نخالف الوصية ؟».

فقال بخيت : «كيف لا نقتله وقد فرح بمقتل شفيق ، ألم يكتب اليك يوم سمع بمذبحة هيكس باشا يقول : «من عاش بعد عدوه يوما فقد بلغ المنى ؟ . .».

فقالت : «ان أخلاق شفيق لتأبى قتله مع ذلك ، والأمر الجدير بالاهتمام الآن هو البحث عن شفيق واذا قدرت لنا لقياه فاني أصفح عن هذا الخائن اكراما له».

وفيما هما في الحديث ، سمعا وقع أقدام فعرفا ان الباشا قادم وتظاهرا بالسكون، فلما وصل الباشا رأى ابنته حمراء العينين فازداد غضبه وأمر بخيتا بأن يخرج ، ثم نظر اليها شزرا ولحيته تنتفض في وجهه ويداه ترتعشان وقال : «ما هذا يا فدوى ؟ أتريدين ان تلبسيني ثوب العار في هذه الديار ؟».

فقالت : «حاشا وكلا يا سيدي ، لا ألبسك الله عارا أبدا».

قال : «لماذا اذن تخالفين أمري وتنقادين الى أمل لن يتحقق ؟».

فقالت : «لا تقل هذا يا أبتاه ، فإنك بذلك تزيد أشجاني وتهيج أحزاني».

قال : «ألا تزالين تؤملين عودة الأموات الى الدنيا ؟».

فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت : «لا تقل ان شفيقا مات يا أبتاه، بل قل انه حي

يرزق بإذن الله».

فقال : «هل اذا قلت ذلك يقوم من بين الأموات ؟».

فقالت : «ان الله على كل شيء قدير ، وهب انه لا سمح الله غير حي فماذا تريد مني ؟».

قال : «أريد ان تطيعي أوامري».

قالت : «اني لا أزال ابنتك المطيعة البارة ولكن . . ». فقاطعها وانتهرها قائلا : « هيا اغسلي وجهك ودعي عنك الهواجس فانها مجلبة للسقام. ولا تعلقي آمالك بحبال من هواء، فقد سمعت بأذنك عندما سألنا شفيقا عن مذهبه ووطنه انه لا يحقق أهو مسلم ام غير مسلم، ولا هل هو من الشام أم من مصر، فافرضي انه حي فهو ليس من أمثالنا ولا ينبغي ان نعلق به آمالنا».

فوقع هذا القول على قلب فدوى وقوع السهام ولم يزدها الا ولعا بشفيق، لكنها نهضت وغسلت وجهها وهي عالمة بما يضمر أبوها ، وقد أغضت عنه تخلصا من القيل والقال وأضمرت الاصرار على عزمها مهماتلقى في سبيل ذلك من الأهوال .

حصار الخرطوم

عاد الباشا الى غرفة الاستقبال بالفندق، فنهض عزيز لاستقباله احتراما له، ولما رآه منبسط الوجه استبشر بنيل مبتغاه ولكنه لم يجرؤ على مخاطبته في ذلك.

ولم يملك الباشا اخفاء عواطفه فقال : «يلوح لي انها لانت، وان كانت لا تزال تذكر ذلك الشاب».

فقال عزيز مراوغا: « لايمكننا تعنيفها على ذلك لأن محبته تمكنت من قلبها. لكنه مات وأسفاه فعلينا ان نسعى الى تعزيتها وتسليتها حتى لا تضار صحتها».

فقال الباشا : «لقد نطقت بالحق اذ لا فائدة من محبته وقد صار في عداد الأموات ، لكني لا اعلم كيف ابغضه اليها».

فقال عزيز : «عندي طريقة تريحنا جميعا فهل أعرضها على سعادتك ؟».

قال : «قل ما بدا لك».

قال : «قرأت في بعض المجلات العلمية عن علم حديث يقال له علم التنويم المغناطيسي يستخدمه بعض الاطباء لتنويم المريض صناعيا ، ثم يسألونه خلال نومه هذا عن مرضه فيشرح لهم حقيقته وعلاجه شرحا وافيا ، وهم يؤكدون ان النائم بهذه الطريقة يتنبأ بالغيب أيضا . كما يؤكدون ان الطبيب المنوم يتسلط حينذاك على ارادة المريض النائم بحيث يجعله بعد استيقاظه يفعل ما يأمره به حين نومه . فاذا قال له وهو نائم : (اذا صحوت فأبغض فلانا أو أحب فلانا). فعل ذلك من تلقاء نفسه دون ان يعلم السبب».

فقال الباشا : «وهل يخضع كل انسان لسلطان المنوم ؟». قال : «لا ، ولكن النساء أكثر قبولا له من الرجال، ولا سيما العصبيات منهن».

قال : «اذن تكون فدوى صالحة لذلك التنويم، ولكن على من نعتمد في تنويمها هنا ؟» .

قال : «ان الذين يعرفون هذا العلم هنا قليلون ، وفي استطاعتنا ان نسأل عنهم أحد كبار الأطباء».

فقال الباشا : «لقد عرفت هنا طبيبا من أشهر أطباء هذه المدينة وأعلمهم، وهو خير من نسأله في ذلك ، وهو الدكتور(ن). . ».

فخشي عزيز ان يعرقل هذا الطبيب مساعيه ، اذ قد تمنعه استقامته عن استخدام التنويم للغاية التي يريدها فقال : «ان هذا الطبيب على شهرته لا يستطيع التنويم، لأنه شيخ طاعن في السن ، ولا بد للمنوم من أن يكون شابا قوي البنية لكي يمكنه التسلط على من ينومه فاذا شئت فإني أبحث عن طبيب آخر يصلح لذلك».

فقال الباشا : «لا بأس بذلك ، وأرجو أن يوفقك الله».

فسر عزيز لنجاح مسعاه ، ثم نهض مستأذنا ليذهب ويأتي بأمتعته الى الفندق ، فأذن له الباشا وهو ليس اقل منه فرحا بتجدد الأمل في مصاهرتها، طمعا في ثروته الكبيرة.

■

لبثت فدوى بعد خروج أبيها تفكر في أمرها وتدبر وسيلة لنجاتها ، ثم جاءها بخيت فأخبرته بما كان من أبيها فكاد يتميز غيظا وقال لها : «ما لنا ولهم ؟ ما دمت أنت محافظة على عهد سيدي شفيق فلا نخاف شرا باذن الله ، وقد دبرت وسيلة للبحث عنه».

فقالت : «وما هي هذه الوسيلة ؟».

قال : «اتفقت مع عبود الطباخ على ان يذهب الى السودان ويأتينا بالخبر اليقين في أسرع وقت ممكن. وقد دفعت اليه بعض النقود سلفا، ولم أخبره بحقيقة الأمر، اكتفاء بأن أعطيه كتابا يوصله الى سيدي شفيق حيثما يجده هناك».

قالت : «ولكن أين يبحث عنه في السودان ؟».

قال : «سيذهب اولا الى مدينة الخرطوم التي ذهب اليها غوردون باشا مؤخرا ».

قالت : «أحسنت يا بخيت بارك الله في وفائك».

وكان عبود قد عثر بصورة شفيق ، فحفظها معه ليتذكره بها، فلما طلب اليه بخيت الذهاب في تلك المهمة استبشر بالفوز ، وأخذ يعد معدات السفر، بعد ان ألح على صاحب الفندق في ان يبيع الدبوس لبخيت ، فباعه اياه بضعف ثمنه ولبث عبود في بيروت حتى سلمه بخيت الكتاب المطلوب توصيله الى شفيق ، وقد كتبته فدوى وقالت فيه :

«الى شقيق الروح ومنى القلب

«أكتب اليك هذا الكتاب من بيروت، غير عالمة بمحط رحالك ، وكلي أمل ان تسمح الاقدار بالأطمئنان عليك فأنسى ما قاساه فؤادي من العناء والمشاق بعد طول الفراق . وكنت

قد يئست من بقائك في عالم الأحياء حتى ظفرت بناقل هذا اليك فقص على قصة جددت آمالي وأحيت ما بقي في من رمق الرجاء. فاذا تحقق لي هذا الأمل فلا يكون على وجه هذه البسيطة من هو أكثر سعادة مني، والا فالموت خير لي من معاناة الحزن الذي كاد يذهب برشدي بعد ان ذهب بصحتي، كما ان فيه خلاصي من شر الوقوع فيما نصبه لي ذاك الذي لم ترض الاجهاز عليه فتركته يتبعني حيثما توجهت وينصب لي الشراك حتى أوغر قلب أبي علي، وحمله على تهديدي ومحاولة ارغامي على قبوله.

«فاذا وصل اليك كتابي هذا فبادر الى انقاذي من مخالب الموت والعار، هذا اذا بقيت حية حتى وصولك والسلام.

«كتب في فندق بسول بيروت أول مايو سنة ١٨٨٤ . . . الباقية على عهدك . . فدوى».

وما تسلم عبود الكتاب حتى غادر بيروت الى مصر في احدى البواخر، ليستقل منها سفينة نيلية الى الخرطوم، وذلك لعلمه ان طريق سواكن قد قطعت لاستفحال أمر عثمان دقنا فيها، فلما وصل الى القاهرة ركب القطار منها الى أسيوط، ومن هناك اكترى جملا خفيفا وسار فوقه على البر الغربي في عطمور الاربعين قاصدا دنقلا، ومديرها يومئذ ياور بك فوصل اليها في أواخر يونيو (حزيران) ووجد أهلها في هرج ومرج واستعداد للحرب، وعلم انهم سائرون لمقاتلة الدراويش في الدبة.

وكان عبود يظن ان الطريق الى الخرطوم آمنة فلما سمع هذا الخبر وقع في حيرة. ثم أخذ يطوف في الاسواق حتى دخل وكالة شاهد فيها بعض التجار السوريين فتقرب من أحدهم، وتحقق منه ان الطريق من هناك الى الخرطوم لا يمكن السير فيها مخافة خطر الدراويش، كما ان الخرطوم نفسها في حصار شديد.

وفيما هما في الحديث اذا بجماعات من الجند يسيرون بأسلحتهم وخلفهم فارس نحيف الجسم قصير القامة يرتدي الجبة والقطفان، وحوله جماعة من الحشم، فسأل عنه التاجر فقال: «انه مصطفى ياور بك، وهو خارج في رجاله لمقاتلة العصاة في الدبة. فعسى ان ينتصر عليهم لأنه رجل من الأولياء الأتقياء، اذا أطلق عليه الرصاص لا يخترق لحمه، واذا سار الى حرب لا يحمل من السلاح الا حربة قصيرة في يد، وسبحة في اليد الأخرى، ولا يكف عن الصلاة والدعاء ما طالت المعركة !».

وكان التاجر قد استأنس بعبود لأنه غريب مثله فدعاه الى الاقامة بمنزله حتى ينجلي الأمر فقبل شاكرا، وذهب معه الى منزله في المساء فاذا هو بيت مبني بالطين، وبابه من الضيق بحيث لا يدخله الانسان الا ساجدا، فبات ليلته هناك بعد ان تناول العشاء، وظل في ضيافة

الرجل بضعة أيام حتى وصلت الاخبار بانتصار ياور بك على العصاة، فظن ان هذا الانتصار كاف لاخماد الثورة وفتح الطريق الى الخرطوم ، ولكن مضيفه أشار عليه بأن يتريث قليلا وقال له : «لقد علمت ان الحكومة الانجليزية أمرت بإرسال حملة الى الخرطوم لانقاذ غوردون، وستمر هذه الحملة بدنقلا فتسير معها» . قال : «ولكني لا أستطيع صبرا حتى تجيء الحملة ، ولا بد من سفري الى الخرطوم من أقرب طريق اليها».

فقال : «اذن تسير اليها من الطريق الجنوبي في الصحراء » . ثم أحضر له جملا ركبه ومعه ثيابه وأوراقه كلها في حصير صغير من صنع السودان. وودعه حتى أول الطريق ، وعاد وهو يدعو له بسلامة الوصول.

وسار عبود حتى بعد عن دنقلا بمسيرة يوم، وهو ما زال في الصحراء ، ثم ادركه جماعة من الدراويش فسلبوه ثيابه وكل متاعه ولم ينج من الموت الا بالجهد ، فعاد الى دنقلا وقد فقد الرسم والكتاب في جملة الأمتعة، فلما رآه التاجر السوري وعلم بما حدث له اخذ يعزيه وأشار عليه بأن ينتظر مجيء الحملة فيسير برفقتها كما أشار عليه من قبل، فلم يجد بدا من العمل بمشورته.

■

لبث شفيق في الأبيض ينتظر الفرج من عند الله ، حتى اذا كان ذات صباح علم ان المهدي أمر باستعراض جيشه استعراضا عاما، فذهب لمشاهدة الاستعراض في الساحة المتسعة خارج البلدة . وهناك رأى الجنود واقفين بأسلحتهم. ثم جاء المهدي وخلفاؤه وامراؤه ، فصلى بهم جميعا ، ثم القى خطبة حثهم فيها على الجهاد والسير لمحاصرة الخرطوم بدأها بقراءة الفاتحة ثم أخذ يغري الناس بالقتال والاستشهاد ، فلما اتم خطبته اخذ الدراويش في الدعاء والتكبير وقد هاجت عواطفهم ، ثم أخذ في استعراضهم ، وأمرهم بالسفر الى منطقة الخرطوم لنصرة الدراويش المحاصرين لها، ثم عاد الى مجلسه بعد ان وكل قيادة الحملة الى الامير ولد النجومي ، على ان يتولى هو القيادة العامة بعد وصوله الى هناك.

وكان من قواد المهدي في حصار الخرطوم الأمراء : أبو جرجه ، وولد البصير حمد المهدي ، والأمير الفضل ، والأمير عبد القادر ولد أم مريم ، والأمير مصطفى ابن الفقى الأمين ، وشيخ الابيض . وغيرهم.

وعلم شفيق من رفيقه حسن انه دبر له أمر السفر مع هذه الحملة في صحبة ولد النجومي بصفته أحد الكتبة، فسر لذلك كثيرا وشكره ، كما علم منه ان عدد الحملة عشرون الفا، وأن معظم الدراديش محيطون بالخرطوم وأم درمان وقد بدأوا الحصار منذ عودتهم من وقعة هيكس أي قبل ان يأتي غوردون الى السودان، فسأله : «أذاهب انت معنا الى هناك ؟ » . فأخبره بأنه

لم يتلق امـ[illegible]ـك بعد ، وهنأه بهذا السفر لأنه سيكون قريبا من بلاده وربما أتيح له الخروج من معسكر الدراويش ودخول الخرطوم فيصبح في حمى الحكومة المصرية.

ففرح شفيق بذلك اذ رأى فيه بابا للفرج . وذهب الى حجرته وأخذ الاستعداد ، ثم سافرت الحملة في اليوم التالي يتقدمها الفرسان وفيهم الامراء، ثم المشاة وجميعهم في لباس الدراويش، ووراء الجميع النساء والأولاد.

وكان شفيق قد اعتاد طعام الدراويش ، وكانوا يقصرونه في السفر على الذرة اليابسة. فيحمل كل منهم جرابا فيه قدر من الذرة ، يأكل منه شيئا كلما جاع، وقل بينهم من يحمل ماء ولو كان طريقهم في الصحراء لأنهم يصبرون على العطش.

وما زالت الحملة سائرة في البر تمر تارة بصحراء وطوراً بغابات وأخرى في جبال، حتى وصلوا الى جوار الخرطوم ، فبعث ولد النجومي الى رجال المهدي في المناطق المجاورة فأخذوا في الاجتماع من سائر الجهات حتى زاد عددهم على مائة الف ، ففرقهم فرقا وأرسل كل فرقة الى مركز في جوار الخرطوم.

والخرطوم تقع عند ملتقى النيلين الازرق والابيض اللذين يتكون منهما النيل ، ويحدها من الشمال النيل الفاصل بينها وبين الجزيرة والبر الآخر، ومن الغرب البحر الابيض، ومن الجنوب سور موصل بين النيلين. وكان شفيق قد شاهد ذلك السور لما مر بالخرطوم في المرة الماضية ولكنه علم عند وصوله هذه المرة انهم حفروا حوله خندقا كبيرا في غيابه حتى أصبح منيعا. وهو قائم على مسافة من المدينة وبينها فضاء.

وشدد ولد النجومي الحصار على الخرطوم فبعث فرقا من رجاله الى البر المقابل لها من الشمال ، وفرقا الى البر الآخر المقابل لها في الغرب ، وبقي هو في فرقته وراء السور بالقرب من محلة يقال (كلا كلا). كما شدد الحصار على ام درمان في البر الغربي مقابل الخرطوم ، حتى أصبح غوردون وأهل الخرطوم في ضيق عظيم وقد لبسوا لباس الجوع والخوف.

وعلم شفيق من استطلاع أحوال أهل الخرطوم انهم في ضيق ، وأنهم ينتظرون نجدة من انجلترا لإنقاذهم، ثم مضى حوالي ثلاثة أشهر ولم تأت تلك النجدة، حتى يئس اهل الخرطوم وقلت رغبة شفيق في الفرار اليها خوفا من أن يفر من بلاء فيقع في أعظم منه ويكون عرضة للقتل اذا ظفر المهدي بالمدينة.

وبعد قليل جاء المهدي من الأبيض وانضم الى جنوده في الخرطوم فأصبحت قوة المهدويين عظيمة حتى لم يعد عند شفيق شك في سقوط المدينة اذا لم تأت النجدة المنتظرة . واستشار صديقه السوري، وكان قد جاء الى هناك ، في أمر الفرار الى الخرطوم، فضحك حسن قائلا : «والله لو آنست من الفرار نفعا لكنت أول الفارين ، ولكنني أؤكد لك ان

الخرطوم لا تستطيع المقاومة طويلا لأنها في ضيق من قلة المؤن كما قد علمت، فالافضل تكظم ما بك لنرى ماذا يأتي به الغد».

فصبر شفيق على مضض، وفيما هو جالس يوما يفكر في حاله، جاءه حسن ضاحكا وقا له : «ما الذي يهمك الآن في هذه الغربة ؟».

قال : «يهمني ان أعرف ما جرى لأهلي ». فقال له : «ان الرسول قد عاد من القاهرة. فهيا قابله».

فكاد شفيق يجن من الفرح ، ومضى معه الى الرسول ، فقال له هذا : «لقد سألت عن أبيك في قنصلية انجلترا ، فعلمت انه باع أمتعته وهاجر من الديار المصرية، ولا يعلم أحد أين توجه، فذهبت الى بيت الباشا فقيل لي : انه هاجر الى الشام ولكن امرأته في البيت ، فدفعت اليها الكتاب ولم تعطني جوابا !».

فأخذ شفيق يندب سوء حظه ويبكي حزنا على والديه وعلى فدوى وأخبرهما الرسول ان الحكومة الانجليزية اعدت حملة لانقاذ غوردون باشا والخرطوم ، فتشاورا فيما يعملان واستقر رأيهما أخيرا على الصبر حتى تأتي الحملة الانجليزية.

وقعة أبي طليح والمتمة

علم المهدي بغد أيام بوصول الحملة الانجليزية الى كورتي، وأنها عازمة على مواصلة السير في صحراء البيوضة الى المتمة وشندي ومنها الى الخرطوم ، فبعث بعض رجاله بقيادة موسى ود حلو وابي صافية ليقطعوا عليها الطريق عند آبار أبي طليح وراء المتمة ، ويمنعوها من الوصول الى النيل.

وفي اليوم العشرين من يناير (كانون الثاني) سمع شفيق اطلاق المدافع في معكسر المهدي ، فعجب لذلك اذ لم يكن هناك ما يوجب ذلك وهم بعيدون من الخرطوم والدراويش ليسوا في حال حربية ، فسار الى صديقه حسن وفيما هو في الطريق اليه مر بجماعات من الدراويش في أيديهم قبعات وثياب انجليزية فأوجس خيفة من أن يكونوا قد ظفروا بالحملة الانجليزية ، فلما وصل الى صديقه سأله عن السبب فقال له : «ان المهدي علم بانكسار رجاله في أبي طليح والمتمة ، فأراد ان يوهم من معه خلاف ذلك ، فأمر باطلاق مائة مدفع ومدفع علامة النصر ، وجاءهم بتلك القبعات والثياب على أنها بعض الاسلاب وقد سمعت أنه جمع خلفاءه والمقربين اليه من الامراء في هذا الصباح للشورى، وفي المساء نعلم ماذا يكون من اجتماعهم».

فقال شفيق : «كيف يمكنك أن تعرف ذلك اذا كانت الشورى سرية؟».

قال : «ان لي بينهم صديقا حميما لا يخفي علي شيئا ، فاذا أتيتني في صباح الغد أخبرك بما تم».

وفي الصباح التالي جاء شفيق وقد صمم على الفرار من معسكر المهدي الى الخرطوم ، فلما التقى بصديقه حسن استطلعه الخبر فقال له : «اجلس لأخبرك بما تم في اجتماع أمس».

فجلس شفيق وجلس حسن بجانبه وقال : « لقد اجتمع المهدي أمس بخلفائه والمقربين من رجاله، ولما استتب بهم الجلوس قرأوا الفاتحة ثم قال لهم المهدي : (جاءتني الحضرة في الليل العابر وقد جمعتكم لأقص عليكم ما قاله لي - ﷺ - فقد أمرني بالهجرة الى الابيض ، لان الانجليز قوم لا نقوى على قتالهم ، فاذا كان غوردون وهو فرد منهم قد دافعنا شهورا فكم

يفعل الآلاف منهم وقد ظفروا برجالنا المحنكين في أبي طليح ، أفلا يستطيعون ان يغلبونا هنا ؟)فوافقه الجميع الا الامير محمد عبد الكريم فانه عارض في الهجرة قائلا : (الأحسن ان نهاجم الخرطوم فان ظفرنا بها فلا يعود الانجليز ولا غيرهم يستطيعون الوقوف أمامنا، واذا ظفروا بنا فان الهجرة مستدركة) . وارفض المجلس على ان يعودوا الى الاجتماع مرة أخرى».

فقال شفيق : «ها قد تحققنا حبوط مسعى المهدي ولم يعد لدينا ما يمنع انحيازنا الى حامية الخرطوم».

فقال حسن : « ان لدي موانع تحول دون مرافقتي اياك الآن ، فسر انت في حراسة الله ، واذا قدر لنا الاجتماع ثانية فاننا لا نفترق بعد ذلك

■

وعند الظهر انتهز شفيق فرصة اشتغال بالصلاة وسار يريد باب المسلمية من أبواب سور الخرطوم ، فلما بعد عن معسكر المهدي رفع عصا عليها منديل أبيض، فلما رآه حماة الخرطوم من السور علموا انه آت مسالما ، ففتحوا له الباب فانذهل لما شاهد من متانة ذلك السور وعمق خندقه، وكانوا قد حفروه أثناء غيابه وعرضه نحو ١٧ مترا وعمقه عشرة أمتار فقال في نفسه : «ان مثل هذه الحصون لا يمكن ان يتخطاها الدروايش». وسار به الحراس الى فرج باشا قومندان الحصون، وكان أسود اللون طويل القامة ، فلما رأى شفيقا في لباس الدراويش سأله عن أمره فقال : « أريد مقابلة غوردون باشا». فأخذه .

سار به الى المدينة حيث تقع سراي الحكومة على البحر الازرق ويقيم بها غوردون، فنظر شفيق الى جانبيه عند دخوله السور فاذا بالجنود قد تفرقوا جماعات وأسلحتهم منصوبة على طول ذلك السور ، والرجال بين متوسدين خائري القوى ومتضورين جوعا، وقد علت وجوههم علامات الضعف واليأس فلما رأوا شفيقا استبشروا بقدومه ظنا منهم انه انما جاء لمخابرة سرية ربما كان فيها خير لهم، وكانوا يظنون ان المهدي بعد ان علم بمجيء الحملة الانجليزية أصبح راغبا في الصلح والتسليم، ولكنهم كانوا في ريب من أمر المدافع التي اطلقت في الليلة الماضية، لعلمهم أن مثل ذلك العدد من المدافع لايطلق إلا لانتصار، فتقاطر جماعة منهم ينظرون الى شفيق وهم بين مصري وسوداني وباشبوزق وغير هؤلاء ، فرأوا على وجهه أمارات البشر وانه ليس على شاكلة رجال المهدي الا بلباسه فأحبوا ان يسألوه عن أمره فانتهرهم الضابط السائر بصحبته وأمرهم بأن يرجعوا . وكانوا قد وصلوا القشلاق في وسط تلك الساحة فدخل بعضهم القشلاق وعاد الآخرون الى السور. أما شفيق فما زال سائرا حتى

دخل المدينة فاذا بها قليلة الناس لتقلد أهلها السلاح واشتراكهم في الدفاع ، ولم ير أسواقا مفتوحة ولا أحداً مارا فيها ما خلا بعض الفقراء المطروحين في الشوارع يتضورون جوعا. وشاهده أحدهم فلما رآه بلباس الدراويش والحراس بجانبه صاح به قائلا : «أما تخافون الله وأنتم مسلمون ، كيف تمنعون عنا المؤن ، واذا كان صاحبكم مهديا حقا فكيف يستحل دم المسلمين ؟». فضحك شفيق ولم يجب ببنت شفة ، ولكن قلبه كاد يقطر دما لما عاينه في تلك المدينة من الضيق ، وخاف ان يتهور بعض أهلها فيرميه برصاصة أو سهم.

■

ولما وصلوا الى باب السراي سأل حراس شفيق عن الحكمدار فقيل لهم : «انه سار لتفقد قلعة بوري عند الطرف الشرقي للسور ، وربما يسير من هناك على محاذاة السور لتفقد حاميته ، ثم ينقلب الى الغرب لتفقد قلعة موكران على ضفة النيل غربي المدينة». فاضطر شفيق الى الانتظار هناك ريثما يعود الحكمدار حوالي الغروب للاجتماع بأعيان المدينة . وأدخلوه غرفة جلس فيها ينتظر عودة غوردون ، فجلس يفكر فيما وصلت اليه حال حامية المدينة ويعجب لتأخر الحملة الانجليزية الى ذلك الوقت ، ولكنه قال في نفسه : «ان الذين تحملوا الحصار سنين لا يصعب عليهم احتماله أياما قليلة ». وكان ينتظر الفرج القريب لانه علم ان جيش المهدي خائف من الانجليز وعول على ان يطلع غوردون على مقاصد المهدي. ثم تصور انه نجا من تلك الاخطار وعاد الى القاهرة فاضطرب فؤاده لتذكره ما أخبره به الرسول من سفر فدوى الى الشام لتغيير الهواء، وخطر رسمها في باله فمد يده الى جيبه ليستخرجه ولكنه سمع وقع اقدام كثيرة ولغطا ، فأصاخ بأذنيه فاذا بجماعة يسألون عن غوردون باشا وهم يتكلمون العربية والانجليزية والفرنسية ، فأطل من نافذة تشرف على صحن السراي فاذا بجماعة من الاعيان يرتدي أكثرهم الملابس الافرنجية ، فتأملهم جيدا فعرف أكثرهم ، وفي جملتهم : المستر بور مكاتب جريدة التيمس وكان قد جاء بصحبة حملة هيكس وبقي في الخرطوم بعد مسير الحملة ، والمدير أحمد علي بك، ونيقولا ليونتيدس قنصل اليونان، وابراهيم فوزي بك، وفتح الله جهامي أحد التجار السوريين وكان قد تقلد مصلحة النقل والحمل، والدكتور نقولا بك مفتش صحة السودان العام. وآخرون لم يعرفهم . وسمعهم يتضجرون من تلك الحالة ويتذمرون فيما بينهم من ابطاء وصول النجدة . فعلم من مجمل حديثهم أنهم آتون للمفاوضة في وسيلة يصلون بها الى نتيجة.

وفيما هو ينظر اليهم جاءهم رجل في لباس رسمي علم من ملامح وجهه انه يوناني النزعة وتأكد بعد ذلك انه جرياجس بك باشكاتب غوردون فاستقبل هؤلاء الاعيان وقادهم الى

القاعة لينتظروا فيها قدوم الباشا.

■

وعند الغروب علم بعودة غوردون، ثم لحظة مارا في صحن السراي مطرقا عابسا لا يلتفت يمنة ولا يسرة ورآه يهم بالصعود الى القاعة بابتدره وخاطبه بالانجليزية، فالتفت بغتة فلم ير أحدا في لباس الانجليز، فناداه ثانية فنظر اليه فلم يتحقق صورته لأن الظلمة كانت قد بدأت تسدل نقابها، فوقف وسأله: «من أنت ؟». قال: «اني من ضباط الجيش الانجليزي». فاختلج قلب غوردون لأن لفظ الجيش الانجليزي كان نصب عينيه ليلا ونهارا وقد أقلق أفكاره ومل انتظار مجيئه، فتقدم الى النافذة وأمر بالنور فجيء به اليه فتأمل الرجل فاذا هو بملابس الدراويش ولكن صورته غير سوادنية فأمر باخراجه وأن يلحق به الى القاعة.
وجلس الجميع هناك ينظرون الى شفيق متعجبين، فابتدرهم غوردون قائلا: «لا تعجبوا لهذا الرجل ولباسه فإنه حمل في ثياب الذئاب». ثم التفت الى شفيق وسأله: «ما اسمك وما الذي جاء بك الى هنا ؟». قال: «اسمي شفيق، وقد جاءت بي الى هنا الاقدار». وحكى لهم الحكاية من اولها الى آخرها فلما وصل الى المدافع التي أطلقها العصاة، وما دار بين المهدي وامرائه ضرب غوردون الأرض برجله والتفت الى من حوله وقال: «ألم أقل لكم يا سادة انهم لم يقصدوا بتلك المدافع الا ايهام رجالهم خلاف الواقع تشجيعا لهم، وقد عرفت ذلك من المرأة التي كنت أرسلها لاستطلاع أخبارهم ؟».
فانقشع عن وجه الجلوس بعض العبوس وأخذوا ينظرون الى شفيق نظرهم الى رجل جاءهم رحمة، وجعلوا يسألونه عن حركات المهدي وقواته فأخبرهم بكل شيء الى ان قال: «ان هؤلاء الدراويش على جانب عظيم من البسالة والاقدام، لا يبالون الموت، وهم متعاقدو الأيدي مرتبطو القلوب لا شيء يثنيهم عن القتال، وهم ينزلون كلام المهدي منزلة الوحي ولاسيما اذا ادعي (الحضرة) كما أخبرتكم. أما اذا صبرتم على قتاله فإنه لا يقوى عليكم لانكم تعلمون مما قدمت انه في خوف واذا لقي مقاومة شديدة يخور عزمه ويعود على أعقابه الى الابيض».
فقال قنصل اليونان: «من لنا بالدفاع وأهل المدينة منطرحون في الأسواق عشرات يتضورون جوعا، وهل نلومهم اذا أرادوا الخروج الى العدو فإن الحامية نفسها لا مؤونة عندها على ما سمعت».
فقال فتح الله جهامي: «اننا لم نسمع بحصار مثل هذا الحصار، ولا نفهم معنى لإبطاء النجدة الى هذا الحد، ونحن في مثل هذه الحال من الضنك والخطر».

ثم التفت ابراهيم فوزي بك الى غوردون باشا وقال : «اننا جئنا لنستفهم عن أمر الحملة ، فقد ضاقت نفوسنا وخارت قوانا وهلكت أولادنا ونساؤ نا، وانحطت ثقتنا ، وأصبحنا في حال لم يصل اليها أحد قبلنا ولن يصل اليها أحد بعدنا».

فالتفت اليهم غوردون وعلامات التأثر ظاهرة في وجهه وقال لهم : «ما الذي تريدونه مني ؟. مروني بما شئتم فأنفذ أمركم، انني أقسم لكم بالشرف اني لم أكذب في شيء مما قلته لكم، واني لأفضل الموت على التفوه بغير الصحيح ، كما اني على استعداد لأن أخلي لكم مركزي ليشغله من أراد منكم على أني أؤكد لكم انه لن يستطيع أكثر مما فعلت ، وعلى كل حال، أرى اننا صبرنا كثيرا ولم يبق الا القليل، والحملة الانجليزية في المتمة الآن وستكون هنا بعد يومين».

وكان شفيق خلال ذلك الحديث ينظر الى غوردون فوجده قد نزع الطربوش عن رأسه وقد خف شعره وشاب ما بقي منه وقطب وجهه وأسند خده الى كفه ، فساد الصمت حينا، ثم وقف الجميع وانصرفوا وعاد غوردون بعد ان ودعهم الى القاعة فوقف له شفيق احتراما فنظر اليه ممسكا طربوشه بيده اليسرى وخاطبه وقد أخذ منه الضجر كل مأخذ قائلا : «أرأيت مثل هذا الاهمال ؟ ها قد مر علي أكثر من ستة أشهر وأنا أنادي بأعلى صوتي مستنجدا أصحابنا في لندن لانقاذ حاميات السودان، فبعد ان شبعوا من المحاورة والجدل في برلمانهم أقروا ارسال النجدة ، ولكني لا أظنها تصل قبل ان يصل الينا الموت ، فان اهل الخرطوم بعد ان كانوا يحترمون مقالي احترامهم لكلام منزل اصبحوا لا يصدقونني لكثرة ما وعدتهم وأخلفت اعتمادا على وعود اصحابنا في لندن. فهل تصل تلك الحملة ونرى رجلا منهم في الخرطوم ؟». ثم رمى بطربوشه الى المقعد وجلس مطرقا ويده في جيبه ثم تناول سيجارة من علبة بجانبه وأشعلها وراح ينفث الدخان في قلق ملحوظ . فهاب شفيق غضبه ولبث صامتا حتى قال له غوردون بعد قليل : «فلندع المقادير تجري في أعنتها ». ثم أمر باحضار بذلة له ليرتديها بدلا من ثياب الدراريش ، ودعاه الى الطعام فتناولاه ومعهما كبار الموظفين ولم يفه أحد منهم بكلمة.

■

أمضى شفيق ليلة في السراي بالخرطوم، وفي الصباح سأل عن غوردون فقيل له : «انه على سطح السراي يراقب حركات العدو بالنظارات». وكان ذلك شغله في معظم النهار فينظر تارة الى العدو وطورا الى النيل يترقب عودة البواخر التي أرسلها لملاقاة الحملة الانجليزية في

جهات شندي ، فلم يجرؤ شفيق على الصعود اليه ومخاطبته ، وعاد الى حجرته ، ثم خرج منها الى غرفة الاستقبال فوجد فيها بعض الكتب والجرائد الانجليزية فأخذ يتلهى بمطالعتها ريثما ينزل غوردون، ثم لاحت منه التفاتة الى رسم فوتغرافي بين الجرائد والاوراق فما كاد يراه حتى خفق قلبه بشدة اذ علم انه رسمه الذي أعطاه تذكارا لفدوى ، وقد أدرك ذلك من توقيعه عليه لأن الرسم كان مقطوع الرأس ،فأخذت ركبتاه ترتجفان ، وهو لا يصدق انه في يقظة . ثم جعل يفكر فيما جاء بالرسم الى ذلك المكان، وفي قطع رأسه . وبقي واقفا مطرقا والصورة في يده حتى سمع الجنرال غوردون يخاطبه مسلما فانتبه فاذا هو قد نزل من السطح والنظارات بيده ، فبهت شفيق ثم رد التحية حانيا رأسه احتراما، ولكنه لم يستطع اخفاء ما كان فيه من الاضطراب والرسم لا يزال في يده على أنه تجلد خوفا من ظهور دلائل الوجد والغرام على وجهه لانه ليس في حال تتيح له ذلك.

أما غوردون فحمل تلك المظاهر على خوف شفيق من سقوط الخرطوم بعد ان سمع ما سمعه بالأمس فابتدره قائلا : « لا تجزع يا عزيزي، ان قضاء الله سبحانه وتعالى لا مفر منه ويجب ألا تعود نفسك الخوف وانت، في شرخ الشباب».

فتجلد شفيق وحاول ثم قال : «اني يا سيدي لا خوف علي طالما كنت والجنرال غوردون في حال واحدة اذ لست أفضل منه».

فقال غوردون : « ولكن يا ولدي لا يخفى عليك اني قد امسيت شيخا وقد انقضت أيامي ، أما أنت فلا تزال في أول حياتك وربما كانت لك فتاة وتود البقاء من أجلها».

فعاد قلب شفيق الى شدة الخفقان، ولم يمكنه الجواب لتلعثم لسانه، ولما حاول الاجابة سبقته العبرات ، فظنه غوردون يبكي خوفا من وقوع القضاء فقال له : «اعتبر يا بني بما يقاسيه الانسان من الاخطار في هذا العالم وكيف يكتب الله نجاته منها».

فتنهد شفيق تنهدا عميقا، وأراد أن يسأل عن الرسم وسبب وصوله الى تلك الغرفة لكنه لم يجرؤ على اطالة الكلام لعلمه بأن الرجل مشغول بما هو أهم.

وأخيرا جلس غوردون على المقعد وأشعل سيجارة أخذ ينفخ دخانها ويتلهى بنفض رمادها بأصبعه وينقلها من يد الى أخرى مكررا ذلك مرارا حتى أمست القاعة تعج بالدخان عجيجا .

ومضت بضع دقائق وهما صامتان، وغوردون كلما انتهت سيجارة أشعل غيرها وهو لا يهدأ في جلوسه لحظة . وفيما هما في ذلك دخل جندي يقول : «ان بورديني بك بالباب» . فقال غوردون«دعه يدخل». فدخل الرجل وعليه الجبة والقفطان والعمامة وهم بيد الباشا ليقبلها، فلما رآه في تلك الحال من القلق اضطرب فؤاده ولم يعد يجرؤ على مخاطبته مع ما كان

له من الدالة عليه ، أما غوردون فقال له : « ماذا أقول الآن ؟ ان الناس لا يصدقونني لكثرة ما أنبأتهم بقرب وصول النجدة ثم لم تصل».

وكان بررديني بك من كبار تجار المدينة ، وقد جاء يدعو الباشا الى جلسة يتخذون فيها قرارا نهائيا بشأن الدفاع ، فرأى ان الباشا لا يستطيع وهو في هذه الحال من الغيظ اذ يحضر الجلسات فتركه وانصرف. ثم نهض غوردون وفي يده النظارة المقربة وصعد الى سطح السراي ليراقب حركات الاعداء المحدقين بالمدينة من جهاتها الأربع فعاد شفيق الى غرفته والرسم في يده يعيد النظر اليه مفكرا . ولاح له ان يحافظ على ملابس الدراويش التي جاء بها لعله يحتاج اليها فتفقدها، وحفظها في مكان بالغرفة. وصبر ليرى ما يكون. .

سقوط الخرطوم

قضى شفيق ليلته يراقب حركات غوردون فاذا هو قد ظل نصف الليل ساهرا يكتب، ثم سمع شفيق صوت اطلاق المدافع فنهض مذعورا فاذا بأهل السراي يتراكضون، فسأل عن الباشا فقيل له : « انه على سطح السراي يطلق المدافع على الأعداء». فصعد اليه فاذا هو في لباس النوم يطلق القنابل والعدو هاجم على الأسوار . .

وبعد قليل شاهد شفيق جماهير العصاة قد دخلوا السور من باب المسلمية وامتلأت بهم الساحة وما زال غوردون يطلق القنابل عليهم من السطح حوالي ساعة حتى اقتربوا كثيرا ، فلم يعد يستطيع تصويب المدافع نحوهم. ثم رأى شفيق أعلام المهدويين تخفق في وسط الجماهير فتحقق لديه ان قد قضي الامر ، فأعمل فكره للنجاة بحياته، فسارع الى غرفته .

وارتدى ملابس الدراويش بعد ان تحقق ان الدفاع لا ينفعه شيئا ، ثم نزل من السراي فشاهد جماهير العصاة عند باب السراي يريدون الدخول ، ثم تقدم اربعة منهم ودخلوها فالتقوا بغوردون عند رأس السلم وقد لبس ثيابه وتقلد سيفه وحمل المسدس بيده فهجم عليه أحدهم ونادى بأعلى صوته : «آه يا ملعون اليوم يومك». وطعنه بحربة القته صريعا . فأجهز عليه رفاقه .

وكان ذلك قبل شروق الشمس فسقط غوردون صريعا يتخبط بدمائه ، ولم يستطيع شفيق النظر اليه فترك السراي ونزل الى الشارع حيث اختلط بالدراويش متظاهرا بأنه واحد منهم . وكان كثيرون منهم يعرفونه ولم يعلموا انه فر من معسكرهم فظنوه على دعوتهم . ثم رأى درويشا حاملا رأس غوردون يريد ايصاله الى المهدي كان قد أمر بالابقاء على حياته، ودامت المذبحة ست ساعات ولم يكف الدراويش عن القتل حتى امرهم المهدي بذلك.

واغتنم شفيق فرصة اشتغال الدراويش بالنهب والقتل وطلب شاطىء النيل ، فوجد خشبة هناك اتخذها بمثابة قارب ، وما كاد يبتعد بها من الشاطىء حتى بصر به بعض الدراويش فرموه بالسهام ورصاص البنادق فاصابه سهم في فخذه، لكنه مازال ماضياً في السباحة بالخشبة حتى اتى جزيرة حلفايا قبالة حلة والتجأ الى شجرة هناك، وكان الليل قد سدل نقابه فلم يعلم

به أحد، لكنه كان في خوف عظيم لانتشار الدراويش في تلك الجهات.

وقضى شفيق ليلته يفكر في وسيلة لنجاته ، أما جرحه فكان طفيفا وقد ضمده بقطعة من عمامته . ثم نهض في الصباح فارتدى ملابس الدراويش ، وكان قد اسود لون جلده من الحر ، وأتقن اللهجة السودانية وعرف اصطلاحات الدراويش في حديثهم وصلاتهم وسائر أحوالهم، فأخذ يجول في الجزيرة حافيا والسبحة فيعنقهيكرر الشهادة والدعاءلنصرة الدراويش وابادة الكفار حتى وصل الى مكان اشتم فيه رائحة خاصة بأهل السودان يشتمها الانسان عن بعد ، فتقدم نحوها حتى وصل الى بيت صغير فيه ثلاثة من أهل القرية ، فحياهم بتحيتهم المعتادة ، فردوا التحية ودعوه الى الطعام، وسألوه عن حاله فزعم انه ممن جاءوا للجهاد في سبيل الامام المهدي وقد اصيب برصاصة في رجله أثناء هجومه على المدينة فلم يعد يستطع الجهاد ، فقال أحدهم : « انك والله قد نلت أجرا عظيما ، ويا حبذا لو أصبنا بمثل اصابتك ، وعلى كل حال قد أوقع الله النصارى (يريد الانجليز) في شر أعمالهم ، ولم يعودوا يقدرون على المجيء الى هنا بعد سقوط الخرطوم ، وبعد ان رصدهم سيدنا الامام».

فلم يفهم شفيق معنى ذلك الرصد ، فقال : «وكيف كان ذلك ؟». فقال أحد القرويين الثلاثة : «يظهر انك لم تسمع الخبر ، ان رجال سيدنا الامام عثروا في السنة الماضية وهم سائرون الى الدبة بجاسوس من جواسيس الكفار كان آتيا الى غوردون، ففر الجاسوس تاركا متاعه، وكانت فيه صورة من صور عساكر النصارى فسلموها للامام فأخذها وقطع رأسها بسيفه ثم بعثها الى غوردون في الخرطوم لينذره بأن القادمين لانقاذه سيصيبهم مثل ما أصاب تلك الصورة !».

فأدرك شفيق ان تلك الصورة هي صورته وفهم معنى قطع رأسها ولكنه لم يفهم كيف جيء بها الي السودان ولا من جاء بها فأخذت منه الهواجس كل مأخذ، لكنه خاف ان يظهر عليه ذلك ، فتجلد وتظاهر بالدعاء للمهدي. ثم جاء القوم بقدر بها ماء يغلي، ووضعوا فيها شيئا من الويكة (فتات ورق البامياء الجاف) وجعلوا يحركونه في الماء حتى صار مزيجا لزجا، وأخيرا أخرج كل منهم رغيفا من خبزهم الاسمر الملبد، وأعطوا شفيقا زغيفا مماثلا ، وراحوا يغمسون اللقيمات في ذلك المزيج ويأكلون ويلحسون أصابعهم بعد كل لقمة ، ففعل مثلهم.

وفيما هو يأكل لاحت منه التفاتة الى الورقة التي كانت بها الويكة الجافة فما تأملها حتى خفق قلبه ووقفت اللقمة في حلقومه، اذ وجد بها كتابة بخط يشبه خط فدوى ، فتناول الورقة دون اي يشعر بذلك مضيفوه ودسها في ثيابه، ولم يعد يستطيع طعاما من شدة التأثر ، فنهض

متظاهرا بالذهاب لقضاء حاجة. ثم فتحها يقرؤ ها فاذا هي كتاب فدوى اليه من بيروت منذ عشرة أشهر، فعجب لهذا الاتفاق، وأخذ يبكي ويتحرق لعدم استطاعته الوصول اليها ولولا تعوده الأخطار والمشاق لأغمي عليه، لكنه تجلد وعاد الى رفاقه حيث قضى معهم بقية ذلك النهار ثم غادرهم شاكرا حسن ضيافتهم، وسار حتى وصل الى مكان منعزل في الجزيرة فجلس يفكر في أمر فدوى ويبكي نادبا سوء بخته وما وصل اليه.

■

في منتصف اليوم التالي (٢٨ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٨٥) شاهد شفيق باخرة قادمة على لنيل فوقها العلم الانجليزي فعلم انها قادمة لانقاذ غوردون من الخرطوم، فقال لنفسه: «سامحكم الله على ابطائكم لقد ذهبت أعمالكم أدراج الرياح». ورأى ان نزوله الى تلك الباخرة آمن له من البقاء هناك فنظر اليها من الجزيرة فاذا هي تجر وراءها صندلا مشحونا بالعساكر السودانيين، فأشار الى من فيها اشارة علموا منها انه من جندهم، فاقتربوا بالباخرة من الجزيرة ودلوا له خشبة صعد فوقها اليهم فاجتمع اليه الجنود الانجليز ينظرون الى لباسه وهيئته ويعجبون، ثم ذهبوا به الى ضابط لهم قصير القامة خفيف شعر العارضين نحيف البنية هادىء الطبع فهم من كلامهم انه السير شارلس ولسن رئيس قلم مخابرات الحملة النيلية التي جاءت لإنقاذ غوردون، فخلا اليه وقص عليه قصة مذبحة غوردون ومن معه في الخرطوم، وأشار عليه بألا يمضي اليها لأنها في قبضة العصاة، لكنه لم يصغ الى مقاله، وسارت السفينة والدراويش يضربونها من الجانبين حتى وصلت الى الخرطوم فتحقق السر شارلس صحة قول شفيق لما رأى أعلام التمهدي تخفق فوق السراي والقشلاق والاسوار وغيرها، وهم بالعودة ولكن السفينة اصطدمت بعد ذلك بصخرة عند الشلال السابع فانكرست وأوشكت ان تغرق، فهرول شفيق في جملة المهرولين الى الصندل ونزل اليه والرصاص يتساقط عليهم من ضفتي النيل، وحملوا في ذلك الصندل ما استطاعوا حمله من الناس والمتاع وجروه الى الشاطىء حتى بلغوا جزيرة يقال لها جزيرة واد حبشي، ثم أرسل السير شارلس ضابطا في قارب صغير الى المتمة لإعلام الحملة بذلك الامر لكي يسرعوا الى انقاذهم. ولبثوا على هذه الحال والخطر يزداد كل يوم حتى رأوا في مساء اليوم الرابع باخرة قادمة من جهة المتمة فعلموا انها آتية لإنقاذهم فاستبشروا بالنجاة، وتعلقت أبصارهم بالباخرة حتى اقتربت من الجزيرة، ولكنهم ما لبثوا ان سمعوا اطلاق المدافع من جهات العدو، ثم علموا بالاشارات ان الباخرة أصيبت بقنبلة عطلت آلتها البخارية، وكاد كل من فيها يهلكون بقنابل الدراويش ورصاصهم وسهامهم، لولا ان تتمكنوا من اصلاح الباخرة قبل صباح اليوم التالي، فواصلت

سيرها حتى بلغت موضعهم فركبوها وعادوا بها في الظلام حتى بلغوا المتمة حيث معسكر الانجليز على ضفة النيل الغربية في محل يعرف بالقبة.

وبعد بضعة أيام، انسحبت الحملة راجعة عبر صحراء البيوضة قاصدة كورني لتسير من هناك في النيل الى مصر، فكان سرور شفيق بذلك عظيما ووصلوا الى كورني بعد أربعة عشر يوما مارين بطليح وجكدول. وهناك جاءتهم الانباء من لندن بأن حكومتها قررت بقاء الجيش في كورني حتى الشتاء لمعاودة السير لفتح السودان، فكادت آمال شفيق تنهار فأخذ ما يحتاج اليه، وسار تارة يركب جملا، وطوراً قاربا حتى وصل القاهرة في أواخر شهر مارس (آذار) سنة ١٨٥٥.

❀

في قرية عاليه

لبثت فدوى بعد ان استولت على الدبوس واستوثقت من ذهاب عبود بكتابها الى شفيق في السودان، وهي على مثل الجمر، تأخذ أباها باللين وتعده بإطاعة أوامره، وكان هو يلح على عزيز في أن يأتي بالمنوم المغناطيسي ، فكتب عزيز الى صديق له في باريس في هذا الشأن، وظلا ينتظران الرد . .

وورد الى الباشا ذات يوم كتاب من زوجته في مصر ، في طيه كتاب شفيق الذي بعث به من الابيض وفيه نبأ ببقائه حيا ، فلما قرأ الباشا الكتاب خاف حبوط مسعاه في الاستيلاء على ثروة عزيز اذا عاد شفيق حيا . فأخفى ذلك الخبر عن ابنته لئلا تتشبث به.

ولاح له ان يسعى أولا في وضع يده على أموال عزيز فخلا اليه يوما ودار بينهما الحديث في شؤون مختلفة تطرق منها الباشا الى مسألة الاقتران بفدوى ، ثم قال له : «ما دمنا قد صرنا يا ولدي جسمين في شخص واحد، لأنك ستكون صهري وفي منزلة ولدي والوارث لكل أموالي اذ ان فدوى وحيدتي ، فأرى ان نضم ممتلكاتنا بعضها الى بعض ، فاما أن أضم مالي الى مالك واكتب لك بذلك صكا، واما أن تضم مالك الى مالي وتكتب لي به صكا».

ففرح عزيز بذلك القول ، اذ استدل به على تمكن محبته من قلب الباشا ، وأيقن بزوال كل مشكلة من طريقه . وكان يود ان يكون هو المستولي على المالين لكنه لم يجرؤ على التصريح بذلك. كما انه أراد ان يظهر للباشا وثوقه بمحبته وصدق مواعيده فقال له : « اني يا عماه وما أملك في قبضة يدك ، لأنك بمنزلة أبي».

ففرح الباشا لنجاح سعيه، وكان قد أعد الورق والدواة لهذا الغرض ، فكتب عزيز صكا بالتنازل عن كل أمواله للباشا ، ثم أشهد على ذلك بعض الشهود ، وناول الباشا الصك فجعله في جيبه فرحا بتحقق أمانيه ، وهنا شعر عزيز بالخطأ الذي وقع فيه، ولكنه لم يجرؤ على استرجاع الصك، فلبث صامتا مهموما لاستيقانه بأنه صار صفر اليدين لا يملك شيئا، لكنه عاد فتذكر انه سيكون عما قليل قرينا لفدوى فتعود هذه الأموال واموال الباشا جميعها اليه ، فسكن جأشه قليلا ، تعلقا بفدوى ورغبة في الاقتران بها.

وفي يوم من أيام شهر مارس (اذار) كانت فدوى في غرفتها سابحة في بحار الهواجس فدخل عليها بخيت وقال لها: «ورد علي كتاب من عبود ذكر فيه انه وصل الى قرب الخرطوم، لكنه لم يستطع دخولها لأنها تحت الحصار، وسيبقى في انتظار الحملة النيلية الذاهبة لانقاذ حامية الخرطوم فيسير برفقتها».

فقالت: «اني يا بخيت قد بلغ بي اليأس منتهاه ولم أعد أستطيع صبرا». وبكت وأخذت تتأوه وتتحسر، فراح بخيت يواسيها ويمنيها، ثم خشي مجيء أبيها فاستأذن وخرج، وتركها نهبا للوساوس والأحزان.

وفي الليلة التالية رأت حلما أزعجها كثيرا، لأنها رأت فيه شفيقا مضرجا بدمائه في صحراء السودان والنسور حائمة عليه تأكل من جثته، فاستيقظت مرتعبة باكية، وكتمت الأمر عن أبيها، ثم دعت بخيتا وقصت عليه حلمها وهي تبكي ثم قالت له: «اذا كنت مخلصا لي حقا، فأتني بسم أتجرعه، لألحق بشفيق في العالم الآخر قبل ان يدرك مني ذلك اللعين وطرا !».

فقال بخيت: «لا بأس عليك يا سيدتي، ووالله لن ينال ذلك الوغد مسمارا في نعلك وأنا على قيد الحياة».

قالت: «ان الحياة لم تعد تحلو لي، فأتني بالسم والا خنقت نفسي بيدي». وحاولت خنق نفسها بيدها، فأمسكها بخيت وحاول تسكين ما بها فلم يستطيع لأن عواطفها تسلطت على عقلها وأخذت تلطم وتثب كمن أصيب بجنة وقد حلت شعرها وقطعته وأوغلت في البكاء.

فوقع بخيت في حيرة وأخذ في البكاء معها، ثم لاح له ان يتظاهر بموافقتها فقال: «سأفعل ما تريدين، ولكن خففي عنك الآن لئلا يأتي سيدي ويراك على هذه الحال».

فابتدرته قائلة: «لم اعد أحسب حسابا لأحد، لاني لست مالكة رشدي، ولا أنا خائفة من شيء، وسأكون عما قليل في عداد الأموات».

فبكى بخيت تأثرا، ثم حاول تعزيتها والترفيه عنها كي تصبر حتى يأتي الرسول، فلما ذهبت محاولاته سدى، قال لها: «سأذهب لآتي لك بالسم، ولكن أمهليني بضعة أيام، لأن الصيدليات لا تبيع السموم بغير أمر الطبيب ولا بد لي للحصول عليه من تدبير وسيلة لذلك».

فقالت: «لا بأس ولكني أوصيك بالاسراع ما استطعت لأن الموت أفضل من حياتي هذه».

ثم القت بنفسها على السرير خائرة القوى، وخرج بخيت يبحث عن وسيلة لنجاة سيدته من هذه الحال. وخشي ان تعود الى خنق نفسها بعد خروجه، فعاد لتفقدها بعد قليل فاذا بها ما زالت ممدة على السرير كأنها نائمة. ورأى على سرير الباشا بعض أوراق كأنه نسيها،

ووقعت عينه بينها على ورقة مكتوبة بخط يشبه خط شفيق ، فتأملها فاذا هي الورقة التي أرسلها شفيق من الابيض الى والديه ينبئهما ببقائه حيا ، فأخذ بخيت يرقص طربا كأنه أصيب بجنة ، ولكنه خاف على سيدته من صدمة الفرح الشديد ، فجاهد نفسه لاخفاء فرحه وانتظر حتى أفاقت ، فما كادت تنظر في وجهه حتى قرأت فيه امارات البشر فنهضت وسألته : « لعلك جئت بالسم المنشود ؟ » .

فتلعثم ولم يحر جوابا ، ثم تجلد وأخذ يمهد لالقاء النبأ اليها لئلا تضرها البغتة فقال : «لقد جئتك بما هو خير وأبقى ، فاتكلي على الله وهو يمنحك كل ما تريدين» .

قالت : «أنت تعلم صدق ايماني بالله ، غير أني أرى مماتي أقل شقاء لي من حياتي» .

قال : «وهل تحققت ان سيدي شفيقا غير حي ؟» .

قالت : «ان ما علمناه يقرب من اليقين» .

قال : «كلا يا سيدتي ، بل الأرجح انه على قيد الحياة» .

فانتفضت فدوى عند سماعها ذلك وقالت : «ماذا تقول يا بخيت ؟ . هل سمعت شيئا جديدا» .

قال : « هبي اني لم أسمع شيئا ، فإن قرائن الأحوال تدل على ذلك» .

قالت : «أين هذه القرائن فاني لم أر واحدة منها» .

قال : «أول القرائن انكما وقعتما في ضيق وخطر مرارا فأنقذكما الله ، وهذا دليل على أنه سبحانه وتعالى يريد بقاءكما لتتمتعا ببقية حياتكما . والقرينة الثانية اننا لم نسمع خبرا صريحا بقتله او موته . وأما القرينة الثالثة . . . » . وسكت

فابتدرته قائلة : «وما هي القرينة الثالثة ؟» .

فقال : «ان القرينة الثالثة هي هذا الكتاب الصغير» . ومد يده اليها بكتاب شفيق ، فما كادت تشاهد خطه حتى شهقت وارتدت اليها قوتها وهمت بالورقة فاختطفتها وقلبها يخفق وفرائصها ترتعد ، وأراد بخيت منعها فلم يستطع ، ثم قرأت تلك الورقة وعيناها تكادان تطيران من اللهفة ، ولم تتم القراءة حتى امتلأت عيناها بدموع الفرح والبشر ، وظلت تعيد قراءة الكتاب ثانية وثالثة ورابعة ، وأخيرا قالت لبخيت : «ما العمل الآن وما الرأي ؟» .

فقال : «الرأي ان ننتظر الفرج من عند الله فانه على كل شيء قدير» . قالت : «وماذا نعمل في شأن ذلك الثقيل الذي سلطه الله على أفكار ابي حتى صمم على تبليغه مرامه ؟» .

قال : «ثقي بأنه غير بالغ مسمارا من نعلك ، ولسوف ترين من بخيت ما يسرك » .

قالت : «افعل ما بدا لك ، ولكنني لا أرى ان أبي يميل الى موافقته » . فتكلف بخيت الضحك وقال : «بل لقد تم اتفاقهما ، ولكن ذلك الوغد لن يبلغ شيئا ما دمت حيا ولو أتى

بمنومي العالم كلهم !». ثم عض انامله كأنه صرح بما لم يكن يريد التصريح به.

فقالت له فدوى : «ما معنى هذا الكلام ؟ ومن المنومون الذين تعنيهم ؟». فحاول التخلص من الجواب، ولكنها ألحت عليه حتى خاف غضبها اذا لم يخبرها فقال لها : «ان في الاطباء اليوم فئة يستخدمون التنويم المغناطيسي، ومن خواص ذلك التنويم استهواء النائم والايحاء اليه بأن ينفذ بعد استيقاظه كل ما طلب منه وهو نائم . وقد علمت من ثقة ان ذلك الخائن بعث الى بلاد أوربا يستقدم طبيبا لينومك ويستهويك كي تحبيه !».

فضحكت ساخرة وقالت : «ان جميع منومي العالم لا يمكنهم ان يحببوا الي هذا النذل الخائن، واذا مت فإن ترابي لا يحبه ولا يمكن ان يحبه».

فقال : «ان فعل الاستهواء غريب يا سيدتي ، ولكني أخبرك بأنك تستطيعين رفض النوم، لأن أباك سيدعي ان ذلك الطبيب جاء لتطبيبك ، فتظاهري انك بخير ولا تحتاجين الى طبيب ، والأفضل ان تطلبي السفر من هذه المدينة لترويح النفس فان الأطباء قد اشاروا بذلك في الشتاء ولم تكن الطريق مفتوحة لكثرة الثلوج . أما الآن فقد جاء الربيع والتجول في لبنان مما تتوق اليه النفس وينشرح له الصدر».

قالت : «لقد نطقت بالصواب ، فارجع هذا الكتاب الى ما بين أوراق أبي لئلا يعلم باطلاعنا عليه ، وسأدبر أمر سفري منذ الآن».

ولما كان وقت الغداء جاء الباشا ليتناوله مع فدوى . وكان قد قضى نصف النهار مع عزيز فلما جلسا الى المائدة أخذا بأطراق الحديث فقال الباشا : «أراك اليوم والحمدلله في صحة جيدة».

قالت : «نعم يا أبتاه وأني أشكر الله على ذلك ولكنني أشعر باحتياجي الى الخروج من هذا الفندق، ومن هذه المدينة».

قال : «وأنا أرى رأيك ، فإلى أين تريدين الذهاب ؟». قالت : «أسمع الناس يطنبون في مدح هواء لبنان ولا سيما في أوائل الصيف، فالأفضل ان نقصد احدى القرى حيث يمكننا الاقامة بفندق او منزل بضعة أشهر، ومتى انقضى الصيف عدنا الى بيروت».

فاستغرب الباشا ذلك منها ، ولكنه فرح به وخيل اليه ان تحسن صحتها نتيجة نسيانها شفيقا، فازداد سروره.

وما انتهى من الغداء حتى انطلق الى مقابلة عزيز وعلى وجهه امارات البشر ، فقص عليه ما دار بينه وبين فدوى ، فقال عزيز وقد رقص قلبه فرحا : « وأنا ماذا أفعل ؟».

قال : «تتبعنا بعد بضعة ايام الى قرية عالية ، وهي على مسافة ثلاث ساعات بالعربة من هنا وموقعها في سفح جبل عال تشرف على بساتين وغياض».

ثم أمر الباشا بخيتا ان يهيىء ما يلزم للسفر، وبعد يومين سار الباشا وابنته وبخيت في عربة حتى وصلوا قرية عاليه فاتخذوا لهم مكانا في بيت لبعض أهل القرية . ولم يمض شهران حتى تحسنت صحة فدوى كثيرا ، وكانت تخرج مع أبيها او مع بخيت الى الكروم خارج القرية فتأكل ما حضر من الفاكهة . . وتروح النفس باستنشاق الهواء النقي الذي ليس له مثيل في العالم.

أما عزيز فلحق بهم واتخذ له مكانا بالقرب من بيت الباشا حتى يطمئن قلبه على فدوى ، دون ان يطمع في مشاهدتها. ولكنه كان يعلل النفس بمواعيد والدها، ورأى بعد مشورته الا حاجة الى التنويم لأنها أخذت تسلو شفيقا.

وفي ذات يوم من أيام سبتمبر (ايلول) خرجت فدوى مع بخيت للنزهة في بعض الكروم، ولما استقر بهما المقام على صخر مرتفع مشرف على عدة آكام يكسوها كروم العنب والتين والمشمش وغيرها، وقد مالت الشمس الى الزوال فأصبح منظر تلك التلال مع ما تشرف عليه من سواحل بحر الروم من بعيد منظرا بديعا تزينه أشعة الشمس المائلة الى الاصفرار ويكلل البحر عند الافق الشفق المتعدد الالوان.

فقالت لبخيت : «ماذا نصنع بذلك النذل الذي ما زال يرجو المستحيل بعد ان علم بأني لا استطيع ان أراه ولا يمكن ان أميل اليه، وقد وافقه أبي على قصده وأخشى ان يغريه بتعجيل الأمر فنقع في بلاء عظيم ؟».

فابتدرها بخيت قائلا : «طيبي قلبا يا سيدتي ، وتحققي ان الفرج قد صار قريبا . أما أمر الاقتران فشيء يسهل تأجيله ما دمت تظهرين لسيدي انك لا تكرهين ذلك النذل الخائن ، وثقي بأن قتله أسهل لدي من شرب كأس ماء، ولكنني لا أرى داعيا للتعجيل بذلك فلا حاجة بنا لان نعرض أنفسنا لقصاص الحكومة أو لغضب سيدي الباشا. أما اذا رأيت منه ما يكدرك فإني اقتله ولو كان داخل القلاع والحصون ولا أبالي ما يكون بعد ذلك فاعملي أنت على الهاء سيدي الباشا عن اتمام ذلك الأمر بالأسفار ونحوها، حتى نعود الى القاهرة ويكون الله قد أذن باطمئناننا فيما يختص بسيدي شفيق».

فقالت : «بورك فيك يا بخيت لقد نطقت بالصواب ، فهيا بنا الى المنزل لأن الشمس قد غربت». ونهضا عائدين الى المنزل.

وفيما هما في الطريق لمح بخيت ساعي البريد قادما من بيروت ، فأسرع اليه وسأله : «أمعك خطابات لسيدي الباشا». وكان الساعي قد عرفه من قبل ، فسلمه كتابين أحدهما أكبر حجما من الآخر كأن فيه أكثر من كتاب، فقالت فدوى لبخيت : «لعل في هذا الظرف كتابا خاصا بي ، ومتى وصلنا الى أبي نعلم الحقيقة».

ولما وصلا الى البيت وجدا الباشا هناك ، فسلمه بخيت الكتابين ، فأخذهما وجلس وابنته في الحجرة ، وفض أول كتاب وقرأه ، ثم فض الكتاب الآخر فاذا فيه كتاب آخر ورقه قديم ، وكانت فدوى تختلس النظر الى أبيها فلاحظت على وجهه علامات التعجب ، فخفق قلبها ورغبت في استطلاع الأمر لكنها صبرت حتى يفرغ أبوها من القراءة ، ثم رأته قد تناول الكتاب القديم وأخذ يقرؤه في ذهول ، فلم تعد تستطيع صبرا ، ولكن الباشا ما لبث ان تظاهر بانشغاله بأمر مهم خارج الغرفة ثم عاد وقد أخفى أحد الكتابين، فأدركت فدوى ان فيه شيئا يخصها ، ولكنها اكتفت بأن سألت أباها عن الأخبار فقال : «ان والدتك في خير ، وهي تود المجيء الى هنا لقضاء فصل الصيف والذهاب الى دمشق لمشاهدة والديها».

فقالت : «حبذا مجيئها فاني أستأنس بها في هذه الديار ، فهلا كتبت اليها لتجيء ».
قال : «سأفعل ان شاء الله».

وبعد العشاء ، أوى الباشا الى فراشه فتظاهرت فدوى بالرغبة في النوم هي الأخرى ، ولكنها كانت قد اتفقت مع بخيت على ان يجيئها بالكتاب الذي أخفاه أبوها. فلما انتصف الليل، سمعت وقع أقدام في غرفتها وكان النور فيها ضعيفا فانتبهت وجلست وأشعلت شمعة، فرأت بخيتا وفي يده ذلك الكتاب فأخذته ودنت من الشمعة وأخذت تقرؤه فاذا فيه :

«اعلمي يا زوجتي العزيزة ان حكاية ذلك الصندوق وذلك الشعر الملوث بالدماء حكاية قد كتمتها عن جميع المخلوقات أكثر من ثلاث وعشرين سنة. وقد كنت عازما على كتمانها بعد ذلك ، على أن الحاحك وسفرنا في البحار الآن حملاني على كتابة هذا اليك حتى اذا أصابني سوء في البحر أو البر قرأت هذه الورقة وعلمت حكايتي وأصلي وفصلي .

«أما أصلي فمن دمشق الشام، ولم يرزق أبواي غيري الا ابنة واحدة، فأحسنا تربيتنا، وعشنا في رغد ونعيم حتى كانت حادثة دمشق سنة ١٨٦٠ على أثر حوادث لبنان المفجعة التي ذبح فيها نصارى حاصبيا ودير القمر وغيرهم ذبح الاغنام بعلم رجال الحكومة . وذلك ان أحد المسيحيين في دمشق رأى السير على مقتضى التنظيمات التي سنها السلطان عبد الحميد سنة ١٨٥٦ بشأن البدلية العسكرية ، ولكن أحمد باشا والي المدينة لم يوافق على ذلك ، وكتب الى الاستانة يشكو المسيحيين الدمشقيين ويتهمهم بالعصيان ، فأذنت له في تأديبهم، فجمع اليه مشايخ المدينة وعلماءها في القلعة ، فأفتوا بتأديب العصاة ، وفي صباح اليوم التاسع من شهر يوليه (تموز) سنة ١٨٦٠ بدأت الثورة في ناحية باب البريد قرب الجامع الأموي فثار أهل تلك المنطقة بدعوى الاهانة التي لحقت بالمسلمين على أثر حكم الوالي على بعض السوقة منهم بالطواف في

الاسواق وكنسها وهم مغلولون عقابا لهم على ما أرادوه بالمسيحيين من الاهانة قبل ذلك برسم صورة الصليب على الطرق.

«وكنت انا في جملة أهل باب البريد أيضا ، فرأيت جيراني قد ثاروا كافة ، وأغلقوا حوانيتهم وحملوا سلاحهم غضبا من تلك الاهانة المزعومة فأغلقت حانوتي مثلهم، وتبعت الجماهير وطفقنا ندخل البيوت ونقتل كل من تصل اليه أيدينا من المسيحيين، وكنت دون العشرين من العمر، لا أفقه ما أفعل لان الاندفاع أعمى بصيرتي، فدخلت بيتا هناك والخنجر الى يدي يقطر دما فخرج الي شاب وترامى على قدمي يقبلهما ويتضرع الى ان اكتفى بقلته ولا ادخل البيت، فلم أصغ الى قوله وازددت رغبة في الدخول فقال: «ليس في البيت أحد الا فتاة هي خطيبة لي فاقتلني واكفف عن البيت لئلا يصيب الفتاة سوء». فما كان مني الا أني طعنته بخنجري فسقط صريعا . ثم نظرت واذا بفتاة كالبدر طلعة والخيزران قواما محلولة الشعر حالكته قد خرجت من ذلك البيت ، فرمت نفسها على ذلك الشاب تندبه وتبكيه، فهممت بأن أمسكها وأرفعها عنه فأصابت قبضتي شعرها وأردت انهاضها فاذا هي ميتة لا حراك بها . فشعرت من تلك اللحظة كأني صحوت من سكرة، وعلمت اني قتلت نفسين بريئتين . وكانت يدي لا تزال قابضة على شعر الفتاة فجذبتها فالتصق بيدي بسبب الدم الذي كانت يداي ملوثة به، وغادرت البيت مهموما. فاذا بجماعة في لباس المغاربة يتقدمهم رجل جليل القدر في مثل لباسهم ولكن أكثر اتقانا وعظمة ، فحالما وقع نظري عليه عرفت انه الامير عبد القادر الجزائري وأن هؤلاء رجاله يطوف بهم المدينة لانقاذ النصارى من الذبح، وعلمت بعد ذلك انه فرق نحو أربعمائة من رجاله في الاسواق مسلحين يحملون العائلات المسيحية الى بيته وقاية لهم من القتل، وقد خرج هو بنفسه أيضا لمساعدة رجاله، فاتفق أنه وصل الى ذلك البيت وقد تحولت للخروج منه. فلما عاين جثتي القتيلين في ساحة الدار وقد اختلط دمهما بالماء المنسكب من(الفسقية) على الرخام صاح بي قائلا : «يا لقسوتك يا جاهل». . ثم ناداني باسمي وأمر رجاله ان يدخلوا الدار فارتعدت فرائصي وكأني شعرت بشنيع فعلتي ولم أعد أعي ما أعمل فحملني حب النجاة على ان أفر من وجه أولئك المغاربة، فأدركني واحد منهم وهم بالقبض علي فابتدرته بطعنة من خنجري أصابت صدره فسقط ، وتحولت الى داخل البيت وأنا لا أدري الى أين أذهب فسمعت الامير يقول : «اقبضوا عليه او اقتلوه لأنه استحق القتل». فأسرعت الى نافذة وثبت منها الى الطريق وطلبت الفرار وما زلت مسرعا لا ألوي على شيء ، وفي يمناي الخنجر يقطر دما، وفي يدي الاخرى خصلة الشعر ملوثة بالدماء، وما زلت ممعنا في الفرار حتى سدل الليل نقابه فاختبأت في مكان منعزل بضعة ايام حتى علمت ان الحكومة السنية بعثت فؤاد باشا

مندوبا عنها لتحري الحقيقة وقتل الجناة، فأيقنت بأن الامير عبد القادر يترقب الظفر بي ليحكم علي بالقتل وأنا استحقه شرعا وعرفا، فخرجت من دمشق الشام ولم أخبر أحدا بخروجي وجئت الديار المصرية وأنا لا أزال خائفا من غائلة ما جنته يدي. وكنت قد حفظت تلك الخصلة من الشعر في صندوق حتى لا أنسى ذنبي. ولما استتب لي المقام في القاهرة لم أر افضل من انتظامي في خدمة قنصلية انجلترا لأكون في حمايتها اذا اقتضت الحال، وما زلت أجد وأترقى حتى وصلت الى ما أنا عليه وقد سميت نفسي ابراهيم بدلا من عبد الرحمن اخفاء لحقيقة أمري.

«وقد كنت عازما على كتمان هذه الحكاية حتى يحكم الله فيها فاما ان يسافر الامير عبد القادر من دمشق او أن يموت او تأتي ساعتي، وبما أنك أردت معرفة هذا حتى اذا غرقت في البحر الذي نحن مسافرون فيه وقرأت هذا علمت ان والدتي ووالدي لا يزالان في دمشق، وقد علمت ان شقيقتي اقترنت برجل عظيم غريب الديار فأعلمي ولدنا بذلك أيضا حتى يسير الى جديه، فإنهما يسران بمشاهدته كثيرا اذا كانا لا يزالان على قيد الحياة، وفيما يلي اسم أسرتي وعنوانها. اما الصندوق فأحرقيه بجميع ما فيه والسلام».

■

لم تكد فدوى تتم قراءة ذلك الكتاب حتى اختلج قلبها في صدرها وارتجفت ركبتاها وبردت أطرافها وصاحت قائلة: «بخيت .. بخيت من تظنه كاتب هذا الخطاب ؟.. أليس هو والد حبيبي شفيق، فان اسمه ابراهيم وهو موظف في قنصلية انجلترا ؟ ولولا ذلك ما أخفى أبي هذا الخطاب ؟».

فتبسم بخيت وقال بصوت منخفض: «ان لذلك سببا مهما». قالت: «وما هو ؟».

فأخرج من يده ورقة أخرى وقال: «هذا كتاب والدتك المرسل مع هذا». فتناولته وقرأته فاذا فيه:

«انت تعلم حكاية فقد اخي أثناء حادثة دمشق سنة ١٨٦٠. وقد استنتجت من قراءة هذه الورقة ان كاتبها هو أخي بعينه، فبعثت بها اليك لأرى رأيك لعلك تعرف شيئا عن الرجل، وأحب المجيء اليكم لأرى والدي ونتباحث في ذلك».

فبهتت وقد أخذ العجب منها مأخذا عظيما ثم صاحت قائلة: « شفيق من ذوي قرابتي ؟شفيق ابن خالي ؟ آه لو عرفت ذلك قبل الآن». ثم بكت من شدة الفرح والتأثر.

فقال بخيت: «عليك بكتمان الأمر كأنك لم تعلمي شيئا عنه، ومتى جاءت والدتك فكاشفيها بالحكاية واستطلعي كنه الأمر منها، وها انذا سأعيد الخطابين الى حيث كانا». قال ذلك وخرج فعادت فدوى الى فراشها وقد تضاعف حبها لشفيق بعد ان عرفت بما بينهما من

القرابة .

وفي اليوم التالي بكرت للخروج الى الكروم وسار بخيت برفقتها فافتتحت حديث الامس فضرب الأرض برجله وقال: «أؤ كد لك يا سيدتي ان الله سيطيب قلبك قريبا لأن محبتكما طاهرة واساسها القرابة عن غير علم منكما فان هذه الحجارة تقضي باجتماعكما والله يفعل ما يشاء ، وأرى الآن ان تلحي على سيدي الباشا ليستقدم سيدتي الى هنا ، ومتى جاءت تذهبون جميعاً الى دمشق لمشاهدة جديك».

فلما عادت الحت على والدها في استقدام أمها. فأجابها الى ذلك لأنه كان يراعي رأيها كثيرا حفظا لرضاها على عزيز .

وبعد مضي بضعة أشهر جاءت والدتها ، فخاطبتها فدوى في أمر تلك الوصية وأفهمتها ان أخاها هو أبو شفيق حبيبها ، فقالت والدتها : « نطلب الى الله ان يجمعنا بأخي ، وعسى ان يعود شفيق من السودان حيا».

فتنهدت فدوى وسكتت تنتظر الفرج من عند الله .

وكان الشتاء قد جاء ولم تعد تطيب السكنى في لبنان لتراكم الثلوج وهطول الامطار واشتداد البرد ، فاستقر رأيهم على السفر الى دمشق ليشاهدوا الأهل ويقضوا بقية فصل الشتاء هناك .

فبعث الباشا الى بيروت يكتري عربة خاصة من شركة طريق الشام ، فلما حضرت العربة ركبوها جميعا تاركين سائر الخدم والامتعة في عالية .

أما عزيز فتواطأ مع الباشا على ان يتبعهم الى دمشق ، فسارت بهم العربة على تلك الربى في طريق كثيرة التعرج ، تارة يصعدون وطورا ينحدرون ، حتى وصلوا الى البقاع العزيزية المشهورة بخصبها واتساعها في منتصف الطريق بين بيروت ودمشق . وهي تبدو للرائي كأنها بساط متسع منقسم أقساما مربعة عديدة الالوان ، بين أحمر قان وأبيض وأسمر وأخضر وأزرق وسنجابي وعنابي.

فوقفت بهم العربة بالقرب من فندق في ذلك السهل نحو ساعة حتى استراحوا ، ثم عادوا يريدون دمشق فلم يدركوها الا بعد الغروب فنزلوا بفندق مشرف على نهر بردى ، ونزل الباشا في الصباح التالي يفتش عن حمويه فاذا هما لا يزالان في بيتهما القديم ، فلما شاهدا الباشا لم يعرفاه لطول غيابه عنهما ، وهو أيضا لم يعرفهما لما كان من تأثير الشيخوخة عليهما مع ما رافق حياتهما من الأحزان والاكدار ،ولماعرفاه وعرفهما هما اليه وقبلاه وقبل ايديهما وسألاه عن ابنتهما فقال: «هي هنا معي بخير وابنتي كذلك، وانما جئت وحدي لكي اتحقق وجودكما في البيت».

فتقدما اليه ان يبعث اليهما ليأتيا، فذهب هو بنفسه وجاء بها، ونزل الجميع ببيت عمه، ولا تسل عن قلب ذينك الوالدين وما أظهراه من الاشتياق لابنتهما التي لم يرياها منذ خمس وعشرين سنة تقريبا. وقد أحبا فدوى خاصة لما كان في وجهها من اللطف والجمال رغم ما هي فيه من الضعف.

ومكث الباشا وأسرته في دمشق بقية الشتاء. فلما كان ربيع سنة ١٨٨٥ جاء عزيز الى دمشق راجيا نيل مرامه بعد طول مدة الانتظار ولكنه لم يجرؤ على مخاطبة الباشا في ذلك لئلا يغضبه فتضيع جميع ممتلكاته، ولا تسل عن ندمه على كتابة الصك الذي تنازل له فيه عنها، فلم يسعه الا الصبر.

معركة مع قطاع الطرق

ولما أراد الباشا الرجوع الى مصر ، ألح على حمويه في أن يهاجرا من دمشق ليقيما معه، وقال لهما بعد ان أطلعهما على خطاب أبي شفيق : «اننا نرجو ان نجتمع بولدكما في مصر ، لأني لا أظنه يأتي الى هنا، فالأفضل ان تسيرا معنا لنقضي بقية الحياة معا هناك» . فاستحسنا هذا الرأي، بل كان ذلك غاية مناهما تخلصا من تذكر ولدهما في المدينة التي فقد فيها. فباعا كل ما كان لهما من الامتعة والأثاث والاملاك ، وسار الجميع من دمشق قاصدين الى مصر. وكان ذلك في صباح يوم من أيام شهر أبريل (نيسان) سنة ١٨٨٥، فاكتروا عربتين ركبت في احداهما فدوى ومعها جداها، وكانا قد أحباها محبة عظيمة ولم يعودوا يستطيعان مفارقتها، وركب في الاخرى الباشا وزوجته وبخيت. وهم جميعا ملثمون بالكوفيات الحريرية الدمشقية، وقد التفوا بالعباءات فوق ملابسهم للوقاية من غبار الطريق كما هي عادة المسافرين في تلك الجهات. وكانوا يقدرون ان يصلوا الى البقاع عند الاصيل فيعرجون من هناك الى بعلبك للمبيت فيها ، ومشاهدة قلعتها الشهيرة في اليوم التالي، ثم يواصلون السير الى بيروت.

وكان الباشا قد أخبر عزيز بأمر سفرهم ليقتفي أثرهم.

وما زالوا سائرين مسرعين بالعربتين مخافة ان يدهمهم الليل في الطريق ، وفيها أماكن خطرة يكمن فيها اللصوص للنهب والقتل. وبعد ثلاث ساعات حرنت خيل العربة التي بها فدوى وجداها ، وجعلت تتقهقر الى الوراء ، والطريق هناك على حافة هوة سحيقة فخاف السائق ان تتردى فيها العربة، ونصح لهم بالنزول منها فنزلوا ،وما لبثت العربة ان اصطدمت بصخرة هناك فتعطل بعض أدواتها، واضطر الباشا الى وقف عربته أيضا ريثما يتم اصلاح العربة الاولى . فلم يتم اصلاحها الا بعد الظهر بساعتين. فاستأنفوا السير مجدين خوفا من خطر الطريق.

ولما وصلوا الى محطة ميرسلون بدلوا خيل العربتين في مركز شركة النقل هناك، ثم ساروا قليلا فأشرفوا على منحدر ينتهي بواد عميق بين جبلين والشمس قد قاربت الغروب ، وشاهدوا الى جانب الطريق قبل مدخل الوادي بناء قديما مهجورا بدا رهيب المنظر في ذلك

الوقت ، ولمحوا في ذلك البناء أشخاصا بملابس أهل تلك المنطقة وقفوا يتفرسون في العربتين حتى مرتا بهم ، ثم رآهم بخيت يسيرون في أثرهم متمهلين، فأوجس خيفة منهم لكنه لم يخبر أحدا بذلك واكتفى بأن أوعز الى السائقين ان يزيدا في سرعة السير.

■

ما زالت العربتان سائرتين حتى دخلتا ذلك الوادي فاذا هو بين جبلين شامخين لا يرى المار فيه من السماء الا جزءا صغيرا جدا، فقال أحد السائقين يخاطب بخيتا : «هذا هو وادي القرن المشهور بقاطعي الطرق ، وكان الخطر فيه شديدا جدا في الزمن الماضي ، وأما الآن فقد استخدمت شركة النقل حراسا من الفرسان يتجولون فيه ذهابا وايابا حماية لعرباتها ومن فيها . كما ان الحكومة ايضا عينت نفرا من الجند لهذا الغرض وقد شاهدنا بعضهم في طريقنا منذ ساعة».

وكان الباشا يسمع هذا الكلام ، فخفق قلبه بشدة ولا سيما أن معظم رفاقه نساء وشيوخ لا يقوون على الدفاع ، لكنه تجلد مسلما الأمر لله.

وبعد ان سارت العربتان قليلا والرهبة مستولية على الجميع ، حرن الجواد الجديد الذي يجر عربة الباشا ، وأخذ يسير القهقري حتى اصطدمت بصخرة هناك، وانغرست احدى عجلاتها في قناة على جانب الطريق ، فلم يعد اخراجها ممكنا الا رفعا بالأيدي. فنزل الباشا من العربة مستعيذا بالله ، وكذلك نزلت فدوى ، وأخذ بخيت يساعد السائق في رفع العجلة فاستغرق هذا وقتا غير قصير . وكانت الشمس قد غربت وساد الظلام ، فأخذ سائقا العربتين في الشتم والسب، وكان الباشا يسمع السب بأذنيه ولا يسعه الا ملاطفتهما واسترضاؤهما بتقديم السجاير وغير ذلك من أنواع الملاطفة فلا يزدادان الا غضباً وسبا.

وأما بخيت فكان قد درس طباع القوم، وسمع كثيرا من حوادث وادي القرن ، فأخذ يتظاهر امام السائقين بعدم الاكتراث .

وأخيرا ، تم اخراج العجلة فاستأنفت العربتان مسيرهما وقد اشتد البرد، فبالغ الباشا ومن معه في التدثربالعباءات والتلثم بالكوفيات حتى لم يعد يظهر من وجوههم الا العيون، وكل منهم مرهف سمعه وبصره خيفة من هول ذلك الوادي وشدة رهبته في ذلك الظلام السائد والسكون المطبق.

وكان بخيت راكبا بجانب السائق في العربة الامامية التي بها الباشا، فلم يمض قليل حتى سمع وقع اقدام وراء العربة فالتفت فاذا بالرجال الذين خرجوا من ذلك البناء قد أسرعوا

يريدون ادراك العربتين، فأوعز الى السائقين ان يسرعا، ولكن القوم ادركوا الخيل وأمسكوا باعنتها وأوقفوها . فصاح بهم بخيت وقد بدا منظره مخيفا لشدة سواد لونه ولمعان عينيه في ضوء مصابيح العربتين الخافت : «ماذا تريدون ؟». فأجابه أحدهم قائلا : «هاتوا ما معكم وفوزوا بأرواحكم».

فرد بخيت بصوت جهوري وقلب لا يهاب الموت قائلا : «ليس عندنا الا السيوف القاطعة والرصاصات القاتلة ، فاذهبوا لشأنكم والا جنيتم على أنفسكم !» .

فقال الرجل : «فوزوا بأرواحكم ، وهاتوا ما معكم فذلك خير لكم !». وجرد سيفه، وكذلك فعل أصحابه.

فوثب بخيث من العربة وفي يده المسدس واطلق منه رصاصة في الهواء قائلاً: « اننا لا نهاب سيوفكم وهذه نارنا تحرق أبدانكم».

وكان بخيت يتكلم وقلبه يخفق خوفا على من معه ولا سيما فدوى اما السائقان فلأنهما مسؤولان عن العربتين أمام أصحاب الشركة اضطرا الى مشاركة بخيت في الدفاع.

على ان اللصوص كانوا قد علموا ان ليس في العربتين من الرجال الاشداء غير هذا العبد والسائقين، وسرعان ما نفخ أحدهم في صفارة معه فخرج من جوانب الطريق نفر من أمثالهم معهم السيوف والعصي والمسدسات ، فوقع الرعب في قلوب الجميع ، ولكن بخيتا اشتدت به النخوة والحماسة حتى صار كمن به جنة، والتفت الى السائقين اللذين معه وقال: «هيا أيها الابطال، أذيقوا هؤلاء الانذال كأس الوبال!».

فاستل كل منهما خنجره وهجما معه على اللصوص، بينما أطلق هو من مسدسه بعض الطلقات على هؤلاء فجرح اثنين منهم، ولكنهم بدلا من أن يفروا ، بادلوه اطلاق الرصاص فأصيب في كتفه وصرخ من شدة الالم ولكنه لم يكف عن الدفاع.

أما العربتان فان خيلهما أجفلت من صوت الطلقات، فأخذت في التقهقر والقفز ، وصارت فدوى وجداها في خوف لا مزيد عليه وكذلك الباشا وامرأته في العربة الثانية.

وأخيرا تقدم بعض اللصوص فأطفأوا مصابيح العربتين وطلبوا الى من فيها ان يسلموا ما لديهم ، فأعطاهم الباشا بعض ما معه من المال ووعدهم بأكثر منه اذا كفوا عن أذاهم، ثم جاء رفاقهم بعد ان تركوا بختيا مضرجا بدمائه بين حي وميت، وبعد ان فر السائقان، فانضموا اليهم. وأخذ الباشا وحموه الشيخ في استعطاف اللصوص واسترحامهم ، بينما دنا أحد اللصوص من عربة فدوى وأشعل عودا من الثقاب، فرآها جالسة بجانب جدتها العجوز في لباس السفر، فلما رأته بالغت في التلثم وأخذت في البكاء والانتحاب مع جدتها فقال

لها : « اننا لن نؤذيكم اذا أعطيتمونا كل ما معكم». فصاح زميل له كان قد لحق به وبهره جمال فدوى : «أما أنا فلا أريد الا هذه الجميلة !». ثم مد يده وجذبها من العربة فسقطت على الأرض ، فصرخت جدتها ، وراح الباشا وجدها يستعطفان اللصوص ليتركوها وليأخذوا ما يشاءون ، ولكن هؤلاء لم يعبأوا باستعطافهم ، واستمروا في جرها على الارض يريدون الهرب بها، بينما أخذ بقية زملائهم في نهب ما في العربة من الأمتعة والملابس وغيرها.

■

بينما كان اللصوص يجرون فدوى سمعوا وقع حوافر خيل قادمة مسرعة، فتوقفوا عن جرها، وظن الباشا ان القادمين من اللصوص فخارت قواه وسقط على الأرض ، وصاحت فدوى قائلة : «ويلاه أتركوني يا ناس وخافوا من الله». ولم تتم كلامها حتى وصل الفرسان القادمون وصاح أحدهم : «قفوا مكانكم يا أنذال ». فسمعه الباشا وأدرك انه من الحراس فاشتدت عزائمه وكان قد هم بالنهوض ليدافع عن فدوى . ثم سمع بعض الطلقات النارية، ورأى اللصوص يركنون الى الفرار، ثم تقدم الفرسان القادمون وعددهم خمسة الى العربتين وهم ملثمون (بالكوفيات) وعليهم الملابس العسكرية ، فطمأنوا الباشا ومن معه، فشكرهم وتوسل اليهم ان يرافقوهم الى البقاع أو الى بعلبك وقال : «ان السائقين فرا ونحن لا نعرف الطريق ، وقد اصيب خادمنا الأمين وهو يدافع عنا». فبحثوا عن بخيت حتى وجدوه ملقى على الارض وهو مصاب بجرح في كتفه وآخر في فخذه ولا يستطيع النهوض ، فحملوه الى احدى العربتين، وركب اثنان من الفرسان في مكان السائقين وسارا بها، بينما سار زملاؤهم بجانبيها.

ولم يمض قليل حتى خرجوا من ذلك الوادي ووصلوا الى محطة الجديدة فوجدوا السائقين هناك، فعنفهما الباشا على فرارهما فاعتذرا بأنهما جاءا ليبلغا ما حدث الى مأمور المحطة ليرسل من ينجدهم. ثم عاد كل منهما الى مكانه في عربته بعد ان بدلا الخيل وأنارا المصابيح وساقا العربتين والفرسان ما زالوا يحيطون بهما. وسار الجميع يريدون البقاع.

لاحظ جد فدوى وهو راكب بجانبها في العربة ان الفارس الذي يحرسها يرتدي عباءة تحتها ملابس مدنية وليس عسكريا كبقية رفقائه، فلم يعبأ بذلك أول الأمر ، ثم أدار شكيمة جواده ، ودعا أحد رفاقه وأشار اليه ان يجيب الشيخ عما يسأل عنه فتعجب الشيخ لذلك ، ولما سأله الفارس الثاني عما يريد، قال له : «اريد منك أولا ان تخبرني لماذا لم يجبني رفيقك الحارس الآخر ؟».

فقال : «انه يا سيدي ليس من الحراس ، وكذلك نحن !». فازداد الشيخ عجبا

وقال : «اذن من تكونون ؟».

قال : «اننا من جند لبنان، وكنا سائرين في مهمة الى دمشق أيضا ، ولما كان الليل قد دنا وهو لا يعرف الطريق طلب ان يرافقنا فأجبنا طلبه، ويظهر انه كريم النفس جدا لانه لما سمع استنجادكم سارع الى الهجوم على اللصوص، وأبدى شهامة وشجاعة قل مثلهما ، ثم هو رغم تعجله الذهاب الى دمشق لم يسعه الا مرافقتكم معنا الى البقاع، مع ان هذا يؤخر وصوله الى دمشق يوماً كاملاً» فأعجب الشيخ بهذه الشهامة واعتزم متى وصلوا الى البقاع ان يخبر صهره بذلك ليوفي الرجل حقه من الشكر والثناء.

وكانت فدوى جالسة بجانب جدها تسمع حكاية الفارس فأعجبتها تلك الشهامة ، وتذكرت حبيبها شفيقا فهاج بها الوجد وأخذت دموعها تتساقط رغما عنها، ولم تكن تخشى ملاحظة جديها لان داخل العربة مظلم.

وفيما كان الشيخ يتحدث مع ذلك الفارس العسكري ، كان الباشا يتحدث مع الفارس العسكري الذي يسير بازاء عربته على سبيل التسلية ففهم منه حكاية ذلك المسافر الشهم كذلك، وأعجب به كل الاعجاب ، أما ذلك الفارس نفسه فكان يسير بجواده وراء العربة الخلفية التي بها فدوى وجداها، وهو في شاغل عن كل تلك الأحاديث بما يجول في خاطره من الهواجس والتأملات ، تطلعا الى دمشق التي كان يتوق الى الوصول اليها في أسرع وقت.

وما زالت العربتان سائرتين حتى سمع الباشا الفرسان يقولون : «ها قد وصلنا الى البقاع العزيزية وأصبحنا على مسافة أربع ساعات من بعلبك». فقال : «أظن ان الأفضل ان نبيت بقية هذا الليل في احدى القرى المجاورة ، لأن حركة العربة قد أضرت بجريحنا». ثم سأل عن أقرب قرية من الطريق فقيل له : «ان هناك قرية على مسافة نصف ساعة». فهم بأن يأمر السائق بالمسير اليها فاذا ببخيت يئن، فسأله عن حاله فقال : «لم اعد استطيع البقاء في العربة». فأوقفوا العربتين، ونزلت فدوى وهي ملثمة ودنت من أبيها تسأله عن بخيت ، فطيب قلبها ، وبعث احد الفرسان يسأل عن أقرب بيت في ذلك الجوار، فعاد وأخبره بأنه وجد بيتا كبيرا على مقربة منهم ، فساروا اليه جميعا، وترجل بعض الفرسان وحملوا بخيتا على أيديهم حتى اذا اقتربوا منه تقدمهم الفارس المجهول وهو لا يزال على جواده وسأل عن أهل ذلك البيت ، فخرج اليه رجل في لباس اسود لم يستطع تمييزه ولكنه هابه لاسترسال شعر رأسه على كتفيه وشعر لحيته على صدره، وكان يرتدي جبة سوداء غاية في البساطة فظنه راهبا وقال له : «ان معنا جريحا لم يعد يستطيع الركوب في العربة ، فجئنا به اليكم، فهل تسمحون بأن

يبيت عندكم الليلة وأجركم على الله». فبهت الرجل برهة كأنه يفكر في أمر طرق ذهنه ثم قال : «حسناً فليأت». ونادى قائلا : «تعال يا أحمد ساعد الضيوف في نقل جريحهم الى هنا». فجاء رجل في مثل لباس ذلك الرجل ، وخف الى المساعدة في حمل بخيت، حتى دخلوا به البيت وأجلسوه على مقعد في احدى الغرف ، ودخل الجميع الا العسكر فإنهم بقوا خارجا.

الفارس المجهول

أراد الباشا الخروج للثناء على اولئك الفرسان ولا سيما ذلك الفارس الشهم المجهول ، لكنه شغل بتضميد جرح بخيت ، فخرج حموه الشيخ جد فدوى للقيام بذلك الواجب نيابة عنه ، بعد ان أشار الى فدوى وأمها بأن تدخلا احدى الغرف.

وكان الفرسان العساكر قد عادوا الى خيولهم يعدون لها العلف ، ولم يبق خارج البيت الا ذلك الفارس المجهول، فحياه الشيخ، وجلس معه أمام البيت على (مسطبة) فوقها حصير، يشرف الجالس عليها على سهل البقاع الواسع ، فأشعل كل منهما سيكارته وأخذا بأطراف الحديث، وكان الفارس مازال ملتفا بالعباءة واللثام على وجهه، فأخذ الشيخ يثني عليه قائلا : «لقد اسرتمونا بما أظهرتم من شهامة، فعسى ان نستطيع مكافأتكم».

فقال الفارس : «اننا لم نفعل ذلك لمكافأة ، وانما فعلناه ابتغاء مرضاة الله». ولاحظ الشيخ ان لهجته مصرية فقال له : «لعل السيد من أهل مصر ؟».

قال : «نعم يا سيدي».

فقال الشيخ : «وهل للسيد أقارب في دمشق جاء لزيارتهم ؟».

قال : «لا . . ولكن جئت لرؤ ية أصدقاء فيها». فقال الشيخ : «هل لك ان تخبرني عن هؤلاء الاصدقاء لاننا من دمشق ، ولم نتركها الا صباح اليوم فلعلنا نعرف شيئا عنهم، والا فأسألك الاغضاء عن جرأتي بهذا السؤ ال».

فقال الفارس وقد أزاح اللثام عن وجهه تاركا الكوفية على رأسه : «العفو يا سيدي ، ليس في سؤ الك ما يوجب الاعتذار ، ولكن اصدقائي هؤلاء غرباء ، والأغلب انكم لا تعرفونهم لأنهم من مصر ايضا ».

فقال : «ان صهري الذي رأيته الآن معنا قادم من مصر، فلعله يعرف احدا من أصدقائك».

قال ذلك ودخل يدعو صهره فجاء وهو لا يزال ملثما ، وحيى الفارس بكل لطف وبدأ بالاعتذار اليه على تأخره عن شكره لاشتغاله بتضميد جراح خادمه. ثم أخذ يشكر همته

وغيرته ، والفارس مطرق خجلا .

فقال الشيخ للباشا : «ان السيد قادم من مصر يريد دمشق لمشاهدة بعض أصدقائه من المصريين» .

فالتفت الباشا الى الفارس وقال : «ومن هم اصدقاء حضرتك ؟» .

قال : «هم أسرة مصرية عميدها فلان باشا» . وذكر اسم الباشا نفسه ولم يتم كلامه حتى نهض الباشا ودنا منه متأملا ثم قال : «عجبا ! . . أنني أنا هو يا سيدي !» .

فنهض الفارس وألقى بنفسه بين يدي الباشا قائلا : «مرحبا بسيدي وعمي» . وطفق يقبل يديه ، فبهت الباشا ولكنه أدرك رغم ضعف النور ان الشاب الذي يكلمه هو شفيق بعينيه فوقع في حيرة بين الانذهال والاضطراب واليأس والرجاء ولكنه لم يستطع التوقف عن تقبيله وضمه الى صدره ، وسأله شفيق عن فدوى وبقية الأسرة فقال : «هي في خير وستراها قريبا» .

ثم جلسا يتحدثان بأمر هذا الاتفاق العجيب ، وكيف انهما لم يعرف احدهما الآخر ، لما كان فيه كل منهما من الشواغل ، ولمبالغة الباشا ومن معه في التلثم ، وهم الباشا بأن يعرفه بالشيخ جد فدوى ، فسمع ضوضاء في حجرة السيدات فتركهما مستأذنا ودخل ليرى ما حدث فرأى امرأته وامرأة عمه وصاحب المنزل متعانقين وهم يبكون ويقبل بعضهم بعضا ، فأخذه العجب ، ثم بادرته امرأة عمه قائلة : «ولدي . . . ولدي عبد الرحمن» . ثم اغمي عليها فأسرعت امرأة صاحب المنزل وجاءت بالماء ورشتها به حتى افاقت ، ففهم الباشا ان صاحب المنزل هو أخو امرأته الذي كان مفقودا ، ثم أمعن النظر فيه فاذا هو ابراهيم والد شفيق فوقف مبغوتا ولحيته ترقص على صدره من شدة التأثر لغرابة ذلك الاتفاق ، وتساقطت عبراته ولم يعد يعلم ماذا يقول . فقالت له امرأته : «هذا هو شقيقي الذي لم أره منذ خمس وعشرين سنة ، فنشكر الله على وجوده» . فأخذ الباشا يهنئهم بالسلامة وحدثته نفسه بأن يخبرهم بأمر شفيق ولكنه خشي على أبويه أن يموتا من شدة الفرح .

وأخيرا قال ابراهيم : «آه من الدهر الذي قصم ظهري ونغص عيشي ، اما كان يحسن به ان يتم عقد اجتماعنا ، بولدي شفيق ؟ !» .

فأخذ الباشا يخفف عنه قائلا : « ان الله قادر ان يجمعكما به ، فتأس الآن بأختك وأبيك ، وها أنذا ذاهب لأدعو لك أباك » . وخرج فلقيه الشيخ قبل وصوله الى موضعه وسأله عن سبب تلك الضوضاء فقص عليه الخبر بأسلوب لطيف بحيث لا يتأثر ، فدخل الشيخ وألقى بنفسه على ولده وقبله حتى أغمي عليه ، فرشوه بالماء حتى أفاق . وجلس الجميع يهنىء بعضهم

بعضا. أما الباشا فخرج الى شفيق والتأثر ظاهر في وجهه، فسأله شفيق عن سبب الضجة، وكان قد أشفق على فدوى لئلا تكون قد أصيبت بسوء، فقال الباشا : « ليس هناك الا الخير يا ولدي ولكني أسألك ان تمهلني قليلا لآتيك بالخبر اليقين». ثم دخل الباشا الغرفة التي بها الشيخان وولداهما وبنتهما وحفيدتهما، فوجدهم جميعا يندبون شفيقا ، فوقف في وسطهم قائلا : «ماذا ينقصكم الآن حتى يتم عقد اجتماعكم». فصاحوا بصوت واحد : «شفيق ، شفيق».

وكان بخيت في غرفة قريبة فلما سمع كلمة (شفيق) هب من فراشه كأنه ليس عليه بأس وجاء ماشيا وقد نسي أوجاعه ودخل بلهفة قائلا : «أين سيدي شفيق ؟». وجاء من الجهة الاخرى الخادم احمد بمثل تلك اللهفة.

فقال الباشا : «ما الذي أقامك من فراشك يا بخيت ؟». قال : «والله يا سيدي ان اسم شفيق كاف ليبعثني من القبر وليس من الفراش . فأين هو ؟».

فلما سمعت فدوى كلام بخيت علمت انه يتكلم بلسان حالها ، فهاجت عواطفها فازدادت في البكاء ، فعاد بخيت يسأل : «أين سيدي شفيق أليس هنا ؟».

فقال الباشا : « ماذا تصنعون اذا جئتكم به الآن ؟». فقال بخيت : «اما أنا . فأعطيك روحي يا سيدي». وقال الخادم احمد : «وروحي ايضا فداء لسيدي وحبيبي». فاشتد بكاء فدوى ، ثم قال عبد الرحمن وهو يمسح دموعه وامرأته تبكي بجانبه : «أرغب اليك يا سعادة الباشا الا تهيج أشجاننا أكثر من ذلك».

فقال الباشا : « امهلوني بضع دقائق فأخبركم الخبر اليقين». قال ذلك وخرج الى حيث كان شفيق ينتظره وقال له : « أتذكر اني سألتك عندما قابلتك في مصر قبل سفرك الى السودان عن أبيك فلم تجبني جوابا صريحا ، ولكنك ذكرت انك ستكتب اليه في لندن ليكتب الي، ولما سألتك عن وطنه ومذهبه لم تجبني جوابا قاطعا ، فهل علمت الآن وطن أبيك ودينه ؟».

فتأوه شفيق وأراد الاجابة فسبقته العبرات ، ثم تنهد وقال : «آه يا سيدي، لا تذكرني بمصائبي لأني لا أعلم أين مقر والدي الآن ، وقد سألت عنهما في مصر فعلمت انهما غادراها الى حيث لا يعلم أحد، ثم علمت انكم في الشام فلحقت بكم وما زلت أسأل حتى علمت انكم في دمشق فسرت برفقة هؤلاء العساكر اللبنانيين حتى التقيت بكم وكنت أؤمل ان أعرف منكم شيئا عن والدي».

فقال الباشا : «لم يكن علمي عنهما أكثر من علمك انت حتى هذه الليلة بل حتى هذه الساعة».

فقال بلهفة : « وهل عرفت عنهما شيئا الآن ؟» .
قال : «نعم، عرفت انهما على مسافة قريبة من هنا !» .
فنهض شفيق مبغوتا وقال : «قل بالله أين مقرهما» .
قال : «هما يا ولدي في مكان قريب من هنا، وفي الصباح أبعث معك بمن يهديك اليهما» .
فصاح شفيق : « كيف انتظر الى الغد، يجب ان أسير اليهما في هذه اللحظة فأرشدني اليهما يا سيدي ولك الفضل» .
فضحك الباشا وقال : «انهما في هذا البيت يا ولدي» .
فقفز شفيق من شدة الفرح قائلا : «في هذا البيت ؟ . أفي حلم انا أم في يقظة ؟ ام أنت تمزح ؟» .
فقال الباشا : «بل انت في يقظة يا ولدي ، وأنه لأعجب اتفاق لم يسمع بمثله أحد من قبل .
ثم حكى له الحكاية فأراد شفيق الهجوم على الحجرة ، فمنعه الباشا قائلا : « كان يمكنني أن أخبرهم عنك ، ولكنني أشفقت عليهم من سلطان العواطف اذ قد يترتب على شدة فرحهم ضرر جسيم ، فتعال ورائي وقف بالباب وأنا ادخل قبلك وأنبههم الى مجيئك» . . .

لقاء الحبيبين

سار الباشا وشفيق في أثره حتى وصلا الى باب الحجرة ، فدخل الباشا وأغلق الباب وراءه والتفت الى ابراهيم وامرأته قائلا : «انزعا عنكما ثياب الحداد ، لأن وقت فرحكما قد جاء، بل هو وقت فرحنا جميعا ».

فبهت الجميع وأصغوا لسماع تتمة كلامه، فاذا به قد تحول نحو الباب ففتحه وخرج وعاد ممسكا شفيقا بيده.

فلما دخل شفيق بهت الجميع وجعلوا ينظرون اليه وهم لا يدرون أفي حلم هم ام في يقظة ، ولم يكن هو أقل انذهالا منهم، فاستولى السكوت على جميع الحاضرين لحظة ، لم يكن فيها قلب غير مختلج ، ولا ركبتان غير مرتجفتين، ولا عينان غير شاخصتين. وكان أكثر الحاضرين انذهالا ذانك الوالدان اللذان اختارا التنسك ولبس الحداد والابتعاد عن العالم بعد فراق ولدهما الوحيد الذي قضيا العمر في تربيته وتثقيفه . أما فدوى التي قاست الاهوال العظام وهي غضة العود لطيفة المزاج ولم تكد تفتح عينيها حتى داهمها الحب بل الوجد فأخذ بمجامع قلبها ثم بعد عنها حبيبها الذي لم يكن لديها اعز منه في هذا العالم، فلا تسل عن حالتها حينما عانيت حبيبها أمامها بعد ان يئست من حياته.

وأما شفيق ذلك الشاب الذي ربي في مهد العز، وعرف قلبه الحب يافعا ، فقاده حب العلا وارضاء سالبة لبه الى تجشم الاسفار الطويلة واحتمال الأخطار في أقصى السودان، فلا عجب ان كان ذهوله أعظم وأشد حين دخل الغرفة فاذا فيها حبيبة قلبه، ووالداه اللذان زهدا في الدنيا يأسا من حياته واختارا التنسك على الرفاهة حتى لا يكون بينهما وبينه تفاضل في الحياة.

وما أفاق من ذهوله حتى هم بيدي أبويه يقبلهما وهما يقبلانه والجميع يبكون فرحا، ولا سيما فدوى ، التي كانت أشد الجميع تأثرا، ولكن الحياء حال بينها وبين اظهار عواطفها . على انها نسيت نفسها وأخذت تصيح قائلة : «شفيق ؟ . . شفيق هنا ؟ هل انت حي . . آه يا مهجة فؤادي أفي حلم انا أم في يقظة ؟».

اما هو فلم يكن يدري من يخاطب ولا الى من ينظر ولم تكن تسمع في تلك الغرفة الا شهيقا وبكاء يمازجه السرور والابتهاج.

وأما بخيت وأحمد فأخذا يرقصان ويقبلان يدي شفيق وكتفيه وصدره وظهره ووجهه ، ويقولان : «الحمد لله على السلامة يا سيدي».

ثم نهض الشيخ الكبير وتقدم الى حفيده وقبله بدموع الفرح، وكذلك صنعت امرأته وامرأة الباشا، ثم انتصب الشيخ واقفا وقد امتلأت عيناه بدموع الفرح وقال: «هلم بنا يا أولادي نسجد شكرا لله تعالى على هذه المنة العظيمة التي وهبنا اياها بجمع شتاتنا من أقاصي العالم». فشاركه الجميع في ذلك ، ثم جلسوا يقصون أقاصيصهم. وكانت حكاية شفيق أغرب الحكايات، وما زالوا كذلك الى الصباح . فاتفقوا جميعا على المسير الى بعلبك يقضون فيها ذلك النهار ويشاهدون قلعتها الشهيرة العجيبة البناء ثم يسافرون معا الى بيروت فمصر.

■

ظل الباشا طول ليلته يفكر في أمر هذا الاتفاق العجيب ، كما يفكر في أمر عزيز وما قد يترتب على مجيئه في الغد ، وأخيرا قرر في نفسه ان عزيز لا يستحق الاهتمام بأمره لانه خائن ذميم ، ومهما يصبه فلا أسف عليه، ولا سيما ان أملاكه كلها خرجت من يده وآلت اليه هو بمقتضى ذلك الصك.

وفي الصباح خرج شفيق الى الفرسان الذين كانوا معه فأثنى على همتهم وكافأهم مكافأة حسنة، ثم ركب مع سائر العائلة في العربتين، وساروا قاصدين بعلبك ، فوصلوا اليها في الضحى ونزلوا بفندق هناك. ثم تجولوا لمشاهدة آثارها وقضوا بقية ذلك النهار في التنقل من مكان الى آخر يسرحون الطرف في مناظر تلك السهول الخصبة التي كساها الربيع حلة خضراء ، وفي المساء عادوا مارين بحجر الحبلى الهائل المعد للبناء ، ولا يستطيع حملة أقل من ستة آلاف رجل، كما شاهدوا فيها أحجار كثيرة مثله.

أما بخيت فبقي راقدا في سريره وقاية لجراحه ، فلما كان الأصيل سمع صوت رجل يعرفه، ثم أدرك انه صوت عزيز فخفق قلبه خفوق الفرح ونهض لكي يخبره بمجيء شفيق والتقاء سائر العائلة بخير .

ودخل عزيز حجرة بخيت وهو لا يدري انه فيها ، فلما وقع نظره عليه تعجب من رقاده في منتصف النهار وسأله عن سبب ذلك فأخبره انه أصيب بجرح من اللصوص الذين سطوا عليهم في وادي القرن.

فبغت عزيز وقال : «وكيف نجوتم منهم، وهل أصاب فدوى سوء ؟». فضحك بخيت وقال : «نعم اننا وصلنا الى أشد الخطر وقد نجونا بهمة ذلك البطل الصنديد والشهم

المجيد». قال عزيز وقد خفق قلبه جزعا : « ومن هو هذا البطل ؟» .
قال بخيت : «لا أقول لك من هو حتى تسألني ذلك بالحاح». فاغتاظ عزيز وصرخ قائلا : «قل بالله قل». قال : «هو سيدي شفيق».
فوثب عزيز من كرسيه وقد امتقع لونه وارتعدت فرائصه وقال : « أصحيح ذلك يا بخيت ؟» .
قال : «نعم وحياة سيدي شفيق اني لم أقل الا الصحيح، ومع ذلك تمهل ريثما ترى جميع العائلة آتين معا، وفيهم والدا شفيق ، وأخبرك بشيء آخر أظنه لا يسرك وهو ان شفيقا ابن خال فدوى »
فاسودت الدنيا في عيني عزيز، ولم يدر أيصدق كلام بحيت أم يكذبه ، فلبث ينتظر عودة الباشا ، ثم دخل غرفة تشرف على الشارع وجلس الى النافذة.
ولما كان الغروب رأى جمهورا كبيرا قادما فحقق نظره فاذا بشفيق الى جانب فدوى يتحادثان ، وقد حمل كل منهما طاقة من الأزهار وهما في غاية السرور ، والباشا سائر بجانب شفيق فرحا. فتحقق لديه ان فدوى قد خرجت من يده ولم يعد يمكنه الحصول عليها . ثم تذكر الصك الذي أعطاه للباشا فاشتعل قلبه ندما وأحس كأنما صب عليه ماء يغلي ثم ماء بارد ، ثم سمع وقع اقدامهم على السلم فلم يعد يتمالك نفسه عن الارتعاش، فذهب الى سريره وهو ينتفض من البرد والقشعريرة وأصابته حمى شديدة أخذت تتعاظم حتى بلغت درجة الخطر ، فبادر صاحب الفندق باستدعاء الأطباء الموجودين في بعلبك فعقدوا مشورة طبية فاذا هو في حالة الخطر الشديد.
وشاع الخبر في الفندق ، وكان الباشا وأسرته قد علموا بمجيء عزيز من بخيت ، وهذا لم يكن لديه يوم أكثر سعادة من ذلك اليوم ، فلما سمعوا بمرضه تراكضوا لمشاهدته فلم يأذن لهم الاطباء في الدخول بدعوى ان المريض في حالة لا تسمح لأحد بالدخول عليه ، فلما علم شفيق بذلك تكدر لما ألم بذلك الشاب في ديار الغربة لأنه خشي ان تكون تلك الضربة قاضية عليه وأما أحمد وبخيت فكانا مسرورين بذلك لأنهما اتفقا على الانتقام من عزيز لما عرفا من دسائسه وخيانته. واما الباشا فبقي صامتا يراجع في ذاكرته حكاية الصك وما قاساه ذلك الشاب من الأسفار والذل وكيف انه استولى على كل ماله وكيف كانت نهاية أمره من الفشل الذي أورث له هذا الداء الشديد.
على ان شفيق كان أشد الجميع اسفا على ما أصاب صديقه القديم ، ولا سيما انه علم ان سبب مرضه انما هو فشل وخيبة الامل، فلم يذق طعاما في ذلك المساء أسفا عليه، وقضى الجميع معظم الليل في حديث عزيز ومرضه ، وفيما هم في ذلك جاءهم خادم الفندق يقول:

« ان العليل يود مقابلتكم غير مبال بوصية الطبيب» . فخف شفيق و لباشا الى غرفته ، ولما دخلا وقع نظرهما عليه وهو متوسد في فراشه وقد علا وجهه الاحمرار من اشتداد الحمى عليه . فلما سمع وقع خطواتهما حول وجهه نحوهما وامتلأت عيناه بالدموع ولم يكن يستطيع الحركة ، فأشار اليهما بأهداب عينيه فاقتربا منه باكيين ووقفا بازاء سريره صامتين لئلا يزعجاه بالكلام وكان الطبيب في الغرفة ساهرا من أجله ، فأشار عزيز اليه ان يخرج قليلا فخرج ولم يبق في الغرفة غيره والباشا وشفيق ، فأومأ اليهما وقد ضاق تنفسه من اشتداد الحمى ان يجلسا ، فأخذ كل منهما كرسيا وجلسا أمام السرير ينظران اليه نظرة الاسف ، ولاسيما شفيق فإنه نسي كل سيئاته وكاد ينفطر قلبه شفقة عليه .

وبعد بضع دقائق أعاد عزيز نظره اليهما وهو يريد التكلم فلا يستطيعه ، فسأله شفيق «وهل تحتاج الى شيء؟» . فأشار اليه بيده ان ينتظر ريثما يهدأ روعه فيخاطبه ، ثم مد يده الى شفيق فمد شفيق يده اليه وأمسكه فأحس بارتجاف شديد ومد يده الاخرى فأمسكه شفيق باليد الاخرى فتوكأ عزيز على يدي شفيق يريد الجلوس فلم يستطع ، فوقف الباشا واسند ظهره ، ثم أجلساه وجعلا الوسائد وراء ظهره ، فجلس وهو لا زال قابضا على يدي شفيق ، ثم جذبه اليه حتى دنا منه فضمه الى صدره وجعل يقبله ويبكي بكاء الطفل والدموع تتساقط على خديه كالمطر ، ولم يكن شفيق أقل بكاء منه وقد أدرك انه يريد استغفاره مما فرط منه فقال له : «طب نفسا يا عزيزي ، اني غافر لك كل ما تقدم من ذنبك» .

فتكلم عزيز عند ذلك وقال : «اني مستوجب لأكثر من الموت ، لان السماء قد سخطت على لجنايتي ودناءتي ، وكأن الله لم يرد ان تدنس يدك بقتلي فقتلني بالمرض ، فأتقدم اليك ، ان تشفق على دموعي وضعفي وتصفح عني فاني لا أستحق أقل من القتل ، وعما قليل أفارق هذه الدنيا ، فلم أشأ مفارقتها قبل ان استغفرك أيها الشهم الكريم ، لأني قد أخطأت في حقك وأذنبت ذنبا لا يغتفر ، وكم أردت بك السوء فجازيتني بالصفح ، ، وقد انتقم الله لك مني انتقاما عادلاً» .

فلم يعد شفيق يتمالك عن البكاء ، ولكنه هم بعزيز وقبله مرارا وقال له : « ان الله يغفر الذنوب جميعا يا عزيزي ، وكل شيء بقضاء منه سبحانه وتعالى ، وقد صفحت عنك وأطلب الى الله تعالى ان ينقذك من هذا الداء» .

فصاح عزيز وقد انهكه العياء قائلا : «لا . . لا . . اني لا أستحق الحياة ، ولم يعد يحلو لي المقام في هذه الدنيا لاني دنستها بشروري وارتكبت فيها الخيانة والغدر . . أجل اني خائن غادر ، وقد كرهت حياتي الرديئة المدنسة بالشرور» . ثم التفت الى الباشا قائلا : «وأنت أيها

الشيخ الجليل، اصفح عن شروري، واسأل ذلك الملاك الارضي ان تعفو عني لما سببت لها من الشقاء بخيانتي فكم نغصت عيشها وحاولت أذاها وهي ثابتة على وداد من لا أستحق ان ألثم حذاءه، آه لو أراها فأقبل نعلها وأستغفرها قبل موتي، لأني أشعر بثقل آثامي نحوها ونحو حبيبها هذا . . . آه اني أشعر بأثقال أعظم مما احتمل وها أنذا أرى الابالسة قادمة لاختطاف روحي الشقية لتلقيها الى السعير».

فقال الباشا : «شفاك الله يا ولداه ، ولا أراك مكروها ، وما دمت قد شعرت بخطئك فان الله سيرفع عنك هذه الشدة ، لأنه يقبل التائبين». .

■

فقال عزيز : «ان ذنوبي أكثر من أن تغتفر، والموت أحب الي من الحياة ، ولم تعد عيناي تستحق النظر الى خيال تلك الفتاة الطاهرة العفيفة الودودة الخالية من كل عيب ، ولا الى هذا الشهم الفاضل الشريف الكريم الاخلاق». قال ذلك وألقى بنفسه الى السرير وغاب عن الصواب، فأسرع شفيق باستدعاء الطبيب ، فدخل وأمر بالثلج فوضع على رأسه ثم جس نبضه وهز رأسه أسفاً فاشتد قلق شفيق والباشا ولم يعد يمكنهما مبارحة الغرفة ، ولكن الطبيب طلب اليهما ان يخرجا قليلا ففعلا ، فاذا بفدوى وسائر الأسرة في انتظارهما ، وما علموا باشتداد الخطر على عزيز حتى أخذتهم الشفقة به وأسفوا لذلك كثيرا.

❋

مضى الليل دون ان يناموا الا يسير، ثم بكر شفيق في الصباح الى غرفة عزيز فقيل له : «انه راقد وقد كلله العرق». فاستبشر بزوال الحمى وعاد فأخبر الاسرة بما كان.

اما فدوى فكانت تعجب لشهامة حبيبها وكرم اخلاقه وودت شفاء عزيز اكراما لعواطفه لأنها رأته آسفا كثيرا على موته.

ولما كان الضحى جاءهم خادم الفندق يدعوهم الى غرفة عزيز، فذهبوا اليه فاذا هو في السرير وقد صفا لون بشرته، فدخل شفيق والباشا فقال لهما : «الا يأذن لي سيدي بنظرة قبل الممات من تلك العذراء الطاهرة ولو من وراء اللثام لعلها اذا رأت حالتي ترثي لها وتعفو عن زلتي فان الله يستجيب دعاء الطاهرين».

فبعث الباشا الى فدوى فحضرت ملثمة ومعها والدتها وجداها فلما وقع نظره عليها بكى وقال : «اليك أتوسل ايها الملاك الأرضي ان تصفحي عن ذلتي وتغفري ذنبي انا الخائن الغادر

الكاذب . وها انذا مفارق هذا العالم الدنس بشروري قريبا ، فأطلب الى الله بهذا اللسان الدنس وهذا القلب الشقي ان يتم اقترانك بهذا الشهم الذي يليق بك، وان يحفظكما سعيدين راتعين في الرغد والهناء ، لكي تنسيا ما كابدتماه بسببي من المتاعب والعذاب».

قال ذلك وأخذ يشهق بالبكاء حتى كاد يشرق بدموعه .

اما فدوى فلم تجب ببنت شفة ولكنها تأثرت من تلك العبارات كثيرا حتى بكت وصفحت عما تحملته بسببه.

فقال له الباشا : «انك يا ولدي قد فطرت قلوبنا بتوبتك وندمك، وصرنا نود شفاءك من كل قلوبنا ، وأنا واثق ان ولدي شفيقا لا يريد لك الا الخير فنطلب الى الله ان يشفيك » . فهم شفيق بعزيز وقبله قائلا : «ان الله قادر على ان يشفيك، وأعاهدك على ألا أعاملك الا معاملة الاخ اذ قد نسيت كل ما جنيته، وما هي الا هفوات يرتكبها بنو الانسان لضعفهم، وجل من لا يخطىء»

وفيما هم في الحديث جاء الطبيب وفحصه ثم تبسم فاستبشر الجميع بزوال الخطر وشكروا الله ، ثم قال لهم الطبيب: «ان العليل يحتاج الى الرقاد الآن فاذا رقد ساعة ينهض معافى ان شاء الله».

فخرجوا من الغرفة فرحين ، وعادوه بعد الغداء فاذا هو جالس في الفراش وعلى وجهه أمارات الصحة وقد زالت عنه الحمى تماما، وما زال يتقدم نحو الصحة يوما بعد يوم حتى عوفي تماما بعد ثلاثة ايام.

وزاره شفيق وهنأه بالسلامة فقال عزيز : «اني لا أستطيع النظر الى وجهك حتى تؤكد لي صفحك عني». فقبله وأقسم له بالشرف انه قد صفح عنه، فقبله عزيز ونادى الباشا فحضر فقبل يده قائلا : «اني أكون سعيدا اذا قبلتموني خادما في ركابكم » . فقال الباشا : «العفو يا ولدي » . فقال شفيق لعزيز : «انك ستكون معنا أخا وصديقا ، وقد علمت بأمر الصك الذي كتبته لعمي ولا حاجة لنا به، وها أنذا اتقدم الى سعادة الباشا ان يتكرم بارجاعه اليك لتعيش به فانه مالك وأنت أولى به ، أما نحن فاننا مكتفون بحول الله تعالى».

فصاح عزيز قائلا : «كلا . . كلا . . اني لا أستحق قرشا واحدا من ذلك المال. وحسبي اني بقيت حيا بعد كثرة ذنوبي ، وهذا المال حق شرعي لكم».

فتبسم شفيق وأخذ الصك من يد الباشا ودفعه الى عزيز فلم يرض تسلمه وألح عليه ان يبقيه معه وأنه قد تنازل عن أمواله كلها له لا يريد منها أكثر من سد الرمق ، فأبى شفيق ذلك ، ولما لم يقبل عزيز تسلم الصك مزقه شفيق بين يديه ثم أحرقه.

فأعجب الجميع بتلك الشهامة ، ولا سيما عزيز الذي أصبح أسيرا له طوع ما يريد ثم قال : « سواء أردتم ام لم تريدوا فلا أقبل مفارقتكم بعد الآن، واني أعد نفسي خادما لكم».

فقال الباشا : « اذا أردت البقاء معنا فإنك تكون ولدا لنا».
وقال له شفيق : « انت أخي بعهد الله والله غفار الذنوب».
أما بخيت فعاد بعد شفاء عزيز الى حب الانتقام منه اذ تذكر سابق خياناته، وقد اغتاظ لما رأى شفيقا يمزق الصك ولكنه سحر بشهامته ونظر الى عزيز قائلا : «انظر يا عزيز انك والله لا تستوجب بحسب شريعتي أقل من الصلب، ولكن شهامة هذا البطل قد عفت عنك، ولو أمرنا بأن نعبدك لعبدناك لان امره مطاع، والأمر له ولسيدي الباشا. ولكنني لا أنسى أعمالك وذلك الكتاب الذي بعثت به بل تلك الكتب التي سببت الشقاء لسيدتي ولكن...».

فابتدره أحمد الخادم وقال : «أتذكر يوم رافقته الى الاسكندرية و ...».

فأسكته شفيق قائلا كفى ما قلتماه، واعلما ان من يريد الأذى لأخي عزيز فقد أراده لي، ولا أقول أكثر من ذلك ». فقال الاثنان معا : «انه سيدنا ومولانا والامر أمره بعد أمرك».

ومكث الجميع في بعلبك يوما آخر، ثم ساروا الى بيروت ومنها الى مصر، ولما دخلوا المدينة نزلوا ببيت الباشا، وكانوا قد أعدوا فيه سائر وسائل الزينة.

ففي ليلة وصولهم قالت سعدى لابراهيم : « أتذكر كلامي لك في لندن عن زواج شفيق باحدى غنيات مصر فلم ترض».

قال : «نعم».

قالت : «هي فدوى التي كنت أعنيها، فها قد تزوجها».

فقال : «ألم أقل لك اني لا أزوجه الا بواحدة من أقاربي فها انه لم يتزوج الا ابنة عمته، فسبحان مدبر الامور وموفق الحوادث».

واحتفل الباشا احتفالا شائقا بزفاف ابنته الى شفيق، دعا اليه عددا غفيرا من أعيان القاهرة ونزلائها

وعاشت الاسرة كلها بعد ذلك في رغد وسعادة الى أن قضى الله ما شاء.

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا
تلفون ٢٣١٩٣٠ ص.ب ١٣٩٠

وُلِدَ جُرجي زيدان ، مؤلف سِلسِلة « روايات تاريخ الإسلام »، هذه في بيروت سنة ١٨٦١ وعاش في القاهرة حيث توفي هنالك سنة ١٩١٤ م . وهو يُعتبر من خيرة رجال النهضة الثقافية العربية الحديثة ، إذ بالإضافة إلى آثاره العظيمة التي عرفته كباحث عظيم الجلد من مثل « تاريخ التمدن الإسلامي » و« تاريخ آداب اللغة العربية » و« تراجم مشاهير الشرق » والكثير من الأبحاث المختلفة. بالإضافة إلى ذلك نجده ذا رسالة هامة أداها بتبسيطه للتاريخ العربي ووصفه لبيئته ودقائق حوادثه ودوافع البطولة فيه. وقد تفرد بإنتاج مجموعة من الروايات التاريخية في هذا المجال كانت النافذة الأمينة التي أطل منها القارئ العربي الحديث بشوق على تاريخ قومه ومزايا أبطالهم .

فلقد كان جرجي زيدان بحق رائدًا من أفضل رواد النهضة العربية الحديثة . ولئن جاراه الآخرون في أبحاثه التاريخية والأدبية فسيبقى متفردًا بينهم كفنان فذ في سلسلة كتبه هذه التي تصدر هذه الطبعة منها دار مكتبة الحياة ، ألا وهي « روايات تاريخ الإسلام » وهي:

سلسلة لا غنى للقارئ العربي عنها

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان